

دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

الجزء الثاني

ترجمة: سامي الدروبي

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع وَرَثَة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

2

ترجمة: سامي الدروبي

المركز الثقافي العربي

الكتاب: **الإخوة كارامازوف 2 (رواية)**
المؤلف: **دوستويفسكي**
المترجم: **سامي الدروبي**
الطبعة الأولى: 2010
ISBN 978-9953-68-467-7

الناشر: **المركز الثقافي العربي**
بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان
ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01352826 ـ 01750507
فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب
ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 شارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 522303339 ـ 522307651
فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

الجُزْءُ الثَّانِي

الباب الرابع

التمزّقات

– 1 –

الأب فيرابونت

استيقظ أليوشا في ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح. وكان الشيخ قد صحا فلا يستطيع النوم، وكان يشعر بوهن شديد وضعف هائل، ولكنه أصرّ على أن يبارح سريره وأن يجلس على مقعد. إنه كامل الوعى، وإن وجهه يبدو مضيئاً حتى لكأنه فرح، رغم آثار التعب الشديد الظاهرة فيه. وإن نظرته مرحة باشة هاشة مشجعة.

قال لأليوشا: قد لا أعيش إلى آخر هذا اليوم.

ثم أعرب عن رغبته في أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس فوراً. وكان الأب بائيسى هو الذي يقوم له بدور الكاهن في اعترافه. فبعد أن أتم الشيخ التناول بنَوْعَيه، استعد للقيام «بالمسحة الأخيرة». فاجتمع الرهبان الكهنة في حجرته التي أخذت تمتلىء بالنساك شيئاً فشيئاً. وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون في الدير يتوافدون هم أيضاً. وبعد القداس أظهر الشيخ نيته في توديع الجميع، فأخذ يقبل كل واحد. وإذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأُوَل يتركون المكان للواصلين بعدهم. ولبث أليوشا إلى جانب الشيخ زوسيما الذي كان قد جلس على مقعده من جديد. فكان الشيخ يتكلم ويعلّم بقدر ما كانت تسمح له قواه، وكان صوته،

رغم ما أصابه من ضعف شديد، ما يزال صلباً.

«انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين. انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم إذن بصوت عالٍ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث إليكم، أيها الآباء والأخوة الأعزة، أننى أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الأمر ولو أردت، والكلام أصبح أسهل عليَّ من الصمت في هذه اللحظة رغم ضعفي» (كذلك قال مازحاً، وهو يجيل على الرهبان الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً حنوناً).

تذكر أليوشا فيما بعد بعض الأفكار التي عبَّر عنها الشيخ في ذلك اليوم. ورغم أن الشيخ قد تكلم كلاماً واضحاً متميزاً، ورغم أن صوته ظل صلباً صلابة كافية، فإن أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير. لقد عالج مسائل كثيرة، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه، وأن يفصح مرة أخيرة، وهو على مقربة من الموت، عن أعمق خطرات نفسه، عن تلك الخطرات التي لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها إلى الناس نقلاً كاملاً. وكان لا يفعل ذلك بنيّة تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعاً إليه بظمأ حار إلى إشراك كل ما حوله ومن حوله في الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه، وإلى نشر حبه في العالم مرة أخيرة.

كان الشيخ يعلِّم قائلاً وفقاً لما تذكره أليوشا: «أحبوا بعضكم بعضاً أيها الآباء. أحبوا جميع أبناء الرب. لا تظنوا أنكم أقدس من الدنيويين لأنكم اخترتم أن تعيشوا في الدير، ولأنكم مسجونون داخل جدرانه. بالعكس: إن كل واحد من الذين جاءوا إلى هنا قد أحسّ واعترف هو نفسه، من مجرد اعتكافه في الدير، بأنه كان شراً من الإنسان العادي وأسوأ من جميع الدنيويين وجميع الناس عامة

الذين بقوا في الجهة الأخرى... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشرّبها تشرباً ما ينفك يزداد عمقاً كلما طالت حياته في الدير. فلولا أن الامر كان كذلك، لما كان ثمة أي سبب يبعث على الالتجاء إلى الدير. يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من الدنيويين فحسب، بل إنه كذلك مذنب في حق جميع البشر الآخرين، مسؤول عن كل الشر الذي يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات. فبهذا الشرط وحده إنما يتحقق الهدف من اعتزالنا في الدير. اعلموا أيها الأخوة الأعزة أن كلاً منا يتحمل حتماً المسؤولية عن جميع البشر وعن كل شيء على الأرض لا بسبب الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها، بل إن كلاً منا مسؤول عن جميع ذنوب المجتمع وعن أخطاء كل إنسان على هذه الأرض. إن الشعور بهذه الحقيقة هو الذي يتوج الحياة الرهبانية، كما يتوّج من جهة أخرى حياة كل إنسان أياً كان. ذلك أن الرهبان لا يختلفون عن سائر البشر، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا إلى ما ينبغي لكل الناس أن يكونوا عليه. فإذا تحقق هذا الهدف تنفتح قلوبنا أخيراً للحب اللانهائي، الشامل، الذي لا يرتوي ظمأه قط. وعندئذ سوف يجد كل منكم في نفسه القدرة على غزو العالم كله بالحب، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض...

ألا فلتصغوا جميعاً إلى صوت قلوبكم، ألا فلتعترفوا جميعاً بأخطائكم لأنفسكم في غير مهادنة. لا تخشوا خطاياكم وإن تكن واضحةً لأبصاركم، شريطة أن تندموا على ارتكابها وأن تتوبوا عنها! ولكن إياكم أن تفرضوا على الرب شروطاً، إيّاكم والتسويات مع الرب. وأكرر لكم خاصة: إياكم والزهوّ والعلف. لا تتعالوا. لا تتعالوا على الصغار، ولا تتعالوا كذلك على الكبار. لا تكرهوا

أولئك الذين ينبذونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويغتابونكم. ولا تكرهوا الملحدين، ودعاة الشر والماديين، لا تكرهوا حتى أسوأ هؤلاء وأخبثهم، ناهيكم عن أخيارهم، لأن بينهم أخياراً، في عصرنا هذا خاصة. اذكروهم في صلواتكم على النحو التالي: «أنقذ جميع الناس يا رب! أنقذ جميع الذين لا يصلّي لهم أحد، وأولئك الذين يريدون أن يصلوا لك!» ولكن عليكم أن تبادروا فتضيفوا إلى ذلك فوراً: «اللّهم إني لا أسألك هذا زهواً بنفسي، فإنني شر الناس طراً وأشقاهم قاطبة»... أحبوا أبناء الرب، أحبوا الشعب، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع. فإذا استسلمتم للكسل، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق، أو إذا انسقتم إلى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى)، فإن رجالاً من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم. بشروا بالأناجيل في صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال... إياكم والطمع، إياكم والتعلق بالذهب أو الفضة... ازهدوا في امتلاك الذهب والفضة... آمنوا بالله، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة، ارفعوها عالية، عالية...»

كان الشيخ يقول كلاماً فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهر منهما هنا في ما دوّنه بعد ذلك أليوشا. كان يتوقف عن الكلام من حين إلى حين، كأنما ليستجمع قواه، وكان يلهث لهاثاً واضحاً، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة. وكان الحشد يصغي إليه في تأثر وخشوع، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم، غامضةً لبعضهم الآخر... وقد تذكر المستمعون هذه المعاني التي عبر عنها الشيخ، تذكروها فيما بعد.

وقد تغيب أليوشا لحظات، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطراباً شديداً قد استولى على جميع من كانوا في الصومعة ومن

كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب. كان جميع الرهبان في حالة انتظار شديد يمازجه قلق لدى بعضهم، ويصطبغ بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر. كان يبدو عليهم جميعاً أنهم يرتقبون حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فوراً. قد تدل هذه الحالة النفسية على شيء من خفة وطيش، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان، حتى أكثرهم هدوءاً وأشدهم صرامة. وكان وجه الكاهن الراهب بائيسى يعبّر عن خطورة خاصة.

لقد غاب أليوشا لحظة لأن راكيتين الذي عاد من المدينة حاملاً إليه من السيدة خوخلاكوفا رسالة غريبة بعض الغرابة، قد أرسل إليه أحد الرهبان يستدعيه خفية. إن هذه الرسالة تبلغ أليوشا خبراً طريفاً جاء الآن في أنسب وقت. يتذكّر القارئ أن من بين نساء الشعب المؤمنات اللواتي جئن أمس إلى الشيخ ليحيينه وليتلقين بركته كانت هنالك امرأة عجوز من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهي أرملة صف ضابط. إن هذه المرأة قد سألت الشيخ هل في وسعها أن تطلب أقامة صلوات في الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذي سافر بمهمة إلى منطقة نائية من سيبيريا تقع في جهة ايركوتسك، ثم لم تصلها أنباؤه منذ سنة، سألت هل في وسعها أن تطلب إقامة صلوات على روحه كما لو كان قد مات؟ وقد نهاها الشيخ عن هذا نهياً قاسياً، ووصف اللجوء إلى مثل هذه الصلوات بأنه شعوذة وسحر. ولكنه غفر لها بعد ذلك بسبب جهلها، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلاً لها «كأنه قد وهبت له القدرة على القراءة في كتاب المستقبل» (هذه هي العبارة التي استعملتها السيدة خوخلاكوفا في رسالتها)، أن «ابنها فاسيا ما يزال على قيد الحياة حتماً، وأنه عائد إليها قريباً، أو أنه سيكتب إليها على كل حال، وأن عليها أن ترجع إلى بيتها مطمئنة

تنتظر أوبته. فما الذي حدث؟ (تابعت السيدة خوخلاكوفا بحماسة) حدث أن النبوءة قد تحققت كاملة، بل أكثر من ذلك؟ فإن المرأة العجوز ما إن رجعت أمس إلى مسكنها حتى أُعطيت رسالة وصلت من سيبيريا أثناء غيبتها، وفي هذه الرسالة التي كتبها إليها فاسيا في طريق عودته، من إيكاتيرنبورج[1]، يبلغ الولد أمه أنه عائد إلى روسيا بصحبة موظف، وأنه «يأمل أن يستطيع تقبيل أمه» بعد ثلاثة أسابيع في أكثر تقدير.

إن السيدة خوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحةً أن يُنقل إلى علم كبير الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه «المعجزة الجديدة من معجزات النبوءة»، وتقول له هاتفة في ختام رسالتها: «يجب أن يعلم جميعهم هذا النبأ، يجب أن يعلمه جميعهم حتماً!» وكان واضحاً أنها قد كتبت هذه الأسطر متعجلة تعجلاً شديداً، وكان واضحاً أن كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوي وتأثر عميق. غير أن أليوشا لم يحتج إلى إبلاغ الرهبان النبأ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه، لأن راكيتين، حين كلف أحد الرهبان باستدعاء أليوشا إليه، قد رجاه في هذه المناسبة نفسها أن «يبلغ الأب المحترم بائيسي، بكثير من الاحترام، أنه يود لو يراه حالاً ليكلمه في أمر هام جداً يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه في غير إبطاء، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة، آملاً في كثير من المذلة والتواضع أن تُغفر له هذه الجرأة». ولما كان الراهب قد نقل هذه الرسالة إلى الأب بائيسي قبل أن يستدعي أليوشا، فإنه لم يبق على أليوشا بعد عودته إلى الصومعة وقراءة الرسالة إلا أن يُطلع عليها الأب بائيسى بصفتها مجرد وثيقة تؤكد الخبر. أخذ هذا الرجل الصارم الريّاب يقرأ الرسالة مقطباً حاجبيه، فلم يملك هو أيضاً حين اطلع على رواية «هذه المعجزة»

أن يمسك عن إظهار بعض العواطف التي هزت نفسه، فإذا نظرته تسطع، وإذا شفتاه تلينان قليلاً، وإذا فمه يبتسم ابتسامة رزينة عميقة، وإذا لسانه تُفلت منه هذه العبارة على غير إرادة منه:

- سنرى معجزات أخرى كثيرة!

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به، رددوا يقولون:

- سنرى معجزات أخرى كثيرة!

ولكن الأب بائيسى قطب حاجبيه من جديد، ورجاهم أن يمتنعوا، الآن على الأقل، عن التعليق على هذا الحادث جهاراً، وأن لا ينقلوه إلى أحد قبل الأوان:

- يحسن أن ننتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد إقناعاً، لأن الدنيويين كثيراً ما يظهرون خفة وطيشاً في هذه الأمور.

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدىء ضميره:

- ثم إن هذا الحادث الذي أمامنا، قد يُفسّر تفسيراً لا شأن له بما هو فوق الطبيعة...

قال الأب بائيسى ذلك، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من اقتناعه شيئاً، وذلك ما أدركه الحضور إدراكاً قوياً واضحاً. وسرعان ما انتقل نبأ «المعجزة» من فمٍ إلى فم، فما هي إلا برهة قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير، وحتى عرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاؤوا إلى الدير لحضور الطقوس. وكان أشد الناس انبهاراً في الظاهر إنما هو راهب صغير من «سان سيلفستر» وصل أمس من دير أوبدورسك الصغير بالشمال الأقصى. كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفاً إلى جانب السيدة خوخلاكوفا، فبعد أن حيّا الشيخ سأله، بمناسبة «شفاء» ابنة تلك السيدة، سأله بانفعال: «ما هي القوّة التي تتيح له أن يجسر على تحقيق مثل هذه الأمور؟»

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن. ذلك أنه في مساء أمس قد زار واحداً من رهبان الدير هو الأب فيرابونت، في الصومعة الخاصة التي يسكنها وراء خلايا النحل، وقد تأثر تأثراً عميقاً بالحديث الذي جرى بينه وبينه، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب، وساوره منه جزع. والأب فيرابونت إنما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام، والذي كان يعد، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل، خصماً للشيخ زوسيما، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة. وانه لخصم خطر جداً رغم أنه لا يكاد يكلم أحداً من الناس، تقيداً بقاعدة الصمت. وكان يبدو خطراً بوجه خاص لأن رهباناً كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة، ولأن بين الزوار الدنيويين أناساً كثيرين أيضاً كانوا يرون فيه زاهداً كبيراً ورجلا مقدساً، رغم تسليمهم بأنه رجل بسيط العقل دون شك. ولكن بساطة قوله هذه هي بعينها عنصر الجاذبية فيه. كان الأب فيرابونت لا يذهب إلى الشيخ زوسيما قط. ورغم أنه عاش في المَنْسَك، فما من أحد كان يماحكه كثيراً في أمر مراعاة القواعد المتبعة في المنسك لأن تصرفه في هذه النقطة أيضاً كان تصرف رجل بسيط العقل. إنه في الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد، وهو يعيش وراء خلايا النحل، عند زاوية الجدار، في صومعة قديمة جداً مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالاً متداعية منذ الآن، وقد بنيت هذه الصومعة خلال القرن الماضي فيما يقال، لراهب آخر اشتهر هو أيضاً بكفارات الصيام عن الطعام والكلام: ذلك هو الأب يوحنا الذي عمَّر مائة وخمس سنوات، وعرف بأعمال قداسة ما يزال الناس في الدير وفي المنطقة المجاورة يذكرون عنها تفاصيل شيّقة.

وقد استطاع الأب فيرابونت أن يظفر أخيراً، منذ سبع سنين، بسكنى هذه الصومعة المنزوية التي تكاد تكون خِرْبةً بسيطة ولكنها شبيهة جداً بمعبد صغير، لكثرة أيقونات النذور التي تملؤها، والتي تشتعل مصابيح النذور أيضاً أمامها بغير انقطاع. وقد كُلِّف الأب فيرابونت نوعاً من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وإشعالها. وكان طعامه، كما يقال (وهذا صحيح)، لا يزيد على رطلين من الخبز كل ثلاثة أيام في أكثر تقدير، يحمله إليه كل ثلاثة أيام، النحّال الذي يسكن في المنحل أيضاً. فكان الأب فيرابونت، حتى مع هذا النحال الذي يخدمه، لا يتحدث إلا نادراً جداً. وهو لا يأكل طوال الأسبوع، إلا الأرطال الأربعة من الخبز، إضافةً إلى لقم القربان المقدس التي كان كبير الرهبان يرسلها إلى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية في أيام الآحاد. وكانت جرة الماء التي يشرب منها تُملأ له كل يوم. وكان الأب فيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبداً. وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيراً ما كان يقضي أياماً بكاملها في الصلاة جاثياً على ركبتيه طول الوقت لا ينظر حوله يمنة ولا يسرة. فإذا اتفق له في مناسبة من المناسبات أن يكلمهم، كان كلامه لهم موجزاً مقتضباً غريباً، حتى ليكاد يكون فظاً غليظاً في جميع الأحيان. صحيح أنه كان يحدث، في القليل النادر، أن يندفع في مناقشات أطول، ولكنه كان في أكثر الأحيان يكتفي بإطلاق جملة عجيبة يكون وقعها في نفس زائره وقع لغز محيِّر، ثم يرفض أن يعقِّب عليها بأي شرح رغم جميع التوسلات. ولم يكن الأب فيرابونت في رتبة كاهن، وإنما ظل راهباً بسيطاً. وقد راجت عنه في بعض الأوساط، وهي الأوساط الجاهلة والحق يقال، شائعة غريبة مفادها أن الأب فيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية، فهو لا

يتحدث إلا مع تلك الأرواح، وهو لهذا السبب يلزم الصمت مع البشر الغانين.

استطاع راهب أويدورسك الصغير أن يهتدي إلى الطريق المفضي إلى المنحل، فاتجه متبعاً إشارات النحال، وهو راهب صموت متجهم أيضاً، نحو ركن الحائط الذي توجد عنده صومعة الأب فيرابونت. وقد أنذره النحال قائلاً: «ربما رضي أن يخاطبك ببضع كلمات، لأنك راهب حاج، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة».

اقترب الراهب الصغير من صومعة الناسك وهو يشعر برعب شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد. وكان ذلك في ساعة متأخرة. إن الأب فيرابونت جالس في هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جداً وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة، والهواء أنعشته طراوة المساء.

سجد راهب أويدورسك أمام الناسك المقدس، وطلب إليه أن يباركه. فقال له الأب فيرابونت:

- أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضاً على الأرض أمامك؟ هيا انهض!

نهض الراهب الصغير.

- ألا فلتحل عليك البركة. اجلس بجانبي. من أين أنت؟

دُهش راهب أويدورسك خاصة من أن الأب فيرابونت، رغم أنه طاعن في السن، ورغم الصيام القاسي الذي يفرضه على نفسه، ما يزال صحيح البنية قوي الجسم، وهو فارع الطول منتصب القامة، له وجه نحيل لكنه نضر سليم. إن المرء يشعر أنه ما يزال محتفظاً بقوة بدنية عظيمة. ولقد كانت بنية رجل رياضي على كل حال. ثم إنه

على تقدمه في العمر لم يشب تماماً، وما يزال شعر رأسه ولحيته، الذي كان في الماضي فاحم السواد، ما يزال غزيراً كثيفاً. وعيناه الشهباوتان كبيرتان ساطعتان، ولكنهما جاحظتان كثيراً، وتلك سمةٌ تخطف البصر رأساً. وهو يتكلم مشدداً حرف «الواو» تشديداً قوياً. أما لباسه فعباءة طويلة ضاربة إلى حمرة من ذلك القماش الذي كان يسمى في الماضي «جوخ السجناء»، مع حبل طويل يتخذه حزاماً. والعنق والصدر عاريان. وتحت الثوب يُرى قميص من خيش يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب فيرابونت لا يبدله طيلة شهور. وكان يقال إنه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً. وقدماه بلا جوربين، وإنما ينتعل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه.

- أنا آتٍ من دير القديس سيلفستر الصغير في أوبدورسك.

كذلك قال الزائر مجيباً بلهجة ذليلة وهو ينظر إلى الناسك بعينيه الصغيرتين الحادتين اللتين ما تزالان مروَّعتين قليلاً.

- أنا أعرف صاحبك سيلفستر. لقد عشت عنده زمناً. كيف حاله؟ كيف صحته؟

اضطرب الراهب الصغير.

- يا لكم من رجال حمقى مجانين! كيف تصومون هناك؟

- طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة: ففي أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئاً في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة. وفي أيام الثلاثاء والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة بعسل، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء. وفي أيام السبت نأكل حساء بالكرنب وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً، وذلك كله مطبوخ بالزيت. ويضاف إلى حساء الكرنب شيء من سمك مقدَّد وبرغل عادي في أيام الأحد. أما في

الأسبوع المقدس فلا نأكل، من صباح الاثنين إلى مساء السبت، أي خلال ستة أيام، إلا خبزاً وماء وخضاراً نيئة - وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال. ذلك أنه إذا كان مباحاً لنا أن نأكل في ذلك الأوان، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع، ولا أن نفعله كل يوم. ففي يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوماً كاملاً، وفي يوم السبت من هذا الاسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نحتسي قدحاً واحداً من النبيذ؛ وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم إلينا طعام مطبوخ بغير زيت، وشيء من نبيذ، وبعض المآكل الناشفة. ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في لاوديكيا[2] قد أقر النظام التالي في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس: «لا يحسن قطع الصيام في يوم خميس آخر الأسبوع، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله». ذلك هو صيامنا. وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى القاعدة التي فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذي بدا أنه استرد شيئاً من رباطة جأشه)، لأنك لا تتغذى إلا بخبز وماء طوال السنة، حتى في يوم الفصح المقدس، ولأن مقدار الخبز الذي نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعاً كاملاً إنه لمن المدهش حقاً هذا التقشف العظيم.

سأله الأب فيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف محوَّرة:

- وفطر الغابات؟

فكرر الراهب الصغير يقول مندهشاً:

- فطر الغابات؟

- طبعاً! أنا أستطيع أن أستغني عن خبزهم، فما بي إليه حاجة قط: أذهب إلى الغابة إذا لزم ذلك، فأتغذى فيها بالفطر والثمار. الرهبان هنا، لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز، فهم إذاً مشدودون إلى الشيطان. إن في زماننا هذا كفرة كريهين يؤكدون أن الصيام لا حاجة إليه. فتفكيرهم مشبع بالتكبّر والصلف وقد تسللت إليه روح الشيطان.

قال الراهب الصغير متنهداً:

- ما أصدق هذا الكلام!

سأل الأب فيرابونت:

- هل رأيت الحبّ حين كنت عندهم؟

- عندهم؟ عند من؟

كذلك سأل الراهب الصغير في وجل واستحياء.

قال الأب فيرابونت:

- زرت كبير الرهبان في عيد الخمسين من السنة الماضية، ولكنني لم أعد إليه منذ ذلك الحين. رأيت عند أحد الرهبان جنّاً على صدره، ورأيت جنّاً يختبىء تحت ثياب راهب آخر فما تظهر منه إلا قرونه. لقد رأيت واحداً منهم يقبع في جيب راهب، فما يظهر منه إلا رأسه، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين. كان خائفاً مني فيما يبدو. وبعض الرهبان يؤوون جنًا في بطونهم بين أحشائهم النجسة. وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجنّ دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم.

سأله الراهب الصغير:

- وهل... وُهبت لك القدرة على رؤيتهم؟

- قلت لك إنني أراهم. إن نظرتي تخترقهم اختراقاً. حين

خرجت من عند كبير الرهبان، فاجأت واحداً منهم حاول أن يختبىء وراء الباب حين لمحني. كان هذا طويل القامة، يبلغ طوله متراً أو يزيد. وكان له ذيل ضخم بني، طويل جداً، قد انحشر في شق الباب في تلك اللحظة. ولم أكن غبياً فدفعت الباب بقوة سحقت ذيله، فأطلق من صدره أنيناً حاداً، فبينما كان يتخبط رسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، فإذا هو يفطس كما يفطس عنكبوت دِيسَ بالقدم، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب، فصار الهواء هنالك موبوءاً، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئاً ولا يشمون شيئاً! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها إلى ذلك المكان. إني أسرُّ إليك وحدك بها الأمر، لأنك غريب عن هذا الدير.

هتف الراهب الصغير يقول:

- رهيب ما تقوله!

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئاً بعد شيء:

- وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجَّل، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التي راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية، وهي أنك على صلة مستمرة بالروح القدس؟

- الروح القدس يهبط إلى هنا أحياناً. ذلك يحدث.

- يهبط إلى هنا؟ في أي صورة؟

- في صورة طائر.

- الروح القدس يظهر لك في صورة حمامة؟

- يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة. فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلى في صور شتى، فتارة تظهر في صورة سنونو، وتارة تظهر في صورة حسُّون أو في صورة قرقب أيضاً.

- فكيف تميزها عن قرقب عادي؟

- أعرفها لأنها تتكلم.
- كيف هذا؟ بأي لغة؟
- بلغة الإنسان.
- ماذا تقول لك؟
- في هذا الصباح مثلاً أبلغتني أن زائراً غبياً سيزورني وسيزعجني بأسئلة خبيثة. هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف في الاستطلاع؟
- أيها الأب المحترم جداً، المقدس جداً، إن كلماتك تبعث الرعب وتذهب بالصواب!
كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرّك رأسه. على أن شيئاً يسيراً من عدم التصديق قد ظهر في عينيه الخائفتين.
سأله الأب فيرابونت بعد صمت قائلاً:
- هل ترى هذه الشجرة؟
- أراها يا أبي المحترم.
- لا شك أنك تظنها شجرة دردار. أما أنا فأرى فيها شيئاً آخر.
وانتظر الراهب الصغير بضع لحظات يرتقب أن يقول له الأب فيرابونت ماذا يرى فيها، فلما لم يفعل الأب فيرابونت ذلك، قرر أن يسأله، فقال:
- فماذا ترى فيها؟
- يظهر لي هذا في الظلام. هل ترى هذين الغصنين؟ إنه المسيح يمد إليّ ذراعيه حين يخيّم الليل، ويبحث بهما عني. إنني أراه بوضوح، فأرتعش عندئذ خوفاً. ذلك شيء مخيف، مخيف جداً يبث الذعر. أتعلم؟.
- لماذا الخوف ما دام هو المسيح؟

- قد يقبض عليَّ ويرفعني إلى السماء.

- حياً؟

- ألم تسمع إذاً عن مار إيليا ومجده؟ سوف يحيطني المسيح بذراعيه ويأخذني. . .

رغم أن راهب أوبدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث إلى الصومعة التي عُيِّنت له والتي كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة إقامته، فقد كان في قرارة قلبه يشعر بأن الأب فيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيراً مما اجتذبه الشيخ زوسيما. إن هذا الراهب الصغير، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذي يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية، قد اعتقد أن صائماً يملك من القوة ما يملكه الأب فيرابونت يمكن حقاً أن يكون قد أوتي موهبة «رؤية المعجزة». صحيح أن الأقوال التي قالها الأب فيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة. ثم إن جميع البسطاء المأخوذين بالمسيح إنما يقولون كلاماً أو يفعلون أفعالاً أبعث على الدهشة. أما قصة الجنّ الذي حشر ذيله الضخم في شق الباب وسُحق، فإن الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها، لا بالمعنى المجازي بل بالمعنى الحقيقي، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه، وبفرح أيضاً. ثم إنه، عدا ذلك، كانت تراوده، حتى قبل وصوله إلى الدير، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذي لم يكن يعرفه إلا عن طريق السماع على كل حال، وكان يعده مع كثيرين غيره بدعةً ضارة ضرراً صريحاً. وكان قد أتيح له بعد أن تعرف على الحالة في الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار

الخفية من بعض الرهبان ذوي العقول السطحية، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام. وإذ كان بطبيعته امرءاً حشرياً يعرف كيف يتسلل إلى كل مكان، فإن النبأ الباهر الخارق عن آخر «معجزة» حققها الأب زوسيما قد هزَّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها حيرة قصوى. وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح، عدة مرات، في زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو في جوار الصومعة هذا الراهب الصغير الفضولي ينتقل من جماعة إلى جماعة، يصغي إلى كل شيء ويسأل كل واحد. ولكن أليوشا لم يهتم به في حينه، وإنما تذكر ما جرى فيما بعد... وهل كان بوسعه أن يلتفت إلى ذلك الراهب الصغير في ذلك اليوم؟!

فالأب زوسيما الذي خارت قواه من جديد، قد انتقل إلى سريره، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة، فطلب إحضاره، فهرع إليه أليوشا فوراً. ولم يكن إلى جانب الشيخ عندئذ إلا الأب بائيسى، والراهب الكاهن يوسف والراهب المبتدىء بورفيرى. فتح الشيخ عينيه المتعبتين بكثير من العناء، وحدق إلى أليوشا، ثم سأله فجأة:

- هل ينتظرك ذووك يا بني المحبوب؟

فاضطرب أليوشا.

وعاد الشيخ يسأله:

- أليسوا في حاجة إلى حضورك؟ هل وعدت أحداً بالعودة إليه اليوم؟

- وعدت أبي... وأخويَّ... وآخرين أيضاً...

- ذلك ما قدَّرته. فاذهب إليهم حتماً. ولا تحزن. اعلم أنني لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتي على هذه الأرض بحضورك. إليك سأوجه آخر أقوالي يا بني المحبوب، إليك سأعهد بها... إليك أنت يا بني لأنك تحبني. امض الآن إلى من ينتظرونك.

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ، رغم أنه قد شق على نفسه أن ينصرف في هذه اللحظة. ولكن الوعد الذي قطعه له الشيخ، وهو أن يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه سيوجه هذه الكلمات إليه هو، وأنه سيعهد بها إليه على أنها وصيته الروحية، قد ملأ نفس أليوشا حماسة ونشوة. لذلك أسرع يغذّ خطاه حتى يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه في المدينة وأن يعود إلى الدير بأقصى سرعة. وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضاً إلى أليوشا عند انصرافه؛ وما قالة الأب بائيسى عندئذ قد أحدث في نفسه أثراً عميقاً غير متوقع. لقد توجه إليه الأب بائيسى، بعد أن خرجا من صومعة الشيخ، قائلاً:

- تذكر أيها الفتى (بهذا إنما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أي تمهيد)، تذكر أن المعرفة العلمانية التي نمت نمواً كبيراً وأصبحت قوة عظيمة، قد هجمت، في خلال هذا القرن خاصة، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية. فعلماء هذا العالم، بعد أن قاموا بنقدٍ قاس وحاقد لم يحتفظوا بشيء البتة مما كان يُعدُّ مقدساً في القرون الماضية. لقد حللوا كل جزء على حدة، ولكن فاتهم إدراك الدين في مجموعه، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا. ذلك رغم أن الحقيقة هي في «المجموع» فلن يستطيعوا أن ينالوا منها، ولن، لا تقدر أبواب الجحيم أن تؤذيها أو تنتصر عليها. ألم تعش ذلك تسعة عشر قرناً؟ ألا تزال تعيش اليوم في خوالج نفوس الأفراد وجماهير الناس؟ ألا إنها لباقية، هذه الحقيقة، حتى في قلوب أولئك الملحدين الذين أرادوا أن يدمروها، باقية كما في الماضي! ذلك أن هؤلاء الذين جحدوا المسيح وتمردوا عليه ليسوا أنفسهم إلا صورة المسيح نفسها، وما يزالون يمثلون هذه

الصورة لأنه استحال عليهم في الواقع، رغم الرغبة القوية التي اضطرمت في نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها عقلهم، أن يقدموا مثلاً أعلى آخر للإنسان وكرامته، أسمى من المثل الأعلى الذي قدمه إلينا المسيح في الزمان القديم. إن جميع المحاولات التي من هذا النوع لم تؤدِّ إلى غير الحطة والغلظة. فاحفظ هذا جيداً أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك إلى العالم. فلعلك حين تتذكر في المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضاً في هذه الكلمات التي قلتها لك صادرة من أعماق قلبي لتضيء لك طريقك. ذلك لأنك شاب، ولأن مغريات العالم قوية، ولن تكفيك قواك وحدها للتغلب عليها دائماً. والآن امض أيها اليتيم.

وبعد أن قال الأب بائيسى هذا الكلام بارك أليوشا. وقد أدرك أليوشا فجأة، وهو يبتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التي لم يكن يتوقعها، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذي كان إلى ذلك الحين صارماً تلك الصرامة كلها، قاسياً تلك القسوة كلها في معاملته، سيكون له بعد اليوم صديقاً جديداً وموجِّهاً روحياً يحمل له أعمق المودة والعطف - كأن الأب زوسيما هو الذي عهد إليه بهذه المهمة وهو يحتضر. قال أليوشا يحدث نفسه: «من يدري؟ لعلهما قد اتفقا على هذا». ألا تدل هذه الشروح العلمية النقية التي سمعها من فم الأب بائيسى، وهي شروح أدهشته في أول الأمر وأثارت استغرابه، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أي حديث آخر، على أن الأب بائيسى يضمر له عاطفة صادقة حارة؟ لقد أسرع الأب بائيسى يزوّد عقله الفتي بالأسلحة التي تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم، وأراد بغير إبطاء أن يحصّن نفسه الفتية التي عُهد إليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية.

– 2 –

في منزل الأب

ذهب أليوشا أولا إلى منزل أبيه. فتذكر وهو يقترب من المنزل أن أباه قد ألح عليه كثيراً بالأمس أن يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه إيفان. فتساءل فجأة: «لماذا؟ إذا كان أبي يريد أن يبوح لي بشيء من الأشياء سراً، فهل هذا سبب كافٍ لأن أدخل المنزل سراً؟ أحسب أن أبي قد أساء التعبير من شدة اضطرابه أمس فلم يجد الكلمات المناسبة التي يفصح بها عن مراده». هذا ما قاله لنفسه. ومع ذلك شعر بارتياح شديد حين فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدي (كان جريجوری قد مرض فلزم سريره كما قالت مارفا)، فعلم منها، جواباً على سؤال ألقاه عليها، أن إيفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين.

– وأبي؟

– نهض من فراشه، وهو يحتسي الآن قهوته.

هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشيء من الجفاف والخشونة.

دخل أليوشا، فوجد أباه وحيداً إلى المائدة، منتعلاً خفين، مرتدياً معطفاً عتيقاً. كان الأب بسبيل التدقيق في بعض الحسابات تزجيةً للوقت، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلاً بهذا العمل الذي يقوم به. ولم يكن في المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضاً

لشراء بعض الأشياء من أجل إعداد طعام الغداء). كان الأب يتصفح حساباته إذاً، ولكن فكره منصرف إلى غير ذلك. وكان يبدو عليه التعب والضعف، رغم أنه صحا في ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه. وقد عقد على جبينه الذي ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل، منديلاً أحمراً. وكانت على أنفه الذي تورّم كثيراً منذ البارحة، بقع مماثلة إن لم تكن واسعة كثيراً فهي تضفي على وجهه تعبيراً عن غضب حانق خبيث. وكان العجوز يعرف هذا على كل حال، فها هوذا يرشق أليوشا حين دخل، بنظرة فيها عداوة. وصاح يقول له بلهجة قاطعة:

- القهوة باردة، فلن أقدم لك منها شيئاً. وأنا نفسي ألتزم اليوم حميةً قاسية، فلا آكل إلا حساءً بالسمك ولا أدعو إلى مائدتي أحداً. لماذا جئت؟

قال أليوشا:

- أردت أن أسال عن صحتك.

- أعرف. ثم إنني أمرتك أنا نفسي بالأمس أن تزورني. تلك كلها سخافات! لقد أزعجت نفسك في غير طائل. إنني تنبأت بأنك ستسارع إلى المجيء...

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفّرة كريهة، ونهض في الوقت نفسه ليرى حالة أنفه في المرآة وقد بدا في وجهه الهم والقلق (لعله ينظر في أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح)؛ وفي هذه المناسبة عدل المنديل الأحمر الذي يلف جبينه وجهد أن يعقده على آنق طريقة. وقال بلهجة متكلفة:

- لقد اخترت اللون الأحمر، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى. هيه! ماذا وراءك من جديد؟ كيف حال شيخك؟

فأجاب أليوشا قائلاً:

- حاله سيئة جداً، وقد يموت في هذا النهار.

ولكن الأب لم يصغ إلى جواب ابنه، وكان قد نسي السؤال الذي ألقاه عليه.

قال العجوز بدون تمهيد:

- خرج إيفان. إنه يهيىء جميع المكائد لينتزع من ميتكا[3] خطيبته.

ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشِّرة:

- وذلك هو الهدف الوحيد الذي بقي من أجله هنا.

فسأله أليوشا:

- هل باح لك بهذا بنفسه؟

- طبعاً. قال لي ذلك منذ زمن طويل. ماذا كنت تظن إذاً؟ اعترف لي بهذا منذ ثلاثة أسابيع. ما أحسب أنه جاء إلى هنا ليذبحني خفية هو أيضاً. فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه إلى المكوث في هذه المدينة.

سأله أليوشا مضطرباً اضطراباً شديداً:

- ولكن ما هذا الذي تقوله؟ لماذا تتكلم هكذا؟

- صحيح أنه لم يطلب مني مالاً، ولن أعطيه شيئاً على كل حال. إنني أريد، يا ألكسي فيدوروفتش المحترم جداً، أن أعيش في هذا العالم أطول عمرٍ ممكن... ضع هذا في ذهنك!.. لذلك سأكون في حاجة كبيرة إلى كل كوبيك مما أملك.

ثم أضاف وهو يذرع الغرفة، واضعاً يديه في جيبي معطفه الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفي خفيف أصفر اللون.

وكلما طعنت في السن وتقدمت بي الشيخوخة ازدادت حاجتي

إلى المال. أنا الآن ما أزال رجلاً، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتنازل عن رجولتي. وإذ إنني سأشيخ طبعاً، فسأصبح منفِّراً، فلا يأتين إليّ من تلقاء أنفسهن راضيات، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها. لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها يا بني العزيز ألكسي فيدوروفتش... ضع هذا في بالك... ذلك أنني أعزم عزماً قاطعاً - اعلم هذا أيضاً - على أن أسترسل في خلاعتي إلى آخر أيام عمري. إن الخلاعة تلطّف الحياة: جميع الناس يعيبون الخلاعة، ولكنهم جميعاً يتعاطونها. كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين أنني أتعاطاها علانية. إن صراحتي وسذاجتي هما اللتان تعرّضاني لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق. أما جنتك يا ألكسي فيدوروفتش فإنني لا أريدها لنفسي... اعلم هذا... وسيكون من غير الحشمة أن يذهب الإنسان اللائق إلى جنّتك، إذا وجدت هناك جنة. وفي رأيي أنا أن المرء ينام ثم لا يستيقظ، ولا شيء بعد ذلك. صلُّوا من أجلي بعد موتي إذا شئتم، وإن لم تشاؤوا فلا تصلوا... شيطان يأخذكم... تلك هي فلسفتي كلها. لقد تكلم إيفان بالأمس فأحسن الكلام، رغم أننا كنا جميعاً سكارى. إن إيفان إنسان متبجح. ليس هو بالعالم قط. بل إنه ليس على شيء من ثقافة حقيقية. إنه لا يزيد على أن يسكت، وأن يسخر من جميع الناس صامتاً. ذلك كل ما يعرف أن يفعله به إيفان هذا.

كان أليوشا يصغي إلى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة.

وتابع الأب كلامه قائلاً:

- لماذا لا يكلمني أبداً؟ إنه إذا كلمني كان يمثل تمثيلاً! إنه وغد حقير، أخوك إيفان هذا! أما جروشكا[4] فسأتزوجها متى حلا لي أن

أتزوجها. ما دمت أملك المال فيكفي أن أريد حتى أبلغ كل شيء يا ألكسي فيدوروفتش! وذلك بعينه هو ما يخشاه إيفان! إنه يراقبني حتى لا أتزوج، ويحض ميتيا على أن يتزوج جروشكا: هو يأمل أن يبعدني عن هذه المرأة بهذه الوسيلة (كأننى سأورثه مالاً حتى ولو لم أتزوج جروشكا) ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته الثرية إذا تسنى لميتيا أن يتزوج جروشكا. ذلك هو الحساب الذي يجريه. إنه وغد، صاحبك إيفان هذا!

قال أليوشا:

- ما أشد اهتياجك اليوم! إن مرد هذا إلى ما حدث لك بالأمس. فالأفضل أن ترقد في السرير.

أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه في هذه اللحظة وحدها:

- قد تكون على حق في ما تقول، إنك الآن تنصحني أن لا أغضب. ولكن لو سمح إيفان لنفسه بأن يقول لي ما قلته أنت، إذن لثارت ثائرتي. معك وحدك إنما أتيح لي أن أقضي لحظات لطيفة، وأن أكون طيباً، لأنني شرير في العادة.

قال أليوشا مبتسماً:

- ما أنت بشرير، إنك مخرِّب.

- اسمع يا أليوشا. لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا، ولا أدري حتى الآن هل أعزم أمري على ذلك أخيراً. أنا لا أجهل أن «الموضة» الرائجة الآن هي أن يُعدَّ احترام الأبناء آباءهم وهماً باطلاً وعادة سخيفة. ولكن القانون لا يجيز، حتى في عصرنا هذا، أن يجرَّ ابن أباه العجوز من شعره، وأن يركل وجهه بكعب حذائه في عقر داره، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز

عليه فيما بعد. فلو شئت لرميته في السجن منذ هذا اليوم بسبب ما جرى بالأمس.

- وقد عدلت عن شكواه، أليس كذلك؟

- ثناني إيفان عن عزمي. على أنني لا أحفل برأي إيفان، وإنما خطر ببالي شيء آخر...

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يكاد يهمس همساً:

- لو اعتقل هذا الوغد، لعلمتْ هي بأنني أودعته السجن، فهرولت تسعى إليه فوراً. أما إذا رُوي لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن يقتلني أنا الشيخ العجوز، فقد لا تهجره ولكنها ستعودني... ذلك هو طبعها الذي فطرت عليه: تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها، بدافع حب المناقضة وحده! إنني أعرفها حق المعرفة! بالمناسبة، هل لك بقليل من الكونياك؟ اشرب هذه القهوة الباردة، سأضيف إليها ربع قدحٍ من الكونياك فيطيب مذاقها.

- لا... شكراً... لا أريد... سآخذ هذا الرغيف من الخبز إذا سمحت بذلك.

قال أليوشا هذا وتناول رغيفاً صغيراً من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبيكات، ودسّه في جيب ثوبه. ثم أضاف يقول في خشية وهو يتفرس في وجه أبيه:

- أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً إذا عدت عنه أنت أيضاً.

قال الأب:

- أنت على حق. إن الكونياك يثيرني بدلاً من ان يهدئني. لذلك لن أشرب إلا كأسا واحدة... كأسا واحدة... الكونياك هناك، في الخزانة الصغيرة...

وأدار مفتاح «الخزانة الصغيرة»، فملأ كأساً، وأفرغها في جوفه، ثم أقفل الخزانة من جديد، وردَّ المفتاح إلى جيبه.

- يكفيني هذا. كأس واحدة لن تقتلني.

قال أليوشا وهو يبتسم:

- ها قد عدت طيباً.

- طيب؟ هِمْ... اعلم أنني أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك... أما الأوغاد فإنني أعاملهم كوغد أيضاً! لم يذهب فانكا[5] إلى تشرماشنيا! لماذا؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس عليَّ: إنه يحب أن يعرف هل سأعطي جروشنكا مالاً كثيراً إذا هي جاءت. إنهم جميعاً أوغاد! أما إيفان فإنني لا أعترف به ابناً لي. من أين جاء، هذا الوَبَش؟ إن له نفساً غير نفوسنا! أيظن أنني سأورثه شيئاً من مال؟ إلا أنني لن أكتب حتى وصية... اعلموا هذا!.. وأما ميتكا فلأسحقنه كما تُسحق خنفساء قذرة. إنه يتفق لي أن أسحق خنفساواتٍ في الليل، فتطقُّ طقيقاً جافاً حين تفطس، فبهذه الطريقة سأسحقه، صاحبك ميتكا هذا... وإذا قلت صاحبك، فلأنك تحبه ولكن تعلقك به لا يقلقني... على حين أنه لو أخذ إيفان يحبه لخشيت عندئذ على نفسي. غير أن إيفان لا يحب أحداً. إنه ليس منا. إن أناساً مثل إيفان ليسوا بشراً مثلنا، هم تراب أثارته الريح... تذهب الريح ويعود يتساقط التراب... لقد خطرت ببالي فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجيء اليوم. أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا: هل إذا أنا نقدته الآن ألف روبل أو حتى ألفين، هل يوافق هذا الشقي، هذا الشحاذ، هل يوافق عندئذ على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين، بل خمساً وثلاثين سنة، بدون جروشنكا طبعاً، متنازلاً عنها إلى الأبد؟

تمتم أليوشا يقول:

- سوف.. سوف.. أسأله.. وإذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة آلاف، فمن الجائز أنه...

- خطأ! لا تكلمه في هذا الأمر الآن! لا تقل له كلمة واحدة، هل تسمع؟ لقد غيَّرت رأيي منذ الأمس. هي فكرة غبية خطرت ببالي. لن أعطه شيئاً، لن أعطيه كوبيكاً واحداً، لأنني في حاجة إلى هذا المال أنا نفسي (كذلك صرخ الأب العجوز وهو يحرك ذراعيه). لسوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء، بدون هذا. لا تقصص عليه شيئاً، وإلا فقد تراوده الآمال. ثم إنه ليس ثمة ما تفعله عندي. فاذهب الآن. ولكن قل لي: هل تريد خطيبتهُ، هل تريد كاترينا إيفانوفنا تلك التي حرص أشد الحرص على أن يخفيها عني، هل تريد أن تتزوجه أم لا؟ لقد ذهبت أنت إليها بالأمس فيما أظن، أليس كذلك؟

- إنها لا تريد أن تتركه، مهما يحدث.

- هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته! إنهن يحببن شباباً عابثين لاهين أوباشاً! ثق أن هاته الآنسات الشاحبات لا يساوين شيئاً. ما أكبر الفرق بينهن وبين... الخلاصة! آه، لو كان لي عمره ووجهي أيام شبابي (لقد كنت أجمل منه في الثامنة والعشرين من عمري).. إذاً لكانت لي غزوات وانتصارات مثله.. ألا إنه لشقي! أما جروشنكا فلن ينالها، لن يحظى بها.. لأمرغنّه في الوحل!..

استعر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات. ثم قال بلهجة قاطعة:

- اذهب الآن. لا عمل لك اليوم هنا.

اقترب أليوشا من أبيه ليودعه، وقبله في كتفه. فسأله الأب دهشاً:
- ماذا بك؟ سوف نلتقي بعد الآن. أم تُراك تقدر أننا لن نلتقي قط؟
- لم يخطر ببالي هذا. لقد قبلتك بغير نية، وعلى غير قصد.
- ولا خطر ببالي أنا أيضاً... إنما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً وغفلة.
كذلك قال العجوز وهو ينظر إلى أليوشا. وفيما كان أليوشا يبتعد صرخ الأب يناديه:
- اسمع! اتسمعني؟ تعال إليّ في أقرب فرصة. سأذيقك ما أعده من حساء السمك، هو حساء خاص، لا كحساء اليوم! تعال حتماً، هل فهمت؟ تعال غداً، هل سمعت؟ في الغد!
وحين أُغلق الباب وراء أليوشا، اقترب العجوز من الخزانة الصغيرة مرة أخرى فأفرغ في جوفه نصف كأسٍ أخرى دفعة واحدة. ثم دمدم وهو يتنحنح:
- لن أشرب بعدا!
ثم أقفل الخزانة، وردَّ المفتاح إلى جيبه، ومضى بعد ذلك إلى غرفة نومه، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق. وسرعان ما نام.

– 3 –

لقاء مع تلامذة

حدَّث أليوشا نفسه قائلاً حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة خوخلاكوفا: «الحمد لله على أنه لم يُلق عليَّ أسئلةً عن جروشنكا، فلو فعل لاضطررت أن أحدثه عن مقابلة الأمس». وقد قدَّر أليوشا، وهو يشعر بكثير من الشجن، أن الأهواء قد ازدادت استعاراً أثناء الليل، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة، وأن الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتى نفساً. قال يحدث نفسه: «الأب حانق سيئ المزاج وقد نبتت في رأسه فكرة لن يتخلى عنها... ودمتري؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخاً وإصراراً منذ أمس، وأنه حانق سيئ المزاج أيضاً، ولا شك أنه أخذ يبيت أمراً... أوه! يجب عليَّ حتماً أن أجده اليوم مهما كلف الأمر...»

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلا. فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة قد لا يكون لها في الظاهر شيء من خطورة الشأن، ولكنها أحدثت في نفسه أثراً قوياً جداً. كان قد اجتاز الميدان وانعطف إلى زقاق يؤدي إلى شارع «ميخائيلوفسكايا» الذي يوازي «الشارع الكبير»، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (إن مدينتنا تقطعها في جميع الاتجاهات قنوات صغيرة)، وأثناء سيره في هذا الزقاق إذا به

يلمح تحت، قرب الجسر الصغير، عصبةً من التلاميذ هم جميعاً أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثانية عشرة في أكثر تقدير. إنهم عائدون من المدرسة، يحملون على ظهورهم تلك الأكياس القاسية، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف. بعضهم يرتدي دراعة، وبعضهم يرتدي معطفاً قصيراً، وبعضهم ينتعل جزمة عالية على ساقها أخاديد، من تلك الجزمات التي يحب انتعالها الأطفال الذين يدلّلهم آباؤهم الأغنياء. وكان الأطفال يتناقشون بحرارة، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء. إن أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوماً بمنظر الأطفال، فكذلك كان شأنه أيضاً في موسكو؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة، فإن التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضاً. لذلك أحب فجأةً، رغم الهموم التي كانت ترهق نفسه، أن ينضم إلى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث. فلما اقترب منهم متفرساً في وجوههم الموردة المنتعشة لاحظ أن كلاً منهم يحمل بيده حصاةً، حتى إن بعضهم يحمل حصاتين اثنتين. ورأى في الجهة الأخرى من القناة، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريباً، طفلاً آخر واقفاً قرب سياج من أوتاد. إن هذا الطفل تلميذ هو أيضاً، يحمل كيسه على الجنب، وأغلب الظن أنه في العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك، كما يدل على هذا طول قامته. كان الصبي يراقب عصبة التلاميذ الستة، وهم رفاقه الذين خرج معهم من المدرسة لتوه، ولكنه كما يبدو، كان يعدهم أعداءه. إنه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة، ولكن عينيه السوداوين تسطعان. تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى، فلما لمح صبياً أشقر مجعد الشعر متورد الوجه

يرتدي دراعته السوداء، نظر إليه بانتباه وقال له:

- أيامَ كنت أحمل أنا كيساً مثل كيسك، كانت العادة أن نضعه في الجنب الأيسر، حتى تناله اليد اليمنى بسهولة أكبر. أما أنت فالكيس يتدلى عندك على الجهة اليمنى، فلا تستطيع إمساكه على وجه مريح.

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية[6]، دون أن يعمد إلى أي حيلة. ومن المؤكد على كل حال إنه خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الأطفال، ولكسب ثقة عصبة من الأطفال خاصة، هي أن تدخل في الحديث معهم على الوجه الذي عمد إليه أليوشا، أي أن تخاطبهم جاداً في أمور محسوسة ملموسة جاعلاً نفسك واقفاً على قدم المساواة معهم. وكان أليوشا يدرك ذلك بغريزته.

- ولكنه أعسر!

كذلك أسرع يجيب أحد الصيبة جريء الهيئة ظاهر الصحة يبدو في نحو الحادية عشرة من عمره. وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدِّقون إلى أليوشا.

وقال تلميذ ثالث:

- وهو يستعمل يده اليسرى أيضاً في قذف الحجارة.

وفي تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبة الأطفال، فلامس الأعسر الصغير لكنه أخطأه رغم أنه قُذف بمهارة وقوة. إن ذلك الصبي المرابط في الجهة الأخرى من القناة هو الذي رمى الحجر.

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة:

- هيَّا يا سموروف.. سدِّد إليه.. ارمه بحجر!..

ولكن سموروف (الصبي الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا

التشجيع، وإنما بادر إلى الردّ فوراً، فرمى الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة بحجر، ولكنه لم يصبه، وإنما سقطت الحصاة على الأرض. وسرعان ما ردَّ الصبي على ذلك، فرمى الجماعة بحجر ثان، ولكنه رمى هذه المرة مستهدفاً أليوشا، فأصابه في كتفه، فأوجعه وجعاً شديداً. وكانت جيوب الصبي ملأى بالحصى، فذلك ما يراه الرائي حتى على بعد ثلاثين خطوة، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف.

صاح الصبية يقولون وهم يقهقهون:

- إنه كان يسدد إليك أنت، إليك أنت! لقد استهدفك خصيصاً. ألست من آل كارامازوف؟ ألست من آل كارامازوف؟ هيَّا بنا يا أولاد، فلنحكم التسديد إليه جميعاً، جميعاً في هذه المرة!

وطارت حجارة ست في آن واحد معاً. فأصابت إحداها الصبي في رأسه، فسقط، ولكنه لم يلبث أن نهض وأخذ يقصف حانقاً مسعوراً عصبة الصبية، فكانت الحجارة تطير بلا توقف في الاتجاهين. وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هي أيضاً بقذائف.

صاح أليوشا يقول لهم:

- ما هذا الذي تفعلونه؟ ألا تستحون ايها السادة؟ أستة على واحد؟ سوف تقتلونه!

ووثب أليوشا إلى أمام، ووقف في مسار القذائف ليحمي بجسمه الصبيَّ الواقف في الجهة الأخرى من القناة. فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات.

وصرخ صبي يرتدي قميصاً أحمر يقول بصوت حانق:

- هو الذي بدأ! إنه وغد.. لقد جرح كراسوتكين في المدرسة

بطعنة موس. وتدفق دم كراسوتكين غزيراً. ولم يشأ كراسوتكين أن يشكوه. ولكنه يستحق عقاباً...

- ماذا كان السبب؟ لا شك أنكم شاكستموه في البداية، أليس كذلك؟

صاح الأطفال يقولون:

- ها هوذا قد ضربك مرة أخرى في الظهر. لقد عرفك. إنه يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن. هيَّا بنا! عليه يا أولاد! لا تخطئه يا سموروف!

وعاد القصف يتتالى من الجهتين، أشدَّ هولاً في هذه المرة. فأصيب صدر الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة، فأطلق صرخة ألم، وأخذ يبكي، ثم هرب راكضاً نحو قمة الرابية في اتجاه شارع ميخائيلوفسكايا، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة: «آه.. خاف.. هرب.. جبان.. خرقة مبللة؟»

وعاد الصبي الذي يرتدي دراعة، عاد يقول لأليوشا وقد اشتعلت عيناه بحمى:

- أنت لا تعرف حتى الآن أي سافلٍ هو هذا الصبي يا كارامازوف. إن قتله قليل عليه.

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصابة سناً.

- ماذا تأخذون عليه؟ أهو واشٍ مثلاً؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية.

وتابع الصبي نفسه كلامه فقال:

- أأنت ذاهب في اتجاهه، نحو شارع ميخائيلوفسكايا؟ أدركه إذاً... انظر! لقد توقف... يبدو عليه أنه ينتظر... وهو يتفرس فيك.

وردَّد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة:

- هو يتفرس فيك، يتفرس فيك.

- أدركه إذن... واسأله هل يحب ليفة الحمام! اسأله هذا السؤال، هذا السؤال بالذات.

ما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين. فنظر إليهم أليوشا ونظروا إليه صامتين.

وصرخ سموروف يقول له محذراً:

- إياك أن تذهب إليه، فلسوف يضربك...

قال أليوشا:

- لن أكلمه، أيها السادة، عن ليفة الحمام، لأنني أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه بهذه الكلمة.. ولكني سأعرف منه لماذا تكرهونه هذا الكره...

فأجابه الصبية ضاحكين:

- اسأله إذاً، اسأله!

عبر أليوشا الجسر الصغير، واتجه إلى قمة الرابية، ماراً قرب سياج الأوتاد، بحيث يصل إلى الصبي المغضوب عليه.

قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يبتعد عنهم:

- انتبه! إنه لا يخاف منك، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك خفية، كما فعل بكراسوتكين.

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه. فلما اقترب أليوشا كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره على أكثر تقدير، ضعيفاً هزيلاً له وجه مستطيل تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان ترشقانه بنظرات شريرة. إنه يرتدي معطفاً عتيقاً جداً أصبح صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً؛ وذراعاه العاريتان تخرجان من

الكمين المسرفين في القصر. وعلى السروال تُرى رقعة عند الركبة اليمنى. كان ثقب فاغر في حذاء القدم اليمنى، في مكان الإبهام، مطلياً بالحبر من قبيل الإخفاء. وجيبا المعطف منتفخان بما فيهما من حجارة.

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه، وألقى عليه نظرة سائلة، فأدرك الصبي من نظرته فوراً أنه لا ينوي أن يضربه. فبدا عليه شيء من التأنس، حتى لقد بدأ هو الكلام:

- أنا واحد وهم ستة... ولكنني سأغلبهم دون أي مساعدة.

قال ذلك واشتعلت عيناه فجأة.

قال أليوشا:

- لا شك أن إحدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيراً. فهتف الصبي يقول:

- ولكنني أصبت سموروف في رأسه!

سأله أليوشا:

- هم يزعمون أنك تعرفني، وأنك رميتني بالحجر عامداً. فلماذا؟

لم يجب الطفل وإنما ألقى على أليوشا نظرة قاتمة.

قال أليوشا ملحاً:

- أما أنا فلا أعرفك، فهل تعرفني أنت؟

فصرخ الصبي فجأة يقول بعصبية وبريق غاضب في عينيه ولكن دون أن يتحرك فكأنه ينتظر شيئاً ما:

- دعني وشأني!

قال أليوشا:

- طيب. سأنصرف. ولكن لاحظ أنني لا أعرفك ولم أشاكسك

أبداً. وقد ذكروا لي كيف يشاكسونك، ولكني لا أنوي أن أفعل ذلك. استودعك الله!

ومضى أليوشا.

- راهب منافق! إنك ترتدي تحت مسوحك سروالاً!

بهذا الكلام قذف الصبي أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة متحدية، ووقف وقفة متحدية أيضاً، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن. ولكن أليوشا لم يزد أن التفت إلى وراء، فنظر إلى الصبي صامتاً، ثم ابتعد... ومع ذلك فإنه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر بألم شديد في ظهره. لقد أصابه الصبي بأثقل حصاة كان يحملها في جيوبه؛ فالتفت أليوشا من جديد، فقال للصبي:

- آ... تهاجم من خلف؟ لقد صدق الصبية إذاً حين ذكروا أنك تهاجم خلسة!

غير أن الصبي وقد استبد به غيظ شديد فررماه في هذه المرة بحجرة على وجهه، فلولا أن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه، إذن لأصيب وجهه، وهكذا أصاب الحجر كوعه.

هتف أليوشا يقول له:

- ألا تستحي؟ ماذا فعلت لك؟

صمت الصبي جامداً في مكانه وقد لاح في وجهه التحدي والانتظار بأن أليوشا سيهجم عليه في هذه المرة، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله، حتى بعد هذه الضربة، أن يهاجمه، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس، فوثب هو نفسه على أليوشا. وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقي قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه، وعض اصبعه الأوسط عضةً قاسية رهيبة، غارساً أسنانه في لحم

الأصبع بكل ما أوتي من قوة مدة عشر ثوان.

صرخ أليوشا من شدة الألم، وحاول أن يسحب أصبعه من بين أسنان الصبي. فلما أرخى الصبي أسنانه أخيراً، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هي المسافة السابقة نفسها. كانت العضة قوية، قريبة من الظفر، قد وصلت إلى العظم. انبجس الدم من أصبع أليوشا، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً، فقضى في هذا التضميد دقيقة كاملة. وفي أثناء ذلك ظل الصبي واقفاً في مكانه ينتظر. وعندئذ رفع أليوشا رأسه، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له:

- هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في إصبعي؟ أحسب أن هذا كاف، ألا ترى هذا الرأي؟ فقل لي الآن: بماذا أسأت إليك؟

فنظر إليه الصبي مشدوهاً. وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها:

- أنا لا أعرفك. وهذه أول مرة أراك فيها.. ومع ذلك لا أستطيع أن أتصور أنني لم أسئ إليك أية إساءة، فلولا أنني أسأت إليك لما عذبتني هذا التعذيب بغير سبب حتماً. فما هو الذنب الذي اقترفته في حقك، وما هو الشر الذي أنزلته فيك، قل لي!..

ولكن الصبي، بدلاً من أن يجيب، أخذ يبكي بكاءً قوياً جداً على حين فجأة، ثم ولّى هارباً... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة، متجهاً نحو شارع ميخائيلوفسكايا، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهارب لا يخفف من سرعته ولا يلتفت إلى وراء ولعله ما يزال يبكي. وعزم أليوشا عزماً قاطعاً على أن يسعى إلى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية، ليجلو هذا السرّ الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً. أما الآن فإن وقته لا يتسع لهذا.

- 4 -

في منزل أسرة خوخلاكوف

لم يلبث أليوشا أن وصل إلى منزل السيدة خوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر، مؤلف من طابقين، تملكه السيدة خوخلاكوفا.

إنه من أجمل مباني مدينتنا. ورغم أن السيدة خوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها ضيعة، وعاشت كذلك في موسكو حيث تملك بيتاً خاصاً، فقد احتفظت بالمنزل الذي تملكه في مدينتنا والذي ورثته عن آبائها وأجدادها. يجب أن نذكر مع ذلك أن ضيعتها في مدينتنا هي أوسع الضيعات الثلاث التي تملكها. ورغم هذا لم تكن السيدة خوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا إلا نادراً حتى الآن. هرعت السيدة خوخلاكوفا تستقبل أليوشا في غرفة المدخل، وسألته بسرعة عصبية:

- هل تلقيت، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة؟

- تلقيتها.

- هل نقلت النبأ، هل أطلعت الناس على الرسالة؟ لقد ردَّ الشيخ إلى هذه المرأة ابنها!

قال أليوشا:

- سيموت الشيخ في هذا اليوم.

- أعلم، أعلم، لقد قيل لي هذا. آه... ما أشد رغبتي في

التحدث إليك! ما أشد رغبتي في التحدث عن جميع هذه الأشياء إليك، أو إلى شخص آخر.. بل إليك إليك أنت! خسارة إنني لا أستطيع أن أزوره! إن المدينة كلها مضطربة، جميع الناس ينتظرون... ولكن هل تعلم أن كاترينا إيفانوفنا هي الآن عندنا؟

هتف أليوشا قائلا:

- صحيح؟ هذا حظ موفق! سأراها إذاً عندكم. لقد أصرَّت أمس أن أزورها اليوم.

- أعرف هذا. أنا على علم بكل شيء. لقد رُوي لي ما حدث في منزلها بالأمس تفصيلاً... عرفت كل فظاعات تلك... المخلوقة[7]C'est tragique !، لو كنت في مكانها... حقاً إنني لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل في هذه الحالة! ولكن ما رأيك أيضاً في أخيك هذا الكريه دمتري فيدوروفتش؟ آه... يا رب!.. أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسي فيدوروفتش: تصور أن أخاك موجود الآن هنا... لا أقصد أخاك ذاك نفسه، أخاك ذاك الرهيب الذي فعل ما فعل بالأمس، بل أخاك الآخر إيفان فيدوروفتش! هو الآن هنا يتحدث معها. إن حديثاً مهيباً يدور بينهما... ليتك تعلم ما يجري بينهما الآن! شيء فظيع، شيء فظيع، أؤكد لك... تمزق حقيقي! قصة لا يصدقها العقل، حكاية لا يتصورها الخيال: كل منهما يضيِّع نفسه الآن، لا يدري أحد لماذا! وهما يدركان ذلك، ويجدان فيه نوعاً من لذة. أوه! لقد انتظرت وصولك... كنت أتحرق إلى أن أراك. يستحيل عليَّ، يستحيل عليَّ إطلاقاً أن أشهد ذلك! سأقص عليك هذا فيما بعد. ولكن يجب عليَّ الآن أن أقول الشيء الأساسي.. آه.. كدت أنسى أن ما عليَّ أن أقوله هو الشيء الأساسي. هل تستطيع أن

تشرح لي لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل؟ إنها ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمت بها نوبة هستيريا!

- Maman، أنت المصابة بنوبة هستيريا الآن، لا أنا.

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق، من خلال شق الباب، في الغرفة المجاورة.

إن شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً إلى أقصى حدود التوتر، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة في الضحك لا سبيل إلى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتي من قوة. ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذا الشق، فأيقن ان ليزا تنظر إليه من خلاله، جالسةً على مقعدها المتحرك، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها.

- أأنا مصابة بنوبة هستيريا. لو أصبت بنوبة هستيريا لما كان في هذا غرابة يا ليزا، لما كان فيه غرابة البتة!.. إن نزواتك المستمرة الدائمة ستجعلني أصاب بهذه النوبة. ليتك تعلم يا ألكسي فيدوروفتش إلى أي حد هي مريضة! لقد لازمتها الحمى طوال الليل، حتى إنها كانت تئن!.. ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه. وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من الأمر شيئاً، وأن علينا أن نصبر، فنرى كيف ستتطور حالتها. إن هرتسنشتوبه هذا يجيء فيصرخ في كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً! وما إن اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صرخة وألمّت بها نوبة، ثم طالبت بأن تنقل إلى غرفتها القديمة هنا...

- ولكنني، يا ماما، لم أكن أعرف أبداً أنه هنا. فأنا لم انتقل إلى هذه الغرفة بسببه هو.

- غير صحيح يا ليزا! لقد أسرعت يوليا تبلغك أن ألكسي

فيدوروفتش قادم، وكنتِ قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله.

- ماما، يا حبيبتي! ليس هذا الذي تدعينه بالدعابة الفكهة. فإذا أردت أن تصلحي الخطأ وأن تقولي شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغي ألكسي فيدوروفتش المحترم، الذي وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجيء إلينا اليوم بعد الذي حدث بالأمس، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه.

- ليزا، إنك تسرفين! ثقي أنني سأتخذ في حقك إجراءات قاسية آخر الأمر. من ذا الذي يسخر منه أو يضحك عليه؟ إنني من جهتي سعيدة جداً برؤيته. أنا في حاجة إليه، أنا لا غنى لي عنه. آه يا ألكسي فيدوروفتش! ليتك تعرف مدى شقائي وتعاستي!

- ماذا بك يا ماما، يا ملاكي؟

- هي نزواتك يا ليزا، وتقلب مزاجك، ووطأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التي عانيت فيها الحمى، ثم هذا الطبيب الفظيع الأبدي هرتسنشوبه، هذا الطبيب الأبدي خاصةً، هذا الطبيب الأبدي الأبدي، الأبدي! ثم كل شيء، نعم، كل شيء، كل شيء إطلاقاً... وحتى هذه المعجزة!.. لا تستطيع أن تتصور يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش مدى الاضطراب الذي أحدثته هذه المعجزة في نفسي! ثم هذه التراجيديا التي تجري الآن في الصالون والتي يستحيل عليَّ احتمالها، يستحيل، يستحيل كل الاستحالة... أؤكد لك ذلك منذ الآن. ولعلها كوميديا لا تراجيديا! قل لي: هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد، حتى الغد على الأقل؟ آه... يا رب!.. أصبحت لا أدري ماذا يقع لي. في كل لحظة أغمض عيني، فأرى أن كل شيء تافه، كل شيء تافه.

قاطعها أليوشا سائلاً:

- هل أستطيع أن أرجوك أن تعطيني خرقةً نظيفة أعصب بها أصبعي؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمني الآن إيلاماً شديداً.

نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة، فكان المنديل أحمر من الدم، فأطلقت السيدة خوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت حاجبيها.

- يا رب! يا لهذا من جرح! فظيع!..

ولكن ما إن لمحت ليزا اصبع أليوشا من شق الباب حتى فتحت الباب بدفعة قوية، وصاحت تقول بصوت آمرٍ صارم:

- ادخل إلى هنا، ادخل فوراً، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة! آه... يا رب! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة؟ كان يمكن أن يفقد دمه يا ماما! كيف جُرحت هكذا؟ هاتوا ماءً قبل كل شيء، هاتوا ماء!.. يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم تغطس أصبعك في الماء البارد تهدئةً للألم. لن يكون عليك إلا أن تبقي أصبعك مدة طويلة في الماء... أسرعي يا ماما، هاتوا ماءً على الفور، وهاتوا طستاً!

ثم صاحت تقول في عصبية:

- هلاّ أسرعتم!

كانت ليزا مروَّعة جداً، فقد أحدث جرح أليوشا في نفسها أثراً رهيباً.

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- ألا يستحسن أن نستدعي الدكتور هرتسنشتوبه؟

- سوف تقتليني يا ماما! إن صاحبك هرتسنشتوبه سيجيء فيقول إنه لم يفهم من الأمر شيئاً! هاتوا ماءً، هاتوا ماءً! هاتي الماء بنفسك يا أماه، ناشدتك الله، أو قولي ليوليا أن تسرع! إن يوليا بطيئة دائماً، ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام في حينه. أسرعي يا ماما، إنك تميتينني...

تدخل أليوشا يقول وقد أقلقه جزعهما:

- ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشيء.

وهرعت يوليا في تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء. فغطس فيه أليوشا إصبعه.

- ماما! ناشدتك الله، هاتي لنا نسالة الكتان، وهاتي لنا أيضاً من ذلك السائل العكر الذي يحرق والذي يستعمل في مداواة الجروح... لقد نسيت اسمه!.. عندنا منه.. نعم، عندنا منه.. أنت تعرفينها يا ماما... تلك القارورة الموجودة في غرفتك، في الخزانة، على اليمين.. ويوجد هنالك شاش أيضاً...

- سأجيء لك به، ولكن لا تصرخي ولا تضطربي يا ليزا. انظري كيف يحتمل ألكسي فيدوروفتش الألم صابراً! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسي فيدوروفتش؟

وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة. وذلك بعينه ما كانت تنتظره ليزا.

قالت لأليوشا متعجلة:

- أجب عن سؤالي أولاً: أين جُرحت هذا الجرح؟ ثم نتكلم بعد ذلك في أمرٍ آخر. هيه؟

وإذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التي ستنقضي إلى حين وصول الأم ثمينة جداً في نظر ليزا، فقد روى لها قصة لقائه الغامض بالتلاميذ، في عجلة مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة. فبعد أن أصغت ليزا إلى روايته، ضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، وصاحت تقول غاضبة، كأن من حقها أن تؤنبه وتقرعه:

- كيف أمكنك أن تتدخل في أمر أولاد صغار وأنت فوق ذلك

ترتدي مسوح راهب؟ ألا إنك طفل صغير، ألا إنك لصبي غرّ أنت أيضاً. . . ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقي، ثم حدثني بعد ذلك في أمره، فلا شك أن هناك سراً. شيء آخر الآن. قل لي أولاً يا ألكسي فيدوروفتش: هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث في أمور تافهة حقاً، شريطة أن تتحدث فيها جاداً؟

- أنا قادر على ذلك كل القدرة. ثم إنني أصبحت لا أشعر بألم شديد في أصبعي.

- لأنك غطستها في الماء. يجب تغيير الماء حالاً، لأنه يدفأ بسرعة. يوليا! أسرعي إلى القبو فائتيني بقطعة من ثلج، وائتيني كذلك بطست آخر فيه ماء بارد. ها هي ذي قد مضت الآن فسأتحدث في أمري: هل لك أن ترد إليّ فورا، أيها العزيز ألكسي فيدوروفتش، الرسالة التي بعثت بها إليك أمس؟ هيّا ردها إليّ بسرعة، لأن أمي قد تصل من لحظة لأخرى، وأنا لا اريد لأمي أن. . .

- ليست الرسالة معي.

- كذب! هي معك! كنت أتوقع هذا الرد. الرسالة معك، في هذا الجيب. ما كان أشد ندمي طوال الليل على هذه المزحة. رد إليّ الرسالة فوراً! أعطنيها!

- تركتها هناك، في الدير.

- لا تحسبني طفلةً صغيرة، صغيرة جداً، بعد مهزلة هذه الرسالة. . . إنها مهزلة خبيثة سيئة!. . أرجوك أن تغفر لي هذا الشذوذ الأحمق. أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها حتماً، إذا هي لم تكن معك الآن. بل يجب أن تأتيني بها في هذا اليوم نفسه، حتماً، حتماً!

– أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل. ذلك أنني عائد إلى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة، لأن الأب زوسيما. . .

– أربعة أيام؟ هذا هراء! قل لي بصراحة: هل سخرت مني كثيراً؟

– لم أسخر البتة.

– لماذا؟

– لأنني صدقت كل ما كتبته تصديقاً قاطعاً.

– أنت تهينني!

– أبداً. إنني بعد أن قرأت رسالتك قل لنفسي فوراً: لتجرينَّ الأمور على هذا النحو. فمتى مات الأب زوسيما، سأضطر إلى مغادرة الدير، وسأستأنف دراستي، وسأتقدم إلى الامتحانات. حتى إذا انقضت المدة القانونية تزوجنا. وسوف أحبك. فرغم أنني لم يتسع وقتي لأن أفكر في الأمر ملياً، قد قدَّرت أنني لن أجد لنفسي زوجة أفضل منك، وقد أمرني الشيخ بأن أتزوج. . .

هتفت ليزا تقول وهي تتفجر ضاحكة، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة شديدة:

– ولكنني دميمة، مقعدة ينقلونني في الكرسي!

– سأجرّ الكرسي المتنقل بنفسي إذا لزم الأمر. ولكنني على يقين من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة.

قالت ليزا بعصبية:

– ألا إنك لمجنون! أنا إنما كنت أمزح، فإذا بك تبني على هذا المزاح مشاريع سخيفة مضحكة! آ. . . هذه ماما قد رجعت. أحسب أنها عادت في الوقت المناسب. ماما، أنت دائما تتأخرين! هذه يوليا قد جاءت بقطعة الثلج!

- أوه! ليزا! لا تصرخي هذا الصراخ! أستحلفك بالله!.. إن هذا الصراخ يطيش عقلي... ليس ذنبي أنك قد دسست الضمادات في غير الموضع الذي ذكرته لي.. لقد بحثت عنها في كل مكان فلم أظفر بها... إني لأتساءل ألم تفعلي هذا عامدة.

- تماماً... عامدة! لم يكن في وسعي أن أتنبأ أنه سيصل بجرح في إصبعه، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الضمادات فعلاً! ماما، ملاكي الصغير، إنك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقاً!

- ظريفة أو غير ظريفة! المهم أنني أخذت أرى أنك لا تشفقين على ألكسي فيدوروفتش من جرحه، كما لا تشفقين على أحد من شيء على كل حال! ليتك تعلم يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش مدى ما أقاسي من ألم وعذاب! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذي يرهقني... بل جملة الأمر... جملة الأمر.. ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله.

قاطعتها ليزا تقول وهي تضحك مرحة:

- كفى كلاماً عن هرتسنشتوبه يا ماما! ناوليني الشاش والسائل. هو غسول بسيط من محلول الرصاص يا ألكسي فيدوروفتش.. تذكرت الآن... ولكنه نافع جداً. اعلمي يا ماما أنه اقتتل في الشارع مع صبيةَ صغار، وأن طفلاً قد عضه في إصبعه! أليس هو نفسه صبياً صغيراً؟ ما رأيك يا ماما؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج؟ ذلك أنه ينوي أن يتزوج يا ماما.. تخيلي هذا... هل تتصورينه متزوجاً؟ شيء يُميت من الضحك!.. أليس هذا فظيعاً؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبي بلا توقف، وهي تلقي على أليوشا نظرة ماكرة.

- ما هذا الذي تقولينه يا ليزا؟ كيف يمكنه أن يتزوج؟ دعيك من هذه السخافات! ثم إن هذا الأمر لا يعنيك... أما ذلك الصبي الذي عضَّه، أفلا يمكن أن يكون مصاباً بداء الكَلَب؟

- ولكن يا ماما، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب؟

- ما هذا السؤال يا ليزا؟ لكأنني قلت إذاً سخافة حمقاء! إن من الجائز أن يكون الصبي قد عضه كلب مصاب بداء الكلب، وأصبح مصاباً بداء الكلب، فإذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه! لقد ضمدت إصبعك تضميداً رائعاً يا ألكسي فيدوروفتش! ما كان لي أنا أن أتقن التضميد هذا الإتقان! أما تزال تشعر بوجع؟

- قليلاً جداً.

وسألته ليزا:

- ألا تخشى الماء؟

قالت الأم:

- لا تسرفي يا ليزا. لقد تعجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب بصدد ذلك الصبي، فأخذت تستنتجين استنتاجات! يا ألكسي فيدوروفتش إن كاترينا إيفانوفنا، وقد علمت الآن أنك هنا، تصرّ على أن تراك حالاً... إنها تتحرق إلى التحدث إليك!

قالت ليزا:

- اذهبي إليها وحدك يا ماما! أما هو فإنه لا يستطيع أن يمضي إليها الآن، لأن أصبعه تؤلمه كثيراً..

فقاطعها أليوشا قائلاً:

- كلا!.. إنني لا أشعر الآن بوجع. في إمكاني أن أذهب إليها...

- ها!.. تذهب؟ أهكذا إذن؟ هكذا؟

- ولِمَ لا؟ متى فرغت من الحديث معها عدت إلى هنا ثانية، فاستطعنا أن نتكلم ما شئت أن نتكلم. إنني أحرص في الواقع حرصاً شديداً على أن أرى كاترينا إيفانوفنا بأقصى سرعة، لأنني أريد أن أرجع إلى الدير في أقرب وقت.

- خذيه يا ماما، وقوديه إليها بسرعة! ويا ألكسي فيدوروفتش، وفِّر على نفسك عناء العودة إليّ بعد مقابلة كاترينا إيفانوفنا. ارجع إلى ديرك رأساً، فهنالك إنما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك في أي مكان آخر! أما أنا فأحب أن أنام، لأنني قضيت في البارحة ليلة بيضاء.

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- أنت تمزحين يا ليزا! ومع ذلك سأكون سعيدة جداً إذا أنت استطعت أن تنامي قليلاً.

وتمتم أليوشا يقول:

- لا أدري ماذا فعلت حتى. . . وعلى كل حال، سأبقى معك ثلاث دقائق أخرى، بل وحتى خمس دقائق إذا كانت تحرصين على ذلك.

- وحتى خمس دقائق؟ ياه!. . خذيه يا ماما. . ماذا تنتظرين؟ إنه مخلوق عجيب، غول حقيقي!

- ليزا! أنت مجنونة! هيَّا بنا يا ألكسي فيدوروفتش! إنها اليوم شديدة النزوات، وأخشى أن نثير أعصابها. . . ما أشقى التعامل مع نساء عصبيات يا ألكسي فيدوروفتش! على كل حال، لعلها شعرت حقاً بحاجة إلى النوم أثناء حديثكما. ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد إليها النعاس بهذه السرعة؟ ذلك توفيق في الواقع!. .

- مرحى يا ماما! هاأنت ذي الآن تقولين كلاماً لطيفاً! أحب أن أقبلك.

- وأنا أيضاً يا ليزا!

كذلك قالت السيدة خوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشا وهما يخرجان من الغرفة:

- أصغ إليّ يا ألكسي فيدوروفتش...

وراحت تكلمه متعجلةً بصوت خافت، فيه غموض وأهمية:

- لا أريد أن أؤثر فيك... لن أزيح الحجاب قبل الأوان، ولكنك سترى بعينك كل ما يجري الآن هناك، وستحكم عليه بعقلك. شيء رهيب. تمثيلية عجيبة!.. إنها تحب أخاك إيفان فيدوروفتش، ثم هي تحاول أن تقنع نفسها، بكل ما أوتيت من قوة، بأنها تحب أخاك دمتري فيدوروفتش. شيء فظيع! سأدخل معك، فإذا لم أُطرد بقيت لأرى خاتمة هذا كله.

- 5 -

التمزُّق في الصالون

كان الحديث في الصالون يشارف على نهايته. إن كاترينا إيفانوفنا تبدو مضطربة اضطراباً شديداً، رغم أن في وجهها تعبيراً عن عزم وحسم. وحين دخل أليوشا والسيدة خوخلاكوفا كان إيفان فيدوروفتش ينهض استعداداً للانصراف. إنه شاحب الوجه. لاحظه أليوشا في قلق. ذلك أن أليوشا راحت تتضح له، في تلك اللحظة، شبهة كانت تعذبه منذ زمن طويل، ولغز مقلق كان يشغل باله. إن أشخاصاً كثيرين كانوا قد أكدوا له مراراً، منذ أكثر من شهر، أن أخاه إيفان يحب كاترينا إيفانوفنا، وأنه خاصةً ينوي أن «ينتزعها» من ميتيا فعلاً. ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام الأخيرة أن يصدق هذا الأمر، لأنه كان يبدو له شاذاً فظيعاً، غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك. إنه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس وخصومة كهذه الخصومة. على أن دمتري فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس إن التنافس بينه وبين الأخ إيفان يسعده ويبهجه، لأنه ييسّر عليه الأمر كثيراً. وكان أليوشا يتساءل: أي أمر؟ ألأنه يتيح له أن يتزوج جروشنكا؟ ولكن هذا، كما يعتقد أليوشا فعل يائس وحل رهيب. ثم إن أليوشا كان إلى أمس مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن كاترينا إيفانوفنا تحب أخاه دمتري حباً قوياً عارماً. ولكن هذا

الاقتناع قد تزعزع في نفسه الليلة البارحة. يضاف إلى ذلك أنه كان يخيّل إليه، دون أن يعرف لماذا، أن كاترينا إيفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع إيفان، وأنها إنما تحب دمتري كما هو، على علاته رغم ما في هذا الحب من أمور مستحيلة سخيفة! غير أن المشهد الذي جرى أمس مع جروشنكا قد أنبت في نفسه على حين فجأة شعوراً معارضاً لهذا الشعور تماماً، لم يتضح له على الفور. إن تعبير «التمزق» الذي استعملته السيدة خوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا ينتفض، لأنه في تلك الليلة نفسها، أثناء «شبه النوم» الذي ينامه المرء عند الفجر، قد كرّر كلمة «حب التمزق» هذه عدة مرات، جواباً على أحلام لم تكد تتبدد. وكانت جميع أحلامه في الليلة البارحة إنما تدور على المشهد الذي وقع أمس في منزل كاترينا إيفانوفنا. فلما قالت له السيدة خوخلاكوفا جازمة إن كاترينا إيفانوفنا إنما تحب في الواقع إيفان، وأنها تكذب على نفسها عمداً، من باب اللعب، من قبيل الميل إلى «التمزق» وتعذّب نفسها بحبها المصطنع لدمتري بسبب اندفاعة شكران غامضة غير مفهومة، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضطرب اضطراباً شديداً، وتساءل: «ألا يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة رغم كل شيء؟» لكن إذا صحّ هذا فما هو وضع إيفان؟ لقد كان أليوشا يقدّر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترينا إيفانوفنا تشعر بحاجة إلى السيطرة والتسلط، وهي لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط إلا على رجل مثل دمتري، لا تستطيع أن تمارس هذا التسلّط على شخصية من طراز إيفان. ذلك أن دمتري وحده قادر على الخضوع لسلطانها في آخر المطاف (لا على الفور طبعاً، بل بمرور الزمن)، وذلك «يحقق له الخير كله» (وهو ما يتمناه له أليوشا). فإيفان لن يقبل الرضوخ في يوم من

الأيام، ولن يجعله الخضوع سعيداً بحال من الأحوال؛ أو هذا على الأقل ما كان أليوشا يقدّر على أساس الفكرة التي قامت في ذهنه عن إيفان.

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت في فكر أليوشا لحظة دخل الصالون. ثم هاجمته فكرة أخرى، فإذا هو يتساءل: «فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك؟» ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل من خواطره هذه، وأنه قد لام نفسه عليها مراراً أثناء هذا الشهر الأخير حينما حدث أن خطرت بباله: «ما معرفتي أنا بالنساء وبالحب، وكيف أجيز لنفسي أن أطلق أحكاماً من هذا القبيل؟» كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل في تأملات أو تخمينات في هذا المجال. ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر في هذه المسائل. كان يدرك بغريزته، مثلاً، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلاً على مصيريهما، وأنه يحمل في طياته عواقب ضخمة. «فلتأكل السراطين بعضها بعضاً!» - كذلك قال إيفان بالأمس وهو يتحدث حانقاً عن أبيه وعن أخيه دمتري. معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطاناً، ولعله يعده كذلك منذ زمن طويل. أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعدّه سرطاناً في اللحظة التي عرف فيها كاترينا إيفانوفنا؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من إيفان أمس على غير إرادة منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة. فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوئام بينهما؟ أليس في هذا مزيد من أسباب العداء وعوامل الكره في داخل الأسرة؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما في هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والرثاء له؟ وما الذي ينبغي أن يتمناه لكل منهما؟ إنه يحبهما كليهما. ولكن ما الذي يمكن أن يتمناه لكل منهما وسط هذه

التناقضات الرهيبة؟ أنه يحبهما كليهما. ولكن، وسط كل هذه التناقضات، أين توجد السعادة التي يتمناها لهما؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الظرف المعقد المتشابك المشوّش. وهو إنسان ذو قلب لا يطيق الحيرة، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعّال. إنه لا يعرف الحب الذي يقف ساكناً بغير حركة. فمتى أحب أصبح يحترق شوقاً إلى أن يبادر إلى المساعدة، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه، حتى إذا تأكد من صحة غايته كان لا بد له، طبعاً، أن يساعد كلاً منهما. ولكن كان كل شيء في حياتهما وتصرّفهما اضطراباً واختلاطاً وإبهاماً، فأين يمكنه الاهتداء إلى غاية وهدف محوّر في ذلك كله؟ لقد ذُكر أمامه تعبير «الميل إلى التمزق» أو «حب التمزق». فكيف يؤول هذا التعبير؟ يبدو أن الكلمة الأولى في هذا الاختلاط كانت تفوق فكره.

ما إن دخل أليوشا فرأته كاترينا إيفانوفنا، حتى أسرعت تقول لإيفان فيدوروفتش الذي وقف استعداداً للخروج، فرحة فرحاً واضحاً:

- لحظة أخرى! لا تنصرف فوراً. أحب أن أعرف رأي هذا الشاب الذي أمحضه ثقة مطلقة.

ثم أضافت تخاطب السيدة خوخلاكوفا:

- ابقي أنت أيضاً يا كاترينا أوسيبوفنا.

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة خوخلاكوفا مجلسها أمامهما إلى جانب إيفان فيدوروفتش.

وبدأت تقول بحرارة، والدموع التي يدرك المرء أنها تهمُّ أن تسيل من عينيها، تهدّج صوتها بانفعال صادق أليم:

- أنتم جميعاً أصدقائي، أنتم أصدقائي الوحيدون في هذا العالم.. يا أصدقائي الأخيار، الأعزاء...

أحسّ أليوشا في تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد.

وتابعت كلامها تقول:

- لقد شهدتَ بالأمس ذلك المشهد يا ألكسي فيدوروفتش... شهدت ذلك المشهد الفظيع، ورأيت كيف تصرفت أنا... أنت لم تَرَني في تلك اللحظة يا إيفان فيدوروفتش، أما هو فقد رآني. لا أدري ما الذي رآه فيّ من رأي في تلك الظروف. ولكنني في مقابل ذلك أعلم علم اليقين أنني لو وُجدت اليوم في موقف مماثل لكان ردّي هو الرد الذي بدر مني أمس، مع تلك العواطف نفسها، وتلك الأقوال نفسها، وتلك الحركات نفسها. إنك تتذكر يا ألكسي فيدوروفتش الحركات التي بدرت مني أمس، وقد اعتقدتَ أن من واجبك أن تثنيني... (احمرّ وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات). فاعلم يا ألكسي فيدوروفتش، وأنا أعلن لك هذا جازمة، أنني عاجزة عن الاستسلام لأي شيء. واعلمْ أيضاً يا ألكسي فيدوروفتش أنني أصبحت لا أدري أأنا أحبه هو الآن أم لا. إنني الآن أشعر نحوه بشفقة، والشفقة علامة حب تافهة مسكينة حقيرة وإذا ظللت أحبه، إذا ظللت أحبه رغم كل شيء، فلن أشفق عليه، وانما سأكرهه من غير شك...

أخذ صوتها يرتجف، والتمعت دموع صغيرة في أطراف أهدابها. واضطرب أليوشا. قال لنفسه: «هذه الفتاة إنسان مخلص صادق، و... قد أصبحت لا تحب دمتري!»

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- هذا صحيح، صحيح كل الصحة!

- انتظري يا كاترينا أوسيبوفنا! أنا لم أقل بعد الشيء الأساسي، لم أذكر القرار الذي اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه. إنني أوجس أن قراري هذا سيعود عليّ بعواقب رهيبة، ولكنني أعلم أنني لن أنكص على عقبيّ، لن أتقهقر إلى الوراء، مهما يحدث، بأي حال من الأحوال. لقد حسمت الأمر على مدى حياتي كلها. وإن صديقي المخلص الوفي، إن ناصحي النبيل الطيب الذي يعرف قلبي معرفة عميقة، إن إيفان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذي أنعم بصداقته في هذا العالم، يؤيد رأيي تأييداً تاماً، ويطري قراري إطراءً كاملاً، ويشجّعني على المضيّ في ما عقدت عليه... وهو يعرف قراري.

قال إيفان فيدوروفتش بصوت خافت لكنه حازم:

- أنا أؤيد هذا القرار... هذا صحيح.

- أحب مع ذلك أن يقول لي أليوشا (أوه... اغفر لي يا ألكسي فيدوروفتش أنني سميتك أليوشا ببساطة)، أحب أن يقول لي ألكسي فيدوروفتش هو أيضاً، بحضور صديقيّ، أأنا على حق أم لا؟

وتابعت تقول بحماسة وهي تمسك بيدها الحارة يدَ أليوشا الباردة:

- أنا على يقين غريزي، يا أليوشا يا أخي العزيز (ذلك أنك أخي العزيز)... أنا أحس سلفاً أن قرارك وتأييدك سيعيدان السلام إلى نفسي رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب، وأنني سأقبل مصيري وأرتضي قدري بعد أن أسمع لكلامك... نعم، أنا أحس سلفاً!

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية:

- لا أعرف موضوع سؤالك، ولكنني أعرف على اليقين أنني

أحبك بكل قلبي، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصي على سعادتي...

ثم أسرع يضيف فجأة، لسبب ما:

- على أنني لا أفهم في هذه الأمور شيئاً...

- في هذه الأمور، يا إيفان فيدوروفتش، المسألة الرئيسية الآن هي مسألة شرفٍ وكرامة وواجب، وربما شيء آخر أيضاً، شيء سام لا أستطيع أن أعرّفه، ولكنه قد يكون حتى فوق الواجب. هو نداء أعلى أسمعه في قلبي، وقوة لا تقاوَم تهيب بي أن ألبّيه. وأُجمل فأقول إنني قد اتخذت قراري، وإليك هذا القرار: هَبْه تزوج هذه... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً)، التي لن أغفر لها أبداً، أبداً... فإنني لن أتركه هو، حتى في هذه الحالة! لن أتركه بعد اليوم، لن أتركه أبداً! (كذلك قالت بنوع من حماسة واهنة حزينة). لن أتعلق بكمّه طبعاً، لن أحاصره بوجودي دائماً، لن أعذبه بحضوري أبداً... بالعكس... سأسافر إلى مدينة أخرى، إلى مدينة نائية، إذا اقتضى الأمر ذلك، ولكنني سأظل أهتم به من بعد، وأسهر عليه طوال حياتي بلا كلل. فإذا شقي مع الأخرى - وذلك أمر لن يتأخر كثيراً - فلن يكون عليه إلا أن يعود إليّ، فيجد فيّ صديقة مخلصة، أختاً حنوناً... أختاً لا أكثر... طبعاً... ذلك أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود أبداً. ويجب أن يعلم حينها أنني أخت له حقاً، أخت مخلصة ضحّت في سبيله بحياتها كلها. سوف أحسن التصرف بحيث يعرفني أخيراً، سوف أجبره على أن يعرفني، وسيصل من ذلك إلى الاعتماد عليّ بلا خجل! سأكون الإله الذي يصلي له: ذلك أقل ما يجب عليه لي تكفيراً عن خيانته وعمّا قاسيته أمس بسببه! ويجب أن يعرف ويرى في جميع أيام حياته أنني سأكون

وفية له إلى الأبد ولعهدي له الذي قطعت على نفسي مرة والى الأبد، رغم أنه لم يكن وفياً لي وخانني. سأكون... وسأجعل نفسي أداةً لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عما بنفسي)، سأجعل نفسي آلة تصنع له السعادة، وذلك طوال حياتي، طوال حياتي... ليرى هو هذا طوال حياته! ذلك هو قراري! إن إيفان فيدوروفتش يؤيدني تأييداً كاملاً.

كانت تلهث. لا شك أنها كانت تتمنى أن تفصح عن نفسها إفصاحاً أرصن وأبرع وأكثر يسراً، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعة، مترجمة عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف. إن المرء يحس، في جميع ما قالته، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها إلى تأكيد عزّتها وكبريائها من جديد. وقد أدركت هي ذلك على حين فجأة، فأظلم وجهها وغار تعبير الطيبة من عينيها. ولاحظ أليوشا هذا، فأخذته بها شفقة. وتدخّل إيفان في تلك اللحظة قائلاً:

- أنا لم أعبّر عن رأيي الشخصي. إن عواطف من هذا النوع كان يمكن أن تبدو، عند أي امرأة أخرى غيرك، عواطفَ مصطنعةً هي ثمرة جهد إرادي شاق أليم معذّب، أما عندك أنت فلا... لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكانت على خطأ، أما أنت فلا.. لست أدرى كيف أعبّر عن شعوري، ولكنني ألاحظ أنك صادقة إلى أبعد حدود الصدق، فأستنتج من ذلك أنك على صواب...

فلم تستطع السيدة خوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول:

- هي صادقة، ولكنها صادقة في هذه اللحظة وحدها... وما هي هذه اللحظة؟ إنه قرار عابرٌ سريع تأخذه تحت وطأة إهانة الأمس فحسب. ذلك هو معنى قرارها في هذه اللحظة!

كان واضحاً أن السيدة خوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها

في المناقشة، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها، فأفلتت منها هذه الملاحظة السديدة تماماً.

فقال إيفان بعنف مكظوم، وقد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته:

- صحيح... غير أن هذه اللحظة لا تكون لدى امرأة أخرى إلا اندفاعاً مؤقتاً مردُّه إلى حادث الأمس، وإلى لحظة واحدة فعلاً، أما لدى امرأة لها طبع كطبع كاترينا إيفانوفنا فستدوم هذه اللحظة مدى الحياة. إن ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية إلا كلاماً في الهواء ووعداً ما يلبث أن يُنسى، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترينا إيفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمراً قد يكون قاسياً أليماً حزيناً، ولكنه لا مفر منه ولا عدول عنه. إن كاترينا إيفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها! إن حياتك، يا كاترينا إيفانوفنا، ستنقضي بعد اليوم في تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقائك. على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن، وسيستحيل شيئاً فشيئاً إلى رضى هادىء عذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار حاسم فيه كبرياء... نعم فيه كبرياء بمعنى من المعاني، ولكن فيه يأس في الدرجة الأولى... وستنتصرين آخر الأمر... وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك...

تكلم إيفان بلهجة نافذة فيها غضب مكبوح. وكان واضحاً أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى، ولعله كان يتمنى أن تُدرَك سخريته.

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- هذا كله خطأ، هذا كله زيف!

فقالت عندئذ كاترينا إيفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خديها:

- ألكسي فيدوروفتش! هلاّ قلت رأيك أخيراً! إنني أشعر بحاجة شديدة قاهرة إلى معرفة رأيك!

نهض أليوشا عن الديوان.

وتابعت كاترينا إيفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها:

- ليس هذا بشيء، ليس هذا بشيء البتة! إنه نتيجة للإرهاق العصبي وهذه الليلة التي قضيتها أرقة مسهّدة. ولكنني، بحضور صديقين مثلكما أنت وأخيك، أشعر بأنني قوية... ذلك لأنني أعلم... أنكما لن تتركاني أبداً.

قال إيفان فيدوروفتش فجأة:

- آسف. قد أضطر أن أسافر إلى موسكو منذ الغد، وأن أتركك فترة طويلة...

- إلى موسكو؟ منذ الغد؟

قالت كاترينا إيفانوفنا ذلك وتقبّض وجهها. ثم أردفت تهتف قائلة بصوت تغير فجأةً، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت آثارها لا تُرى:

- ولكن... ولكن هذا يقع في حينه... يجيء في وقته! يا رب!

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذي حدث في نفسها! إن الفتاة الشقية المهانة التي كانت تبكي عواطفها منذ برهة، وهي في حالة توتر ممزق، قد حلّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل السيطرة، وتبدو راضيةً ذلك الرضى الذي يعقب فرحاً مباغتاً.

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهي تبتسم ابتسامة مهذبة:

- أوه... لا يذهبنّ بك الظن إلى أنني ابتهجت لتركك... طبعاً لا... إن صديقاً مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب،

بالعكس: إنني لأحزن أشد الحزن حين أتصور أنني سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو إيفان فيدوروفتش، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة). ولكنه حظ سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتي ولأختي آجافيا، في موسكو، الظرف الذي أنا فيه. حدثهما عن فظاعة الأيام التي عشتها هنا، فأما مع آجافيا فبصراحة، وأما مع عمتي العزيزة فبشيء من المداراة. وإني لواثقة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما على حقيقة الأمور. لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمري لأكتب إليهما هذه الرسالة الرهيبة... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروي هذه الأشياء كتابةً... أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً: ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شيء! آه... ما أسعدني! هذا هو السبب الوحيد في ما رأيت من فرحي. صدقني. وإنك لتعلم أنت نفسك على كل حال، أنه ما من شيء يمكن أن يحل عندي محلّ صداقتك...

وختمت كاترينا إيفانوفنا كلامها قائلة وهي تتجه نحو باب الغرفة:

– سأكتب الرسالة حالاً.

فسألتها السيدة خوخلاكوفا بلهجة لاذعة حانقة:

– وأليوشا؟ أليوشا الذي كنت تحرصين ذلك الحرص كله على أن تعرفي رأيه؟

فتوقفت كاترينا إيفانوفنا وأجابتها قائلة:

– ما نسيته.

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة حمية:

– ولكن لماذا، لماذا تظهرين لي الآن هذه العداوة كلها يا كاترينا أوسيبوفنا؟

ما زلت مصرّة على ما قلته. إنني لا غنى لي عن معرفة رأيه. بل إنني أريد منه أكثر من هذا: أريد منه أن يتخذ لي قراراً! وسأتبع ما ينصحني به. فانظر يا ألكسي فيدوروفتش إلى أي مدى أنا في ظمأ إلى سماع كلامك... ولكن ماذا بك؟

صاح أليوشا يقول في ألم:

- ما كان لي أن أفكّر في هذا في يوم من الأيام! ما كان لي أن أتخيل هذا في يوم من الأيام!

- ماذا؟

- يسافر إلى موسكو ثم تهتفين قائلة: ما أسعد ذلك! لقد قلت هذا عامدةً! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تغتبطين لسفره، وأنك على عكس ذلك يُحزنك... فقد صديقك. وهذا أيضاً قلته عامدة... كما في المسرح... كما لو كنت تمثلين تمثيلاً!..

- كما في المسرح؟ كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟

كذلك هتفت كاترينا إيفانوفنا وقد بلغت أوج الدهشة. لقد احمر وجهها احمراراً شديداً، وقطبت حاجبيها.

واستأنف كلامه بأنفاس لاهثة:

- وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمانك من صديق عزيز، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره إلى موسكو يملؤك ارتياحاً.

- ماذا تقصد؟ ماذا تريد أن تستنتج إنني لا أفهم.

- أنا نفسي لا أعرف تماماً... لقد تراءت لي الحقيقة فجأة كأنما في ضوء برق...

وتابع أليوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر:

- أنا أحسّ أنني أرتكب خطأ إذا عبّرت عن مشاعري، ولكنني سأقول ما بنفسي مع ذلك. إليك الضوء الذي رأيته: إنك لا تحبين أخي دمتري... ولعلك ما أحببته أبداً... حتى منذ البداية... ثم إن دمتري أيضاً لا يحبك... فيما أظن... لا هو يحبك الآن، ولا هو أحبك منذ البداية... وإنما هو يقدّرك ويحترمك فحسب... إنني أتساءل: ما الذي يجيز لي أن أكلمك هكذا... ولكن لا بد أن يعزم أحد أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً... ما دام لا يريد أحد هنا أن يعترف بها...

صاحت كاترينا إيفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستيريا:

- أي حقيقة تعني؟ عن أي حقيقة تتكلّم؟

فتمتم أليوشا يقول وهو يحسّ أنه يسقط من شاهق:

- إليك الحقيقة التي أتكلم عنها. استدعي دمتري - وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة وليتناول يدك فيضعها في يد أخي إيفان. إنك لا تزيدين على أن تعذبي إيفان، وذلك بسبب بسيط، هو أنك تحبينه... وأنت إنما تعذبيه لشغفك بالتمزق... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمتري... حباً لا تشعرين به البتة... وتحاولين أن تقنعي نفسك به...

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت؟

- ما أنت... ما أنت إلا أبله صغير... ما أنت إلا بسيط العقل... ذلك أنت!

كذلك قالت كاترينا إيفانوفنا بصوتها القاطع الجازم، وقد شحب وجهها شحوباً شديداً وظهر على شفتيها أنهما تنعقفان غضباً مسعوراً. وأخذ إيفان فيدوروفتش يضحك في تلك اللحظة، ونهض من مكانه حاملاً قبعته بيده. وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر في وجهه تعبير لم

يره فيه أليوشا قبل ذلك يوماً، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتها:

- أنت مخطىء يا عزيزي أليوشا. فإن كاترينا إيفانوفنا ما أحبتني في يوم من الأيام! وكانت تعلم منذ البداية أنني أحبها، رغم أنني لم أحدثها في حبي قط. كانت تعلم ذلك، ولكنها لم تحبني. لا ولا كنت صديقها في ظرف من الظروف. إن هذه المرأة المتكبرة لم تكن في حاجة إلى صداقتي. وهي لم تحتفظ بي إلى جانبها إلا لتستطيع إرواء ظمئها إلى الانتقام، إلا لتثأر مني، نعم مني أنا، لجميع الإذلالات والإهانات التي أنزلها فيها دمتري منذ أول لقاء بينهما... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقيت في نفسها إهانة أليمة وجرحاً بالغاً. هذه هي كاترينا إيفانوفنا! أما أنا فلم يكن أمامي طوال الوقت سوى الإصغاء إليها متحدثةً عما تحمله من حب لدمتري. وسأنصرف الآن. ولكن اعلمي يا كاترينا إيفانوفنا أنك لا تحبين حقاً إلا دمتري. وستحبينه مزيداً من الحب على قدر ما سيذلّك مزيداً من الإذلال. ذلك هو تمزقك كله فأنت إنما تحبيه كما هو؛ أنت إنما تحبين فيه الرجل الذي يهينك. ولو أصلح نفسه في يوم من الأيام، إذاً لأشحت وجهك عنه فوراً، ولكففت عن حبه حتماً. ولكنك محتاجة إليه، كيما تستطيعي أن تتأملي منظر وفائك البطولي، وكيما يتاح لك أن تأخذي عليه خياناته. وذلك كله زهواً وتكبراً. إن ههنا جحيماً من مذلة تريدينها وتتحملينها، والكبرياء هي التي تدفعك إلى السعي وراء هذا الجحيم... إنني ما زلت في ريعان الشباب، ولقد أحببتك فأسرفت. والآن أدرك أنه ما كان عليّ أن أقول ذلك وأن ابتعادي صامتاً أحفظ لكرامتي أنا، وأخف وطأة على جروحك أنت. ولكنني سأسافر إلى مدينة نائية، ولن أعود بعدئذ أبداً. إننا نفترق إلى

الأبد. . . لقد سئمت من أن أكون شاهداً على تمزقاتك النفسية. . . أحسب أنني لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج في قلبي ويدور في خُلدي. لقد قيل كل شيء. . . فوداعاً يا كاترينا إيفانوفنا. وليس من حقك أن تؤاخذيني وأن تحقدي علي، لأن العقاب الذي أناله أنا أقسى كثيراً من العقاب الذي تنالينه أنت. حسبي عقاباً أنني لن أراك بعد اليوم أبداً. وداعاً! لا تمدي إليّ يدك. لقد آلمتني إيلاماً فيه من الوعي والعمد ما يجعلني لا أستطيع أن أغفر لك في هذه اللحظة. سوف أغفر لك في المستقبل، اما الآن فلا داعي للمصافحة.

Den Dank Dame, begehr ich nicht[8] «بالشكر يا سيدتي لا أحفل».

أضاف إيفان ينشد هذا البيت من الشعر وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها اجباراً، مبرهناً بهذا الاستشهاد، على نحو لم يكن في الحسبان، أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ الشاعر شيللر في هوى وشغف، وأن يحفظ أبياتاً من شعره على ظهر القلب، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل. ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت.

صاح أليوشا يناديه بصوت تائه، ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى: إيفان، ارجع يا إيفان، ارجع!

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ في نفسه يقين مباغت:

- لا. . . لا. . . إنه لن يعود. . . لن يعود أبداً. هي غلطتي، هي غلطتي أنا. . . إنني بما قلته سببت هذا كله! لقد قال إيفان أشياء شريرة ظالمة. . . ما كان ينبغي له. . . هذا ظلم!. . .

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة، كمجنون.

وفي تلك اللحظة مضت كاترينا إيفانوفنا إلى الغرفة المجاورة.

وهمست السيدة خوخلاكوفا مبتهجة مسرعة تقول لأليوشا المستغرق في أسف ولوعة:

- ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه. بالعكس: لقد تصرفت تصرفاً رائعاً كملاك. سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر إيفان فيدوروفتش. . .

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة، وأشرق وجهها فرحاً، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد. ولكن كاترينا إيفانوفنا رجعت في تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملةً ورقتين نقديتين كلُ منهما بمائة روبل.

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة، بلهجة تبدو هادئة طبيعية إلى أقصى حد، كأن شيئا لم يحدث:

- لي عندك رجاء كبير يا ألكسي فيدوروفتش. منذ أسبوع. . . نعم، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع. . . ثار ديمترى فيدوروفتش ثورة عنيفة ظالمة، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة. إن في هذه المدينة مكاناً مشبوهاً هو حانة من الحانات، التقى فيها، في ذلك اليوم، بضابط محال على التقاعد هو ذلك النقيب الركن الذي يستعين به أبوك في بعض شؤونه. وقد غضب ديمترى فيدوروفتش من هذا الرجل غضباً شديداً، لا أدري لماذا، فأمسكه من لحيته وجرّه إلى الشارع جراً سفيهاً على مرأى من جميع الناس، وأخذ يقوده في الشارع على هذا النحو خلال مدة طويلة. وقد ذكر الذين شهدوا الحادث أن ابن هذا النقيب الركن، وهو صبي يختلف إلى مدرسة المدينة، صبي صغير فيما يبدو، قد أخذ يركض إلى جانب أبيه باكياً منتحباً، متوسلاً إلى أخيك أن لا يؤذي أباه، متضرعاً إلى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه، ولكنهم جميعاً كانوا

يضحكون. معذرة يا ألكسي فيدوروفتش! ولكنني لا أستطيع إلا أن أشعر باستياء شديد حين أتذكر هذه الفعلة المخزية التي فعلها أخوك... الفعلة المشينة التي لا يستطيع أن يقدم عليها أحد غير ديمترى فيدوروفتش في حنقه... وبأهوائه الجامحة! بل إنني لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب، فذلك يفوق طاقتي... لذا تراني أتيه في سردها. وقد سألت عن الرجل الذي أهانه أخوك هذه الإهانة، فعرفت أنه يعيش في فقر مدقع وبؤس رهيب. إن اسمه هو سنيجيريف. لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته في الجيش، فسُرّح... لا أدري تماماً. وقد صار هو وأسرته البائسة، أولاده المرضى وامرأته المجنونة فيما يقال، صاروا أخيراً إلى حالة رهيبة من العوز والفاقة. إنه يعيش في هذه المدينة منذ مدة طويلة، وكان قد وجد وظيفة في مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين فجأة. عندئذ خطرتَ أنت ببالي... أو قل إنني قدّرت أن... لا أدري ماذا دهاني حتى صرت لا أعرف ماذا أقول... إن كلامي مضطرب. أردت أن أرجوك يا ألكسي فيدوروفتش، يا عزيزي الطيب ألكسي فيدوروفتش، أردت أن أرجوك أن تذهب إلى هذا الرجل متذرعاً بحجة مناسبة، متعللاً بعذر لائق، فتراهم، أقصد ترى هذا الضابط... أوه... رباه! انني أخلط كل شيء... فتعطيه هذه المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة، كريمة... كما لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هذه الكلمات)، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات. إنه سيقبل هذه المساعدة حتماً... أقصد إن عليك أن تلح في سبيل أن يقبلها... هل فهمت ما أقصده؟ اللّهم إلا أن... ولكن لا.. يجب أن تشرح له أن الأمر ليس استرضاء له حتى لا يشكو أمره إلى

القضاء (يبدو أنه ينوي أن يشكو أمره إلى القضاء في لحظة من اللحظات)، وإنما هو شعور بالمودة له، ورغبة في مد يد المساعدة إليه. وليعلم أيضاً أن هذا المبلغ هو مني أنا، مني أنا، أي من خطيبة ألكسي فيدوروفتش، لا من ديمترى فيدوروفتش نفسه... الخلاصة: ستعرف كيف تتصرف... كان يمكن أن أذهب إليه أنا، ولكنني أعلم أنك ستتدبر الأمر خيراً مني. إنه يسكن في شارع أوزيورنايا عند امرأة من سكان المدينة اسمها كالميكوفا... قدم لي هذه الخدمة يا ديمترى فيدوروفتش، أرجوك، أتوسل إليك... أشعر الآن بأني متعبة... أشعر بشيء من الإعياء... إلى اللقاء...

قالت ذلك واستدارت على عقبيها وبلغت من الإسراع إلى الاختفاء وراء الباب. إن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمة واحدة. وكان أليوشا مع ذلك يرغب رغبة قوية في أن يكلمها. كان يريد أن يستغفرها، أن يتهم نفسه أمامها، أن يقول لها شيئاً ما على الأقل، لأن قلبه كان يفيض في تلك اللحظة شعوراً بالحب، فلم يقدر على مبارحة الغرفة قبل تحقيق رغبته هذه. ولكن السيدة خوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته إلى خارج الحجرة، ثم توقفت في الدهليز، كما فعلت ذلك قبل ذلك، من أجل أن تكلمه.

قالت له السيدة خوخلاكوفا بصوت خافت:

- إنها متكبرة تصارع نفسها، ولكنها طيبة، رائعة، كريمة، إلى أقصى الحدود! ليتك تعلم كم أحبها، ولا سيما في بعض اللحظات، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد، وكم ترتد إليّ السعادة بكل شيء! يجب عليّ يا ألكسي فيدوروفتش أن أبوح لك بشيء كنت تجهله حتى الآن. اعلم أننا جميعاً، جميعاً، أقصد أنا وخالتيها، أي جميعاً، وحتى ليزا، كنا نتمنى ونتوسل إلى الله، منذ أكثر من شهر

إلى الآن، أن تعزم أمرها أخيراً على أن تقطع صلتها بديمترى فيدوروفتش الذي تؤثره أنت، وذلك لأنه لا يريدها ولا يحبها، وأن تتزوج إيفان فيدوروفتش الذي هو على جانب عظيم من سعة الثقافة تميّز الطبع، والذي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذا العالم. حتى لقد دبرنا مؤامرة لبلوغ هذا المأرب وتحقيق هذا الهدف، ولعل ذلك أيضاً هو السبب في أنني لم أسافر بعد...

صاح أليوشا يقول:

- ولكنها عادت تبكي من شعورها بالمذلة!

- لا تصدّق دموع النساء يا ألكسي فيدوروفتش! أنا في هذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة. أنا مع الرجال.

وهنا دوّى صوت ليزا الرفيع الواهن من وراء الباب يهتف:

- ماما، إنك تفسدينه بالدلال، إنك تودين به إلى الهلاك!

وردّد أليوشا الحزين الذي لا سبيل إلى عزائه، ردد يقول وهو يشعر بخزي شديد من غضبته، ويخفي وجهه بيديه خجلاً وحياء:

- شيء رهيب! أنا سبب هذا كله! لقد اقترفت خطيئة رهيبة!

فقالت له السيدة خوخلاكوفا:

- بالعكس: لقد تصرفت تصرف ملاك، تصرف ملاك... لن أمل من تكرار هذا.

وصاح صوت ليزا يقول مرة أخرى:

- كيف كان تصرفه تصرف ملاك؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا:

- لقد تراءى لي فجأة، وأنا أنظر إليهما، تراءى لي فجأة أنها تحب إيفان، فأفلت مني ذلك الكلام الأحمق... ما عسى يحدث الآن؟

- عمن تتكلمان يا ماما؟ عمن تتكلمان؟ إنك تميتينني يا ماما! ألقي عليك أسئلة ولا تجيبين!

وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة مسرعة تقول:

- كاترينا إيفانوفنا في حالة سيئة... الآنسة تبكي... تتخبط كأنها في نوبة هستيريا...

وعادت ليزا تصيح قائلةً في هذه المرة بصوت قلق مروّع:

- هلاّ قلت لي يا ماما أخيرا ما هي القضية؟ ماما، أنا التي سأصاب الآن بنوبة هستيرية، لا هي!

- هدئي نفسك يا ليزا، ناشدتك الله! إنك تقتلينني بهذا الصراخ! إن عمرك لا يسمح لك بعد أن تعرفي كل شيء كما يعرفه الكبار. سأجيء إليك بعد قليل فأطلعك على يمكن أن أطلعك عليه. أوه! رباه! رباه! أنا ذاهبة إليها، أنا ذاهبة إليها... نوبة عصبية... ولكن هذه علامة طيبة يا ألكسي فيدوروفتش! حسن جداً أن تنتابها نوبة من هذا النوع... ذلك ما يجب أن يحدث... أنا أقف دائماً ضدّ النساء في هذه المناسبات، ضد نوباتهن ودموعهن. يا يوليا، امضي إليها فقولي لها إنني آتية إليها حالاً. على كل حال ليس عليها إلا أن تحمّل نفسها تبعة خروج إيفان فيدوروفتش على ذلك النحو! ولكنه لن يسافر. ليزا، لا تصرخي، لا تصرخي، ناشدتك الله! صحيح أنك لا تصرخين. فأنا التي صرخت. سامحي أمك يا ليزا، ولكنني سعيدة، سعيدة جداً، سعيدة سعادة رهيبة! هل لاحظت يا ألكسي فيدوروفتش كم كان وجهه فتياً، أخوك إيفان، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو؟ إنه يُشعر بأنه مثقف جداً، عالم جداً، ثم ها هوذا يكشف فجأة عن أنه شاب حقاً، حار القلب، صادق النفس، يزخر بنضارة الفتوة، وهو قليل التجربة، قليل التجربة جداً. آه... ما

أروع هذا، ما أجمله... هو مثلك تماماً!. وهذا البيت من الشعر الألماني الذي رواه، هذا أنت أيضاً... أنا ذاهبة إليها الآن، أنا ذاهبة إليها.. أسرع يا ألكسي فيدوروفتش، فقم بالمهمة التي عهدَتْ بها إليك، ثم ارجع إلى هنا بأقصى سرعة. ليزا، ألست في حاجة إلى شيء؟ أستحلفك بالله أن لا تؤخري ألكسي فيدوروفتش، سيعود إليك بعد بضع لحظات...

وخرجت السيدة خوخلاكوفا أخيراً مسرعة. حاول أليوشا، قبل انصرافه، أن يدخل على ليزا، ولكنها هتفت تقول له:

- أبداً... مستحيل... لن أطيق الآن أن تجيء إليّ!.. تكلّم من خلف الباب. ما الذي جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك؟ هذا هو الأمر الوحيد الذي أحب أن أعرفه.

- هو قولي كلاماً سخيفا غبياً يا ليزا! وداعاً!

صاحت ليزا تقول:

- لا أسمح لك أن تمضي هكذا!

- ليزا! إن بي حزناً كبيراً. سأعود بعد قليل. إن عذابي كبير، كبير جداً، صدقيني!

وخرج مسرعاً.

– 6 –

التمزق في الخربة

نعم، كان حزنه كبيراً جداً قلّما شعر بمثله من قبل. لماذا تعجَّل فقال ذلك الكلام؟ لقد ارتكب «حماقة»! وفي أي موضوع؟ في موضوع حب. . . «أنا أعلم حق العلم أنني لا أفهم في هذا الأمر شيئاً، فكيف أمكن أن أشترك في تحليل شأن من هذه الشؤون؟» كذلك ردَّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمرّ خجلاً وحسرة. «ليس العار الذي أشعر به شيئاً يُذكر، فهو العقاب الذي أستحقه وإنما الشقاء الحق هو أنني سأكون سبب كوارث جديدة. . . لقد أرسلني شيخي العالم لأوحِّد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين، أفبهذه الطريقة يكون ذلك؟» وتذكر أليوشا في تلك اللحظة اليدين اللتين أراد أن يضع إحداهما في الأخرى، فازداد خزياً واضطراباً إلى أقصى حد. وأخيراً قال لنفسه مستنتجاً فجأة دون أن يبتسم ساخراً من هذا الاستنتاج: «لئن كان تصرفي مخلصاً في تلك المناسبة، فيجب أن أبرهن في المستقبل على مزيد من الذكاء والتعقُّل».

إن المهمة التي كلفته كاترينا إيفانوفنا أن يقوم بها، تضطره أن يذهب إلى شارع أوزيورنايا. وأخوه ديمتري يسكن غير بعيد عن هناك، في زقاق جانبي، فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أي حال قبل أن يمضي إلى الضابط المتقاعد، رغم إحساسه بأنه لن يجده في

منزله. كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلف الأمر. والوقت يمضي في أثناء ذلك سريعاً. وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير، فهي تلاحقه حيثما يذهب.

هناك نقطة أشارت إليها كاترينا إيفانوفنا، فأثارت انتباهه إثارة قوية. لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط، تلميذ المدرسة الذي كان يركض إلى جانب أبيه باكياً منتحباً؛ وقد قال أليوشا لنفسه في تلك اللحظة: لا بد أن هذا الولد هو الصبي الذي عضه في إصبعه، حين سأله فيم أساء إليه. وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبي نفسه، دون أن يدرك سبب هذا اليقين إدراكاً واضحاً. وقد صرفته هذه التأملات لحظة عن همومه الثقيلة، وإذ استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر أن لا «يجتر» الآن طويلاً فكرة تلك «المصيبة» التي سبَّبها، وأن لا يرهق نفسه بحسرات عقيمة، وإنما يعمل ويرى كيف ستجري الأمور. وقد سرَّى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل. ولاحظ عندئذ أنه جائع، فلما دخل في الزقاق المؤدي إلى حيث يسكن ديمتري، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذي أخذه من عند أبيه، وأكله، فاسترد شيئاً من قوته.

لم يكن دمتري في المنزل. فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل - وهم نجّار عجوز وامرأته وابنهما - أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات فيها شك وحذر.

قال العجوز لأليوشا الذي ألح في السؤال عن أخيه:

- إنه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال، فلعله سافر.

فبدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها إليه دمتري.

قال أليوشا يسأل العجوز مرة أخرى، متعمداً أن يذكر هذه المعلومات السرية:

- أتراه عند جروشنكا؟ أم تراه مختبئاً عن توماس مثلاً؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة. فقال أليوشا لنفسه: «هم يحبونه إذاً، ما داموا ينحازون إلى صفه. وهذا حسن جداً».

قفل أليوشا راجعاً ووصل أخيراً إلى شارع أوزيورنايا، أمام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كالميكوفا، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لها إلا ثلاث نوافذ تطل على الشارع، وفناؤها قذر جداً رأى فيه أليوشا بقرة. إن الدخول من الفناء إلى المنزل يتمُّ عبرَ حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى بمسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها المتقدمة في السن كثيراً هي الأخرى. والمرأتان تبدوان صماوين، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن الضابط عدة مرات. وفهمت إحداهما أخيراً أن أليوشا إنما يسأل عن الرجل القاطن في دارهما مستأجراً، فأومأت بإصبعها نحو الجهة الأخرى من حجرة الدخول، مشيرةً إلى الغرفة التي هي أفضل غرفة في الدار. إنه مجرد منزل صغير من غرفة واحدة.

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمَّ أن يفتحه ولكنه لم يلبث أن أمسك عن فتح الباب، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذي يخيم وراء الباب. لقد كان يعرف مما قالته له كاترينا إيفانوفنا أن الضابط المتقاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفسه: «إنهم نائمون، أو أنهم أحسوا بمقدمي فهم ينتظرون دخولي عليهم، فالأفضل أن أقرع الباب». وقرع الباب فعلاً، فأجيب، ولكن الجواب لم يجيء رأساً، وإنما تأخر نحو عشر ثوانٍ.

قال صوت عال حانق:

- من؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة، فإذا هو يجد نفسه في غرفة واسعة، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية. فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة؛ وفي تلك الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة، قد عُلِّقت عليه أنواع الملابس الداخلية؛ وعلى طول الجدارين الجانبيين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء مغزول، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام قد نُضد بعضها فوق بعض على شكل هرم، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه إلا وسادة واحدة صغيرة، وفي ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بحبل أيضاً قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكمِّلها كرسي، والسرير لا يُرى إلا جزء منه؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة، هي من نوع تلك الموائد التي تُرى كثيراً في بيوت الفلاحين. والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها إلا ضوء قليل؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشعر فيها المرء باختناق. وعلى المائدة ترى مقلاة فيها بقايا بيض، وقطعة خبز مقضومة، وإبريق خمر يتسع لنصف لتر، ولكنه يكاد يكون فارغاً. وقرب السرير الأيسر تجلس على الكرسي امرأة لها شيء من مظهر سيدة. إنها ترتدي ثوباً من قماش الشيت، وهي ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جداً ينبئان بحالتها المَرَضية من أول وهلة. وقد فوجئ أليوشا خاصةً بتعبير نظرة السيدة المسكينة الذي ينم عن تساؤلٍ وتعالٍ في آن واحد. وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل، وإلى أن

تدخلت هي في الحديث، لم تكفَّ عن تنقيل نظرة عينيها البنيتين الواسعتين بين الرجلين معبِّرة عن ذلك التساؤل نفسه، وذلك الاستعلاء نفسه. وإلى جانب السيدة، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دميمة الوجه، ترتدي ثياباً فقيرة ولكنها محتشمة، لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه إلى حمرة؛ وكانت تتفرس في أليوشا باشمئزاز. وعلى اليمين، قرب السرير أيضاً، تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة، فتاة في نحو العشرين من عمرها، حدباء الظهر مقعدةً متيبسة الساقين، كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد؛ وتُرى عكازتاها في الزاوية بين السرير والجدار. غير أن لها عينين رائعتين تشعان طيبة، وهي تلقي على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة. وهذا رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره قد جلس إلى المائدة ينتهي من أكل بيضة مقلية. إنه قصير القامة، جاف الجلد، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه إلى حمرة هو أيضاً، تذكر لحيته الحمراء المتناثر شعرها بليفة حمام مهترئة. (إن هذا التشبيه بين لحية الرجل و«ليفة الحمام» على الأخص برقا في ذهن أليوشا رأساً، كما تذكر ذلك فيما بعد). واضح أن هذا الرجل هو الذي صاح من وراء الباب يسأل: من؟ ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل سواه. فلما رأى أليوشا نهض عن المائدة بحركة مفاجئة، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقَّبة، تقدم نحو الزائر مسرعاً.

قالت الفتاة الواقفة في الزاوية اليسرى بصوت عال:

- هذا راهب يجمع الصدقات لديره. يميناً لقد عرف إلى أين يجيء!

ولكن الرجل الذي اقترب من أليوشا التفت إليها بسرعة عسكرية، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع:

- في هذه المرة أخطأت يا بربارا نيكولايفنا! ليس الأمر ما تصورت. ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً إلى أليوشا من جديد:

- هل لي أن أسألك ما الذي جعلني أستحق شرف زيارتك... في هذه الأغوار الحقيرة؟

تفرس أليوشا في هذا الرجل الذي يراه أول مرة. إن في مظهره شيئاً من الحدة والتعجل والحنق. لا شك أنه كان قد شرب، ولكنه لا يبدو ثملاً. وفي وجهه تُرى وقاحة قصوى، ولكن يُرى في الوقت نفسه جبن شديد، وهذان أمران يدهش المرء اجتماعهما... إن هيئته هيئة إنسان اضطر زمناً طويلاً إلى احتمال الذل وقبول الخضوع ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته؛ أو قل بتعبير أدق إن هيئته هيئة رجل يشعر برغبة قوية في أن يضربك، ولكنه يخاف خوفاً قوياً من أنك قد تضربه. إن المرء يلمح في أقواله، وكذلك في نبرات صوته الحاد، نوعاً من سخرية سخيفة مبتذلة هي تارةً شريرة خبيثة، وتارةً أخرى خائفة وجلى تظهر ضعفها وتتحطم في بعض اللحظات. لقد ألقى سؤاله عن «الأغوار» وهو يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، محملقاً عينيه، بالغاً من الاقتراب من أليوشا، حدّ أن أليوشا تراجع خطوة إلى الوراء بغريزته. كان الرجل يرتدي معطفاً حقيراً مهترئاً، قاتم اللون، مرقعاً في مواضع كثيرة، متسخاً ببقع كبيرة. أما سرواله فهو فاتح اللون جداً، عليه رسوم مربَّعة الأشكال، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى في أي مكان. والسروال من نسيج رقيق، قد تجعد أدناه وانشمر، فكأن لابسه صبي طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيراً قصيراً عليه.

قال أليوشا يجيب على سؤال الضابط المتقاعد:

- أنا... أنا الكسي كارامازوف.

- لي شرف معرفة ذلك من قبل.

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر. ثم أضاف يقول:

- فاسمح لي أن اقدم لك نفسي أنا أيضاً: النقيب الركن سنيجيريف - س[9]. ولكن هل لي أن أعرف الهدف الذي ترمي إليه من...

- لم أجيء لهدف معين. كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمي... إذا كنت لا ترى في ذلك ضيراً...

- في هذه الحالة، إليك هذا الكرسي! تفضل فاتخذ لنفسك مجلساً... أليس هذا ما يقال في الكوميديات الكلاسيكية: «تفضل فاتخذ لنفسك مجلساً»!

قال النقيب الركن ذلك وتناول كرسياً بحركة مباغتة عنيفة (هو كرسي بسيط غير منجّد، من كراسي الفلاحين)، فوضعه في وسط الغرفة تقريباً؛ ثم تناول كرسياً آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه أمام أليوشا، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسي أليوشا أن رُكَب الرجلين يحتك بعضها ببعض.

- اسمي نيكولاي إيليتش سنيجيريف، نعم، نقيب ركن سابق في سلاح المدفعيّة بالجيش الروسي. وإنني لأظل ضابطاً رغم عيوبي ورذائلي التي هوت بي إلى الحضيض. ولقد كان ينبغي أن أقول الرائد س، لا الرائد سنيجيريف، ذلك أنني في الشطر الثاني من حياتي قد أخذت أستعمل «س». تلك عادة ناشئة عن الانحطاط.

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة محرجة:

- نعم. ولكن هل يتعود المرء هذه العادة عمداً أم هو يتعودها على غير إرادة منه؟

- بل على غير إرادة منه، شهد الله! يميناً ما كنت أتكلم بهذه الطريقة في الماضي طوال حياتي. ثم نهضت بعد سقوطي المفاجىء وتعودت حرف «س». ذلك يحدث بتأثير قوة عليا. ولكني أراك تهتم بشؤون الحياة الحديثة، فهل لي أن أعرف السبب الذي جعلني أستحق شرف هذا الاهتمام؟ إنني أعيش هنا في ظروف لا تؤهلني للقيام بواجبات الضيافة.

قال أليوشا:

- أنا إنما جئت... من أجل ذلك الأمر الذي...

فقاطعه الرجل بلهفة سائلاً:

- أي أمر؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلاً:

- أمر لقائك ذلك بأخي ديمترى فيدوروفتش...

- أي لقاء تعني؟ ها... ذلك اللقاء! هو إذاً موضوع الليفة؟

قال الضابط المتقاعد ذلك، وازداد اقتراباً من أليوشا حتى صدم في هذه المرة ركبيته. ودقّت شفتاه في تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل.

تمتم أليوشا يسأله:

- أية ليفة؟

فصاح من وراء الستارة صوت عرفه أليوشا فوراً إنه صوت الصبي الذي لقيه منذ قليل، صاح صوت الصبي يقول:

- بابا! لقد جاء يشكوني أنا. أنا الذي عضضت أصبعه!

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه في الركن تحت الأيقونات مضطجعاً على السرير الذي يتألف من دكة وكرسي. كان الصبي مغطى بمعطفه الرث وبلحاف عتيق. كان واضحاً أنه مريض؛ وإذا

صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى. إنه يحدق إلى أليوشا بغير خوف ولا وجل، واثقاً ثقة لم تظهر عليه في الشارع، كأنه يريد أن يقول: «أنا الآن في بيتي، في بيتي، فلن تستطيع أن تصنع بي شيئاً».

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض:

- عضك في إصبعك؟ أأنت من عضه في إصبعه؟

- نعم، أنا. كان يقتتل في الشارع مع أطفال آخرين بتراشق الحجارة. وكان واحداً وكانوا ستة. فاقتربت منه، فرماني أنا أيضاً بحجر، ثم رماني بحجر آخر مستهدفاً رأسي، فلما سألته ماذا فعلت له، انقض عليَّ فجأة فعضني في إصبعي، لا أدري لماذا!

صاح الرائد يقول وهو يثب عن كرسيه:

- لأجلدنَّه، لأجلدنَّه!

- ولكنني لم أجئ لأشكوه، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه... إنني لا أحب أن تعاقبه قط. ثم إنه مريض فيما يبدو.

- أفصدَّقت حقاً أنني سأجلده؟ أفصدقت أنني سأجلد عزيزي الطيب الشهم إيليوشا، هكذا، فوراً، لأسرك وأبهجك؟ أأنت تحرص على أن أفعل ذلك سريعاً؟

كذلك قال النقيب الركن ملتفتاً نحو أليوشا بحركة تهديد كأنه يهم أن ينقض عليه. ثم أضاف:

- يؤسفني، يا سيدي العزيز، ما نال إصبعك من أذى. ولكني أوثر على ضرب إيليوشا، إذا شئت، أن أبتر الآن أمامك أربعاً من أصابعي بهذه السكين، إرضاءً لك... أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافياً لإرواء ظمئك إلى الانتقام، وأن تسمح لي بالإبقاء على الإصبع الخامسة!..

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق، وكانت عضلات وجهه جميعاً ترتعش، وكانت نظرته تفيض تحدياً واستفزازاً. لقد كان في حالة أشبه ما تكون بحالة المس والخبل عاجزاً عن السيطرة على سلوكه.

قال أليوشا بصوت خافت حزين، دون أن يتحرك عن كرسيه:

- أحسب أنني فهمت الآن كل شيء. إن لابنك قلباً طيباً، فهو يحب أباه، وقد هجم عليَّ لأنني أخو الرجل الذي أساء إليك... فهمت الآن... (كذلك ردَّد كلامه يقول مطرقاً مفكراً)... ولكن أخي ديمترى فيدوروفتش نادم على فعلته... أنا أعرف ذلك... فإذا أذنت له أن يجيئك إلى هنا، أو من الأفضل أن يلقاك في ذلك المكان نفسه مرة أخرى، فسيكون مستعداً لان يعتذر إليك أمام جميع الناس... متى رغبت في ذلك...

- أهكذا إذاً؟ تُنتف لحية الإنسان، ثم يُعتذر إليه... فينتهي كل شيء ويسوَّى كل شيء، أليس كذلك؟

- كلا... كلا!.. إنه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه، على النحو الذي يرضيك!

- أمعنى هذا أن في وسعي أن أطلب من «سموّه» أن يجثو على ركبتيه في تلك الحانة نفسها - حانة «العاصمة الكبرى» - أو حتى في الميدان العام، فإذا هو يلبي طلبي إذا صدق ما تقول؟

- نعم، هو مستعد حتى لأن يجثو على ركبتيه.

- كلامك يهز قلبي، ويؤثر في نفسي، حتى ليكاد يفجر الدموع من عيني! إنني ميال للعاطفية جداً... فاسمح لي إذاً أن أقدم إليك أنفسنا على أكمل وجه. هذه أسرتي: بنتاي، وابني... هذه ذريتي المحترمة. فمن ذلك الذي يلاطفهم ويداريهم، إذا أنا مت؟ ومن ذا

الذي يمكن أن يحبني، أنا الإنسان الشقي، ما دمت حياً، من ذا الذي يمكن أن يحبني غيرهم؟ إن الرب قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالي عزاء كهذا العزاء.. ذلك أنه لا بد لأمثالي أن يجدوا، هم أيضاً، من يمكن أن يحبهم...

- صحيح، هذه حقيقة كبرى!

كذلك هتف يقول أليوشا. فصاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة، وهي تلتفت نحو أبيها معبِّرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز، صاحت مستاءةً تقول:

- دعك من هذا التهريج! أيكفي أن يظهر معتوه ما حتى تشهر بنا جميعاً! وتظهرنا بمظهر أناس مساكين؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة، ولكنه كان ينظر إليها مع ذلك نظرة تشجيع واستحسان:

- مهلاً يا بربارا نيكولايفنا... تذرعي بشيء من الصبر... دعيني أكمل ما أريد أن أقوله...

ثم أضاف يقول ملتفتاً إلى أليوشا:

- إن لها طبعاً صعباً... يصدق عليها قول الشاعر:

ليس في الطبيعة بأسرها ما يرضيها[10]

... لا تريد هي أن ترضى ولكن اسمح لي أن أقدمك إلى زوجتي: أرينا بتروفنا، سيدة مقعدة، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً، قادرة على استعمال ساقيها ولكن قليلاً جداً، هي من أصل وضيع. يا أرينا بتروفنا، هلاً بسطت أسارير وجهك! هذا ألكسي فيدوروفتش كارامازوف. وأنت يا ألكسي فيدوروفتش، هلا نهضت! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة لا يُتوقَّع مثلها منه، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه)... أنني أقدمك إلى سيدة، فعليك أن تنهض...

اسمعي يا عزيزتي، هذا ليس نفس كارامازوف الذي... الذي... همْ... هذا أخوه... شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً. اسمحي لي يا أرينا بتروفنا، اسمحي لي يا امرأتي الكريمة المحترمة، اسمحي لي أن أقبل يدك أولاً.

وقبل يد امرأته باحترام، بل وبحنان. فولّت الفتاة الواقفة قرب النافذة ظهرها للمشهد باستياء، غير أن وجه الزوجة الذي كان يعبِّر عن تساؤل واستعلاء، هش وبش على حين فجأة.

قالت:

- تفضل فاجلس يا سيد تشرنومازوف![11]

فقال زوجها مصححاً:

- بل كارامازوف... اسمه كارامازوف.

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً:

- هي من أصل وضيع، وضيع جداً.

قالت المرأة:

- طيب... كارامازوف... فليكن اسمه كارامازوف ما دمت تحرص على ذلك. كارامازوف أو تشرنومازوف، الاسمان عندي واحد. تفضل بالجلوس يا سيدي. لماذا أنهضك؟ إنني مقعدة، كما قال لك ذلك. صحيح أن لي ساقين، ولكنهما منتفختان انتفاخ قادوسين، أما باقي جسمي فهو يصوِّح. كنت في الماضي سمينة جداً، وها أنا ذا الآن نحيلة مثل أبرة...

ردَّد النقيب قوله:

- هي من أصل وضيع، من أصل وضيع جداً.

فصاحت الفتاة الحدباء الظهر التي كانت إلى ذلك الحين صامتة على كرسيها، صاحت فجأة تقول:

- بابا! آه يا بابا!

وغطت وجهها بمنديلها.

وقالت الفتاة الواقفة قرب النافذة، بلهجة احتقار شديد:

- مهرِّج!

وقالت الأم وهي تمد ذراعيها مشيرةً إلى ابنتيها:

- انظر، هذه أحوالنا كأنها سحائب. سحائب ثم تنقشع. وتعود الموسيقى من جديد. في الماضي، حين كنا في الجيش، كنا نستقبل في كثير من الأحيان زيارات كزياراتك. أنا لا أقصد أن أجرح شعورك لكن يجب على الإنسان أن يحب جميع الناس. إذا وفي ذات يوم جاءت امرأة الشماس فقالت: «الكسندر الكسندروفتش رجل ممتاز، أما ناستاسيا بتروفنا فهي نفثة من نفثات جهنم!» قلت لها: «لكل امرىء أذواقه الخاصة. وما أنت إلا كرة صغيرة، ولكنك كرة عفنة نتنة». قالت: «سنعرف كيف نؤدبك ونردك إلى الصواب»، فأجبتها: «يا سوداء! من أباح لك حق المجيء إلى هنا لتلقي دروساً؟» فقالت لي عندئذ: «أنا أجيئكم بهواء نقي، على حين أن الهواء الذي تنفثينه أنت موبوء يفسد الجو»، فأجبتها: «إذا كان هوائي كريه الرائحة، فاذهبي واسألي أولئك السادة الضباط». ومنذ ذلك الحين بقي هذا في قلبي لا يبارحه. وهكذا حدث لي منذ قليل، إن رأيت، وأنا جالسة هنا، ذلك الجنرال الذي أتى يزورنا في عيد الفصح، فقلت له: «يا صاحب السعادة، هل من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً إلى منزلها؟». فقال لي: «هذا صحيح، ليس الهواء هنا نقياً. يحب فتح الباب أو النافذة». هم جميعاً سواء! لماذا يكرهون هوائي؟ إن الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر من رائحتي. قلت: «لن أفسد الهواء الذي تستنشقونه؛ سأشتري لنفسي حذائين، ثم أمضي، ما دام

الأمر كذلك». يا أولادي، يا صغاري، لا تدينوا أمكم. يا نيكولاي إيليتش، يا زوجي الطيب، أأصبحت لا أرضيك ولا أعجبك؟ لم يبق لي إلا إيليوشا... فهو الذي ما يزال يحبني. يعود من المدرسة، فيغمرني بملاطفاته. وقد جاءني أمس بتفاحة. ارحموني يا صغاري، يا أولادي الذين أعبدهم، أشفقوا على أمكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة. بماذا أفسد الهواء الذي تستنشقونه؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكي منتحبة على حين فجأة، فتسكب سيولاً من دموع. أسرع إليها النقيب:

- عزيزتي، عزيزتي، حمامتي، هدئي روعك، أرجوك. لست وحيدة. فالجميع يحبونك، نحن جميعاً نعبدك!

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل، ثم دغدغ خديها في رفق ولطف. ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذي أغرقته الدموع. وتراءى لأليوشا في تلك اللحظة أن دموعاً لمعت في عيني الضابط السابق أيضاً. والتفت هذا فجأة نحو أليوشا، فهتف يسأله مشيراً إلى المعتوهة المسكينة، وقد استبد به يأس شديد:

- هل رأيت وهل سمعت؟

فدمدم أليوشا يقول:

- رأيت وسمعت.

وصرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق إلى أبيه بعينيه الملتهبتين، صرخ يقول:

- بابا! بابا! أتراك ستعقد الآن صلةً بهذا الـ... اتركه عنك!

وهتفت بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة، وقد استبد بها في هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها، هتفت تقول لأبيها:

- دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزلية البلهاء

التي لا تؤدي إلى شيء!..

فقال الأب:

- حقاً إن لحنقك ما يسوّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا، وسألبي أمرك على الفور. يا ألكسي فيدوروفتش، خذ قبعتك، وسآخذ أنا قبعتي، فنخرج. أريد أن أكلمك كلاماً جاداً، ولكنني أريد قوله خارج هذه الحيطان. إن هذه الفتاة القاعدة هناك هي ابنتي نينا نيكولايفنا التي نسيت أن أقدمها إليك. إنها ملاك تجسّد وهبط على الأرض... هل في وسعك أن تفهم؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم، فقالت مستاءة:

- ها هوذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً!

- أما هذه التي قرعت الأرض بقدمها ووصفتني بأنني مهرج منذ هنيهة، فهي أيضاً ملاك من السماء، وهي على حق إذ تعاملني هذه المعاملة. فلنخرج يا ألكسي فيدوروفتش، يجب أن نفرغ من هذا الأمر...

قال الرجل ذلك، وأمسك ذراع أليوشا، وجرّه إلى الشارع.

- 7 -

وفي الهواء الطلق

قال النقيب الركن:

- هنا يتنفس المرء، أما في مسكني فيختنق، بجميع معاني هذه الكلمة. سنمشي الهوينا. أرجو أن لا تبعث أحاديثي السأم والضجر في نفسك.

قال أليوشا:

- هناك أمر أريد أنا أيضاً أن أحدثك فيه... ولكنني لا أعرف من أين أبدأ.

- لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لي. ولولا ذلك لما جئت إلى مسكني أبداً. اللّهم إلا أن يكون الهدف الوحيد من مجيئك هو أن تشكو إليّ الصبي؟ ولكن هذا قليل الاحتمال!.. وعلى ذكر هذا الصبي.. إنني لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شيء هناك. فسأشرح لك الأمر الآن. لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف مما هي الآن... أعني بالليفة لحيتي... وأولئك التلامذة هم على الأخص سموا لحيتي ليفة... فمنذ أسبوع أمسك أخوك ديمترى فيدوروفتش لحيتي هذه، في تلك الحانة، وجرني إلى الميدان. وكان التلاميذ راجعين من المدرسة في تلك اللحظة نفسها، وكان إيليوشا بينهم، فما إن رآني على هذه الحال حتى ارتمى عليَّ صارخاً: «بابا!

بابا!»، وأمسكني بذراعيه الصغيرتين، وشدني بجماع قواه ليخلّصني، وتشبّث بي، صائحاً مناشداً المعتدي بقوله: «دعه! هذا أبي، هذا أبي، اتركه، اغفر له!» نعم قال هكذا: «اغفر له!» وأمسك أيضاً ذراع أخيك، حتى لقد قبَّل يده، يده تلك نفسها التي كانت قابضةً على لحيتي... ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبي في تلك اللحظة. لم أنسه ولن أنساه ما حييت!!..

هتف أليوشا يقول منفعلاً:

- أحلف لك، أحلف لك أن أخي سيعبّر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه في ذلك الميدان نفسه... سأجبره على أن يفعل ذلك، وإلا فلن يكون أخي!

- آ... آ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن إذاً إلا مشروع اعتذار؟ وهذه النية ليست صادرة عنه، بل عنك أنت، عن قلبك النبيل الحار. كان عليك أن تذكر لي هذا فوراً. أما وإن الأمر كذلك، فاسمح لي أن أصف لك روح الفروسية السامية ونبل الضباط التي أظهرها أخوك في ذلك الظرف. إنه بعد أن جرَّني من هذه الليفة، تركني وقال لي: «أنت ضابط، وأنا ضابط أيضاً، فإذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهداً، فأرسله إليَّ: إنني أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح، رغم أنك وغد!» هذا ما قاله أخوك، كفارس حق! انصرفت بعد ذلك مع إيليوشا، ولكن هذا المشهد قد استقر في نفس الصبي إلى الأبد، فهو لا يبارح ذاكرته في لحظة من اللحظات. كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة عى مركزنا كأناس من النبلاء؟ واقض في الأمر بنفسك على كل حال، ما دمت قد رأيت مسكننا! مسكن جميل، أليس كذلك؟ ثلاث سيدات، إحداهن عاجزة

ومجنونة، والثانية مقعدة وحدباء، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء. إنها طالبة، وليس لها من حلم إلا أن تعود إلى بطرسبرج لتبحث عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا. ولن أقول شيئاً عن إيليوشا. إنه لم يتجاوز التاسعة من عمره، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه. فإذا مت أنا، فما الذي سيحدث لهذه الاغوار كلها؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال. إذا دعوت أخاك إلى المبارزة فقتلني، فما هو الوضع الذي سيصيرون إليه؟ من الذي سيعنى بهم وسيهتم بأمرهم؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلني، وإنما يصيبني بعاهة تقعدني: لن أستطيع بعدئذ أن أعمل، بل أصبح فماً لا فائدة منه، عالة عليهم. من ذا الذي سيطعمني وسيطعمهم جميعاً عندئذ؟ وقد أضطر أن أُخرج إيليوشا من المدرسة، وأن أرسله إلى الشوارع كل يوم يستعطي الصدقات. ذلك ما يمكن أن تجرّه عليّ مبارزةٌ من عواقب. هي كلمة سخيفة، لا أكثر...

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرته ناراً:

- ليستغفرنَّك، ليرتمين على قدميك في وسط ذلك الميدان.

- خطر ببالي أن أشكوه إلى القضاء. ولكن يكفي أن نرجع إلى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تثأر لي من الإهانة التي ألحقها بي. زد على ذلك أن آجرافينا ألكسندروفنا استدعتني وقالت لي غاضبة أشد الغضب: «اعدل عن هذه الفكرة فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية، لأرتِّبنَّ المسألة بحيث يتكشف لجميع الناس أنه إنما ضربك معاقبة لك على اختلاساتك، وستكون أنت الملاحَق يومذاك!» والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بإرادتي، أم أنني أُمرت بها فكنت أداةً لا أكثر! إنني لم أفعل ما فعلت إلا بأوامر

منها، وبأوامر من فيدور بافلوفتش! وقد أضافت تقول لي: «واعلمْ عدا هذا أنني سأطردك من خدمتي عندئذ طرداً حاسماً، فما تجني مني بعد ذلك شيئاً. وسأقول كلمة لصاحبي التاجر (بهذا الاسم تسمي عجوزها)، فيطردك هو أيضاً». فتساءلت حينذاك: ما عسى تصير إليه حالي إذا استغنى التاجر عن خدماتي؟ ما عساني أصنع بعد ذلك في سبيل أن أكسب رزقي؟ ذلك أنه لم يكن قد بقي لي إلا هذان بعد أن أصبح أبوك فيدور بافلوفتش لا يثق بي، لسبب آخر... حتى إن أباك يفكر في جرّي إلى المحاكم مستنداً إلى الإيصالات التي وقعتها بإمضائي. فلهذه الأسباب مجتمعةً، إنما ارتضيت السكوت. لقد رأيت الظروف التي نعيش فيها بنفسك بنفسك. ولكن قل لي الآن: هل أوجعتك كثيراً عضة صغيري إيليوشا؟ إنني لم أجرؤ أن ألقي عليك هذا السؤال في قصري أمامه؟

- نعم. أوجعتني كثيراً. فقد كان منفعلاً جداً. لقد ثأر مني أنا للإساءة التي أُلحقت بك، لأنني واحد من آل كارامازوف. لقد اتضحت المسألة الآن. ولكنك لم تر كيف اقتتل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة. ذلك خطر جداً، فمن الممكن أن يقتلوه. هؤلاء أطفال، لا يفكرون. رُبَّ حجر يُقذف بقوة فإذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته.

- أصيب اليوم بحجر، ولكن لا على الرأس بل على الصدر. أصابه الحجر في موضع يعلو القلب قليلاً، فوصل إلى البيت مزرقاً باكياً، يئن أنيناً شديداً، وها هوذا الآن مريض.

- يظهر أنه هو الذي يبادىء رفاقه الهجوم. إن غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار. والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبي كراسوتكين في جنبه بطعنة من موسى...

- قيل لي هذا. شيء خطر ومزعج. إن كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين، وأخشى أن يجرَّ علينا هذا الحادث وبالاً...

تابع أليوشا كلامه الحار قائلاً:

- أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة إلى حين، إلى أن تهدأ نفسه... إلى أن يخفّ هذا الغضب الشديد الذي يتّقد في قلبه...

قال الضابط المتقاعد مؤكّداً على كلامه:

- الغضب! الغضب! تلك هي مشكلته. غضب كبير في كائن صغير. وأنت لم تعرفْ بعدُ كل شيء. فاسمح لي أن أوضح لك هذه القصة على الأخص. بعد ذلك الحادث أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيظونه، ويسمونه ليفة. إن الأطفال الذين هم في هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة. هم ملائكة إذا نظرت إلى كل واحد منهم على حدة، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما في المدرسة أصبحوا في كثير من الأحيان دون رحمة وشفقة. لقد أخذوا إذاً يشاكسونه، فثار طبع إيليوشا الصغير النبيل. رب صبي آخر، رب ولد فاتر التعلق بأبيه، كان يذعن ويستسلم ويرضخ، وكان يشعر بالخزي والعار من أبيه، أما هو فقد هبَّ وحيداً ضدَّ جميع الأطفال، يدافع عن أبيه، يدافع عن أبيه، ويدافع عن الحقيقة أيضاً... نعم، عن الحقيقة... ما من أحد يعرف في الواقع، ما من أحد يعرف إلا الله وأنا، كم قاسى من ألم حين قبَّل يد أخيك متوسلاً إليه «أن يغفر لأبيه». فانظر كيف يعرف أطفالنا - أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم - أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الأرض منذ السنة التاسعة من عمرهم. إن الأغنياء لا يستطيعون ذلك. هم مهما يعيشوا لن يروا أعماق الهوة في يوم من الأيام! أما ابني إيليوشا فقد غاص إلى قرارة الحقيقة في

تلك اللحظة التي قبَّل فيها يد أخيك بالميدان. . . لقد نفذت الحقيقة كلها إليه عندئذ، وسحقته إلى الأبد.

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام، وألمّت به حماسة مفاجئة وحميّة قوية، حتى إنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيداً من التوضيح كيف سحقت «الحقيقة» ابنه إيليوشا.

وتابع الرجل كلامه فقال:

- وفي الليلة التالية انتابته حمى، فظل يهذي طوال الوقت. ولم يكلمني في الغداة، وإنما التزم صمتاً يشبه أن يكون مستمراً، ولكنني لاحظت أنه كان يرقبني ويرصدني من الركن الذي هو فيه، رغم ميله على النافذة وتظاهر بأنه يهيىء واجباته المدرسية. لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في دروسه في تلك اللحظة. حتى إذا جاء اليوم التالي شربت فأصبحت لا أتذكر أشياء كثيرة. . . يا لي من شقي!. . . نعم لقد شربت، من شدة ما استولى عليَّ الكرب واليأس. وأخذت زوجتي عندئذ تبكي - إنني أحبها كثيراً - ولكن ما العمل؟ لقد أنفقت آخر كوبيك أملكه لأسكر فأنسى بلواي. لا تحتقرني يا سيدي. السكارى في روسيا هم أطيب الناس. إن أصحاب القلوب الحسّاسة الناس هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم في بلادنا روسيا. ونمت، ولم أحفل بإيليوشا. وفي ذلك اليوم بعينه إنما أخذ الصبية يعيِّرونه، صارخين: «يا ليفة! أُخرِجَ أبوك من الحانة مشدوداً من لحيته، فأخذت تركض إلى جانبه تستغفر له!» وفي اليوم الثالث حين عاد من المدرسة، لاحظت أنه شاحب اللون، مروَّع الوجه. سألته: «ماذا بك؟» فلم يجب. وكان يستحيل علينا التحدث في «القصر»، فلو قد تحدثنا هناك لتدخلت الأم والبنات في الحديث. . . وكانت

بناتي على علم بالقضية منذ أول يوم. كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها وغضبها قائلة: «مهرجون! ما عسى يُنتظر منكم؟» قلت لها: «أنت على حق، ما نحن بقادرين على غير ارتكاب الحماقات». وبذلك أرحت نفسي منها. وفي نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير. يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء. وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير فيه الآن أنا وأنت: نخرج من البيت ونصل إلى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق قرب السياج. إن البرية تبدأ هنا. المكان خال جميل. سرت في ذلك اليوم وابني إلى جانبي. يده في يدي، كالعادة. إن يده صغيرة، وأصابعه نحيلة باردة. إنه يشكو من داء في صدره، ابني هذا. قال لي فجأة: «بابا! بابا!»، فسألته: «ماذا؟» ورأيت عينيه تلمعان كأنما تقدحان شرراً. قال: «في ذلك اليوم، كيف شدَّك...» قلت: «ما العمل يا صغيري إيليوشا؟»، قال: «لا تصالحه يا بابا! لا تصالحه أبداً! الأولاد في المدرسة يدَّعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضاً لك عما فعله بك». قلت له: «لا، لا يا صغيري إيليوشا، لن أقبل منه مالاً في يوم من الأيام». أخذ الصبي يرتجف جسمه كله، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين، وغمرها بالقبل. ثم عاد يقول: «بابا! اطلبه إلى المبارزة! فالأطفال في المدرسة يدّعون أنك جبان، وأنك لن تطلبه إلى المبارزة، وإنما ستقبل منه عشر روبلات»، فشرحت له: «لا يمكنني أن أطلبه إلى المبارزة»، وأطلعته بإيجاز على الأسباب التي تعرفها، فأصغى إليّ بانتباه، ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرته: «بابا! لا تصالحه أبداً. لأطلبنه أنا إلى المبارزة حين أكبر، فأقتله!» وأنا أبوه على كل حال... فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق. قلت له:

«إنه لإثم أن يقتل إنسان إنساناً ولو في مبارزة». فصاح عندئذ يقول: «بابا! سوف أقاتله، حين أكبر، فأُلقيه على الأرض بعد أن أُسقط له سيفه بضربة من سيفي، ثم أرتمي عليه وأشهر سيفي فوق رأسه قائلاً له: إنني أستطيع الآن أن أقتلك، ولكنني أعفو عنك، فذلك جزاؤك!» فانظر يا سيدي إلى الخواطر التي شغلت رأس الصغير طوال ذينك اليومين! لقد ظل يفكر خفية ليل نهار في هذا الثأر الفروسي، ولا شك أن هذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر. ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروباً، مضروباً ضرباً قاسياً. ولم أعلم بأمر اشتباكاته هذه مع رفاقه إلا أمس الاول. وأظن أنك على حق: يجب أن لا يعود إلى هذه المدرسة. لقد خفت عليه خوفاً شديداً حين بلغني أنه واجه كل تلاميذ صفه وناصبهم العداء وأنه هو الذي تحداهم أولاً. إن الغضب يعصف في قلبه. لقد خرجنا نتنزه مرة أخرى في يوم من الأيام، فإذا هو يسألني: «بابا، هل الأغنياء أقوى من غيرهم إذاً في هذا العالم؟» فقلت له: «نعم يا إيليوشا، ليس هناك من هو أقوى من الرجل الغني.» فقال لي بعد ذلك: «بابا، سأصبح غنياً أنا أيضاً في يوم من الأيام، وسأصبح ضابطاً، أغلب الأعداء فيكافئني القيصر، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن...» وصمت بضع لحظات، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل، وأضاف يقول: «بابا، يا لها من مدينة شريرة مدينتنا هذه يا بابا، أليست شريرة؟» قلت له: «نعم يا بني إيليوشا، ليست هذه المدينة محببة إلى القلب كثيراً»، فقال: «فلماذا لا نتركها إلى مدينة أُخرى طيبة، لا يعرفنا فيها أحد؟» قلت له: «سنغادر هذه المدينة متى جمعت قليلاً من المال». لقد أسعدني أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء، وأخذنا نتحدّث ونحلم بهذا الرحيل، ونناقش

تفاصيله. قلت له: «سنشتري حصاناً وعربة. نُركب ماما والأختين على العربة ونغطيهما جيداً، ونمشي نحن الاثنين إلى جانبهما. وقد أُركبك أنت أيضاً من حين إلى حين، أما أنا فسأمشي على قدميّ، لأن علينا أن نراعي الحصان ونحافظ عليه، فلا نركب جميعاً حين نرحل.» تحمّس الصبي تحمّساً شديداً، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يركبه هي التي تلهب حماسته أكثر من أي شيء آخر. إن الصبيان في روسيا يولدون برغبة أن يكونوا فرساناً كما تعلم. وقد ثرثرنا مدة طويلة، قلت لنفسي: «الحمد لله على أنني استطعت أن أسرّي عنه وأهدئ نفسه». حدث هذا في مساء أمس الأول. ولكن كل شيء تغير مساء أمس من جديد. لقد ذهب صباحاً من جديد إلى هذه المدرسة وعاد منها مظلم الوجه مكفهر الأسارير أكثر من أي يوم مضى. وفي المساء أمسكته من يده لنقوم بنزهتنا اليومية. كان مصراً على الصمت فما ينطق بكلمة. الريح تهب قليلاً، والسحب تغطي الشمس، والغسق يهبط. إن المرء يحسّ قدوم الخريف. كنا نسير دون أن نتكلم، وفي قلب كل منا حزن دفين. قلت له آملاً أن نستأنف حديث الليلة البارحة: «هيا! يجب علينا يا بني أن نفكر قريباً في الإعداد لسفرنا». فلم يجب. ولكنني شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف في يدي متشجنة. قلت لنفسي: «الحالة سيئة... لا شك أن هناك جديداً». ومضينا إلى تلك الصخرة التي تراها هناك. جلست على الصخرة. كان في السماء طائرات كثيرة من طائرات الورق التي يطلقها الأولاد. إنها تهمهم في الفضاء وتقرقع. كان في السماء يومئذ ثلاثون طائرة من هذه الطائرات على الأقل. ذلك هو الفصل الذي تطلق فيه هذه الطائرات في الفضاء. قلت له: «لقد آن لنا يا إيليوشا أن نطلق طائرتنا نحن أيضاً، طائرة العام الماضي. سوف

أتولى أنا إصلاحها. أين وضعتها؟» لم يجب بشيء، وإنما أدار لي ظهره ناظراً إلى جانب. وفجأة هبَّت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من رمل... فإذا هو يرتمي عليَّ، ويحيطني بذراعيه الصغيرتين، ويشدني إليه بجماع قواه. تعلم أن هذا النوع من الأطفال الصموتين المعتزين بأنفسهم يستطيعون أن يكظمو غيظهم ويحبسوا دموعهم مدة طويلة، ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيراً، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم، فإن عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول. فما هي إلا طرفة عين حتى رطَّب وجهي كله بدموعه. كان ينتحب في تشنج، ويرتعد ارتعاداً قوياً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ويشد جسمي إليه وأنا جالس على الصخرة. قال لي منتحباً: «بابا! يا عزيزي، ما أشد ما أذلَّكَ» فأجهشت أبكي أنا أيضاً. وتعانقنا عناقاً شديداً والدموع تهزنا كلينا. فكان ما ينفك يردد قوله: «بابا... حبيبي بابا!»، وكنت أجيبه: «بني... بني الطيب إيليوشا!» لم يرنا أحد في تلك اللحظة... لم يرنا إلا الرب من علياء سمائه... الرَّب الذي قد ينصفني. أشكر أخاك يا ألكسي فيدوروفتش. لا يا ألكسي فيدوروفتش، لن أجلد ابني لأسرَّك وأرضيك!

عاد الضابط المتقاعد، حين ختم قصته، إلى سخريته المُرّة الحانقة الوضيعة. ومع ذلك أحسّ أليوشا أنه قد حظي بشيء من ثقة هذا الرجل، وأن هذا الرجل ما كان له أن «يتحدث» إلى غيره بهذه الطريقة، وأن يقص على غيره ما قصّه عليه هو. وسُرَّ أليوشا من ذلك، كان يرتعش من شدة التأثر، وكانت دموعه تهم أن تسيل.

قال أليوشا:

- أوه! لشد ما أتمنى أن أصالح ابنك! ليتك تستطيع أن تهيئ..

فدمدم النقيب الركن يقول:

- طبعاً... طبعاً...

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة:

- يجب عليّ الآن أن أكلمك في شيء آخر. أصغ إليّ. إنني مكلف بأن أفاتحك في أمر. إن أخي ذاك نفسه، إن ديمترى ذاك نفسه، قد أهان خطيبته أيضاً، وهي فتاة نبيلة جداً أغلب ظني أنك سمعت عنها. ومن حقي أن أكلمك عن الإهانة التي ألحقها بها، بل إن ذلك واجبي أيضاً، لأن هذه الفتاة بعد أن علمت بالإساءة التي نالتك، وبعد أن عرفت حالتك البائسة... قد كلفتني... قد عهدت إليّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت مني أن أقدمها إليك. اعلم أن هذه الفتاة هي التي ترسل إليك المعونة لا أخي ديمترى الذي هجرها هي أيضاً... والمعونة ليست من ديمترى على كل حال، ولا مني أنا أخيه، ولا من شخص آخر، بل منها هي وحدها! وهي تتوسل إليك أن تقبل معونتها... ألم يذلكما كليكما شخص واحد بعينه ثم إنها لم تتذكرك إلا بعد أن أُلحقت بها الإهانة نفسها التي أُلحقت بك (الإهانة نفسها بضخامتها)! فهي إذاً أخت تريد أن تساعد أخاها... لقد كلفتني أن أطلب إليك قبول هاتين المائتين من الروبلات، معونةً من أخت لأخيها. ولن يعلم أحد بالأمر، ولن تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضوع... إليك المائتي روبل... عليك أن تقبلها... أحلف لك... وإلا كان على البشر أن يعدوا أنفسهم أعداء على هذه الأرض! ولكن الأخوة موجودة في هذا العالم.. إن لك نفساً نبيلة... فلسوف تفهم... لسوف تفهم حتماً!..

قال أليوشا ذلك ومدَّ إلى الرجل ورقتين نقديتين جديدتين كل الجدة، كل منهما بمائة روبل. وكانا في تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة إلى جانب السياج، ولم يكن حواليهما أحد. بدا أن

الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس الضابط المتقاعد أثراً خارقاً. ارتعش في أول لحظة، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصةً. إنه لم يحلم بشيء من هذا، ولا كان يتوقع أن ينتهي الحديث بهذه الخاتمة. إنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات، حتى ولا أثناء النوم، أن أحداً يمكن أن يهبَّ إلى مساعدته، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ. تناول الورقتين النقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم. وطاف في وجهه تعبير جديد كل الجدة.

- أهذا لي، لي أنا، كل هذا المال؟ مائتا روبل؟ يا رب السماء! إنني لم أر مبلغاً ضخماً كهذا المبلغ منذ أربع سنين! أوه! رباه! وهي تعطيني هذا المبلغ كما تعطي أخت أخاها؟ أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟

هتف أليوشا يقول:

- يميناً ما قلت لك إلا الحقيقة!

احمر وجه النقيب الركن وقال:

- قل لي يا صديقي العزيز: لن أكون وغداً إذا أنا قبلتها، هذه الروبلات المائتين، لن أكون جباناً، أليس كذلك؟ أأكون وغداً في نظرك؟ أصغ إليّ يا ألكسي فيدوروفتش، أصغ إليّ حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموماً وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه في كل لحظة): إنك تقنعني بقبول هذا المال، لأنه مرسل إليّ من «أخت»، ولكن ألن تشعر نحوي باحتقار وازدراء، في قرارة نفسك، سراً، إذا أنا أخذته؟ قل....

- يميناً لا... أحلف لك على هذا بخلاصي! ثم إن أحداً لن يعلم بالأمر، لن يعلم به أحد قط إلا نحن، أعني أنا وأنت وهي وسيدة أخرى هي صديقتها الكبرى...

- لا تهمني السيدة! دعني أقول لك كل شيء، يا ألكسي فيدوروفتش. إنني في لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة إلى الإفصاح عن كل ما بنفسي.

- ثم أضاف الرجل البائس الذي أخذت تغزوه شيئاً فشيئاً حميّة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية:

- إنك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة إليّ اليوم.

- كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه أُفقد الصواب، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يسمح له بإتمام كلامه، وتابع يقول:

- إن هذا المبلغ ليس مالاً حلالاً ترسله إليّ «أُخت» محترمة مبجلة فحسب، وإنما أنا أستطيع أن أستعين به أيضاً على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة ابنتي الحبيبة، ملاكي الحدباء، نينوتشكا التي يمكنني أن أداويها! لقد جاء إلينا الدكتور هرتسنشتوبه في ذات يوم، شهامةً منه ونبلاً، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة، فبعد أن قال: «إنني لم أفهم من الأمر شيئاً»، ذكر أن الماء المعدني (الذي وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيراً، ويمكن شراؤه من الصيدلية في مدينتنا. وقد وصف لها أيضاً حمّامات للرجلين بأملاح طبية. وسعر الماء المعدني ثلاثون كوبكاً، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة. لقد أخذت الوصفة من الطبيب، ووضعتها على الرف تحت الأيقونات، إذ لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بهذا البذخ، وما تزال راقدةً هناك. وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل، قائلاً إن عليها أن تستحم مرتين في اليوم، مرةً في الصباح ومرة في المساء. فكيف يكون في وسعنا أن نتبع هذا العلاج في مسكننا الفقير، بغير خادم، بغير أحد يساعدها، وليس عندنا لا ماء

ولا حوض؟ إن نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم - لم أذكر لك هذا من قبل - وهي تشعر في الليل بآلام شديدة في كل الجانب الأيمن من جسمها ولكن هل تصدق؟ إن هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا، وتمسك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا. ونحن نأكل بقدر ما تتيح لنا مواردنا الضئيلة أن نأكل، وما يصادف أن نلقاه. فهل تصدق أنها تختار لنفسها في كل مرة أسوأ قطعة من الطعام، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب؟ وكأن عينيها الملائكيتين تقولان حينذاك: «أنا لا أستحق حتى هذا. أنا أحرمكم من نصيبكم، وأنا عبء عليكم جميعاً». ونحن نساعدها ما وسعنا أن نساعدها، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناءً في سبيلها، وكأنها تقول: «أنا لا أستحق هذا! فما أنا إلا مقعدة بلهاء لا فائدة منها» أهي لا تستحق؟ هي؟ مع أنها هي التي تفتدينا عند الرب بطيبتها الملائكية! ألا إن الحياة لتصبح في بيتنا جحيماً بدونها، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التي تعرف كيف تقولها في اللحظة المناسبة! لقد استطاعت أن تليّن حتى فاريا! وإياك أن تظلم بربارا نيكولايفنا، إنها هي أيضاً ملاك.. هي ضحيّة... مظلومة هي أيضاً... لقد وصلت إلينا هذا الصيف وفي جيبها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من إعطاء دروس خاصة، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها إلى بطرسبرج، التي يجب أن تكون فيها في شهر سبتمبر (أيلول)، أي الآن. ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه في سدّ رمقنا. فبأي وسيلة يمكنها أن تعود الآن إلى بطرسبرج لإتمام دراستها. تلك هي المسألة. ثم إنها لن تستطيع أن تسافر، لأنها تعمل في خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة: تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة، وتصلح ما يحتاج إلى إصلاح، وترقع ما يجب ترقيعه،

وتغسل الثياب، وتنظف الارض، وتُرقد الأم في سريرها، والأم ذات نزوات تبكي لأيسر سبب، فهي مجنونة!.. وهاأنذا سأستطيع بهذه الروبلات المائتين أن أستخدم خادماً... هل تفهم يا ألكسي فيدوروفتش؟ سأستطيع أن أداوي المريضتين العزيزتين، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به إلى بطرسبرج، وسوف أشتري لحماً، فأحسِّن ما نصيبه عادةً من طعام. آه... يا رب السماء! ما أجمله من حلم!

أسعد أليوشا كثيراً أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هذا الفرح كله، وهنّأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة.

ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة:

- لحظةً يا ألكسي فيدوروفتش، لحظة أخرى! هل تعلم أنني أملك الآن أن أحقق أمنية إيليوشا؟ لسوف نشتري حصاناً وعربة. وسيكون الحصان أكحل. إن إيليوشا يصرُّ على هذا اللون. وسنسافر، كما وصفت له سفرنا أمس الأول. إنني أعرف في محافظة «ك» محامياً هو من أصدقاء الطفولة. وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقي هذا سيعيّنني كاتباً في مكتبه إذا أنا ذهبت إلى تلك المحافظة. من يدري؟ قد يستخدمني فعلاً... سأُقعد الأم إذاً في العربة، وسأقعد عليها نينوتشكا أيضاً، ثم يمسك إيليوشا بزمام الحصان فيجره، وأسير أنا على قدميّ إلى جانب العربة. وهكذا نرحل جميعاً... يا رب السماء! ليتني أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذي يدين لي به أحدهم هنا، إذاً لملكت من المال ما يكفيني حتى لهذه الرحلة!

صاح أليوشا يقول:

- ستملك ما أنت في حاجة إليه! سترسل إليك كاترينا إيفانوفنا من المال كل ما ستحتاج إليه. وأنا أيضاً عندي بعض المال، هل تعلم ذلك؟ خذ مني ما أنت في حاجة إليه، خذه مني كما يأخذ أخ من أخيه، كما يأخذ صديق من صديقه. وسترده إليّ في المستقبل... (ذلك أنك ستغتني، هذا مؤكد!) صدقني إذا قلت لك إن فكرة السفر إلى محافظة أخرى هي خير فكرة يمكن تخيلها! إن فيها خلاصك، وخلاص ابنك خاصةً. وأؤكد لك أن الإسراع أفضل شيء. سافر قبل حلول الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد. وستكتب إلينا من هناك، وسنظل أخوة... ليس هذا حلماً، ليس هذا حلماً البتة!

ودَّ أليوشا لو يعانقه وهو في غمرة الفرح هذه. ولكنه أمسك فجأةً حين نظر إليه. لقد مدَّ الرجل عنقه، وقدَّم فمه، شاحب اللون منقلب السحنة. إن شفتيه تختلجان، كأنما هو يهمس بشيء أو يحاول أن يتكلم. ولكن لم يخرج من فمه أي صوت، وظل يحرك شفتيه صامتاً. منظر غريب مقلق.

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا:

- ما بك؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع، محدقاً إلى أليوشا بنظرة غريبة شاردة، وقد بدا كإنسان يهمّ أن يهوي في فراغ، بينما شفتاه تصطنعان ابتسامة:

- ألكسي فيدوروفتش.. إنني.. أ.. أ.. نعم.. إنني أ...

ثم قال فجأة بهمس سريع، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شيء من تقطع:

- هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتي؟

- براعة؟

- نعم، براعة من نوع براعة الحواة!

كذلك أجاب الضابط المتقاعد في همس أيضاً. والتوى فمه إلى الجانب الأيسر، وضاقت عينه اليسرى، وظل يحدق في أليوشا دون أن يحول عنه عينيه، وكأنما انجذب إليه.

فهتف أليوشا مذعوراً كل الذعر:

- ولكن ماذا بك؟ أي براعة؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد:

- هذه.. هي براعة.. انظر!

قال ذلك ثم أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والإبهام من يمناه، ثم إذا هو يقبض عليهما فما يزال يدعكهما في قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقاً وقد أخذ منه الحنق كل مأخذ.

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب:

- فهل رأيت؟ هل رأيت هذه المرة؟

ثم رفع قبضة يده شاحب الوجه مرتعد الجسم، فرمى الورقتين المسحوقتين على الرمل.

وعاد يعول من جديد قائلاً وهو يشير إليهما بإصبعه:

- هل تراهما؟ إليك هما!..

ثم رفع قدمه اليمنى، فأخذ يدوسهما بحنق مسعور وحشي، وهو يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما:

- انظر ماذا أفعل بمالك، انظر ماذا أفعل به! انظر إليهما، ورقتيك...

ثم تراجع خطوة إلى الوراء، على حين فجأة، ووقف أمام أليوشا

منتصب القامة. كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء لا توصف.

وهتف يقول وهو يمد ذراعه:

- قل للذين أرسلوك أن ليفة الحمام لا تبيع شرفها!

ثم استدار فجأة، ومضى راكضاً. ولكنه ما إن قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا، وحرَّك له يده مودِّعاً. ثم ما إن قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف ملتفتاً نحو أليوشا مرة ثانية. كانت الابتسامة الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلها دموع. وبصوت مختلج تقطعه شهقات انتحاب، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين:

- ماذا كان يمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا؟

قال ذلك وانصرف راكضاً دون أن يلتفت مرة أخرى. تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق. وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله، حتى آخر لحظة، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميهما. إنه الآن يركض، دون أن يلتفت إلى الوراء ولو مرة. كان أليوشا على يقين من أنه لن يلتفت. ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه، ولا أن يجري وراءه ليدركه وكان يعرف السبب. حتى إذا غاب الرجل عن بصره، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين في الرمل، ولكن دون ان يصيبهما أي تمزق، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان. حتى إذا أزال عنهما ما نالهما من دعك، عاد فطواهما ودسهما في جيبه. ثم سار في طريقه ليبلغ كاترينا إيفانوفنا ثمرة مسعاه في إنفاذ ما عهدت إليه بإنفاذه.

الباب الخامس

ما للأمر وما عليه[12]

- 1 -

الخطوبة

إن السيدة خوخلاكوفا هي التي استقبلت أليوشا من جديد في الدهليز. كانت تبدو منهمكة جداً، فقد وقع حادث خطير: إن نوبة الهستيريا التي أصابت كاترين إيفانوفنا قد انتهت إلى إغماء أعقبه «ضعف فظيع وإعياء رهيب. لقد رقدت كاترين إيفانوفنا، وأغمضت عينيها، وأخذت تهذي، وارتفعت حرارتها. واستدعي الدكتور هرتسنشتوبه والعمّتين، فوصلت العمّتان، ولكن الطبيب تأخر وصوله. الجميع محتشدون الآن في غرفتها. إنهم ينتظرون قلقين خائفين. ما عسى يحدث؟ إنها في غيبوبة. آمل أن لا تكون قد أصابتها حمى دماغية!».

كانت هيئة السيدة خوخلاكوفا تدل على ذعر حق. فهي تصيح في كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع: «الأمر في هذه المرة خطير، خطير جداً!»، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شيء من خطورة. كان أليوشا يصغي إليها بمرارة. أراد أن ينهي إليها نتيجة المساعي التي قام بها، ولكنها كانت تقاطعه منذ أن ينطق بأول كلمة قائلة له: «ليس الآن» إن وقتها لا يتسع للاستماع إليه. وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند ليزا، واعدةً إياه أن تلحق به فيما بعد.

قالت له بما يشبه الهمس في أذنه مفضيةً إليه بسر:

- تصوّر يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش! لقد أدهشتني ليزا أشد الدهشة منذ قليل، ولكنها تبلغ من التأثير في قلبي أنني أغفر لها راضية. ما إن خرجت أنت حتى استبدّت بها ندامة صادقة جداً، لأنها فيما تزعم قد سخرت منك أمس واليوم. الحقيقة أنها لم تكن تسخر، فأنا أعرفها، وإنما هي مزحت مزاحاً. ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكي، فما وسعني إلا أن أدهش. لم يتفق لها أن ندمت يوماً حين كانت تسخر مني، سخرية لا خبث فيها على كل حال. وهي تسخر مني بغير انقطاع كما تعلم. أما الآن فالأمر خطير. لقد أصبح كل شيء خطيراً. إنها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسي فيدوروفتش، وما ينبغي لك أن تؤاخذها أو أن تستاء منها. أنا شخصيا أتساهل معها وأرأف بها لأنها ذكية جداً... ليتك تعلم كم هي لطيفة وذكية! ولقد ذكرت لي منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها، أنك كنت «صديق طفولتي الأكثر شأناً». الصديق الأكثر شأناً، هل تفهم؟ فأين مكاني أنا من نفسها إذن؟ إن لها في هذا المجال عواطف عميقة وذكريات حيّه. وهنالك خاصةً تلك العبارات وتلك الكلمات التي تجيد استعمالها، تلك التراكيب التي لا يتوقعها المرء! ذلك يخرج من فمها فجأة، ارتجالاً. قصة الصنوبر تلك مثلاً. لقد كان في حديقتنا شجرة صنوبر، أيام كانت ليزا صغيرة جداً. أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة إلى الآن، فما ينبغي أن نتحدث عنها بصيغة الفعل الماضي، ليست الأشجار بشراً يا ألكسي فيدوروفتش، إنها لا تتغير مدة طويلة. قالت ليزا منذ أيام: «ماما، إنني أتذكر شجرة الصنوبر هذه كأنها حلم، أي «sosna kak So sna». الحق أنها قالت لي ذلك بطريقة أخرى[13]. نسيت

الآن كيف قالت لي ذلك. المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة في ذاتها. ولكن ليزا بلغت من الطرافة والأصالة في لفظها أنني لا أستطيع أن أقلدها. ثم إن هذا كله قد خرج من رأسي. والآن، إلى اللقاء. إن هذه الأحداث قد قلبت نفسي رأساً على عقب، حتى لأخشى أن تذهب بعقلي. لقد أوشكت يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش أن أُجنَّ مرتين في حياتي. فاضطروا إلى معالجتي. اذهب إلى ليزا، وواسِها كما تجيد أنت ذلك أيما إجادة.

ثم صرخت تنادي ليزا وهي تقترب من الباب:

- ليزا! جئتك بألكسي فيدوروفتش الذي تظنين أنك أسأت إليه إساءة كبرى. إنه غير غاضب منك ولا عاتب عليك، أؤكد لك ذلك، بل إنه ليدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر!

- شكراً ماما! أدخل يا ألكسي فيدوروفتش.

دخل أليوشا الغرفة. إن ليزا تبدو مضطربة اضطراباً شديداً خجلى خجلاً قوياً، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين. كان واضحاً أنها تشعر بشيء من الخزى. وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالة، طفقت تتحدث في أمور لا شأن لها في نظرها، متظاهرةً بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة اهتماماً كبيراً. قالت:

- حدثتني أمي منذ برهة يا ألكسي فيدوروفتش عن المائتي روبل، وعن المهمة التي كلفت بها... لدى ذلك الضابط المسكين... وقد وصفت لي الإهانة الفظيعة التي أُلحقت به... رغم أن أمي لا تحسن سرد قصة من القصص، وإنما هي تخلط الأمور بعضها ببعض، وتُسقط في جميع الأحيان تفاصيل هامة... لقد تأثرت تأثراً شديداً، وبكيت. فقل لي الآن: هل أعطيته المبلغ وكيف تصرف هذا الإنسان الشقي المعَذَّب؟

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضاً بأن إخفاقه في إعطاء النقود هو ما يشغل باله:

- المشكلة هي أنني لم أعطه المبلغ، تلك قصة طويلة!

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يشيح عينيه في ضيق وحرج، ويحاول مثلها تماماً أن يتحدث في أمور ليست بذات بال. وجلس أليوشا قرب المائدة وأخذ يروي الحكاية، فما إن قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه تماماً، وحتى أسر انتباه ليزا. كان يتكلم وهو تحت وطأة الانفعال الذي ما يزال قوياً في نفسه، والتأثير الهائل الذي تركه الحادث القريب فيه. وقد عرف كيف يروي القصة رواية أمينة صادقة، جذابة أخاذة. كان قد اعتاد في الماضي، بموسكو، أن يجيء إلى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة، فيقص عليها حادثاً وقع له منذ وقت قصير، أو يحدثها عن قراءاته، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنيه الأولى، فكان يتفق لهما في كثير من الأحيان أن يلفقا أحلاماً مشتركة أو أن يخترعا حكايات هي في الغالب مضحكة خيالية غريبة. وها هما يستعيدان الآن جو موسكو، ويشعران في نفسيهما باستيقاظ مناخ الحياة التي قضياها هنالك قبل سنتين. اضطربت ليزا من رواية هذه القصة اضطرابا قوياً. لقد عرف أليوشا كيف يرسم للصبي إيليوشا صورة حارة. فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد، ووصف كيف داس ذاك الرجل المسكين الورقتين النقديتين، هتفت ليزا تقول وقد استبدّ بها انفعال عنيف:

- ألم تعطه المال إذاً؟ أتركته ينصرف؟ أوه! يا رب! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه وتتكلّم معه...

- لا يا ليزا، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه. ذلك أفضل...

قال أليوشا ذلك وهو ينهض من كرسيه، وأخذ يسير مهموماً في الغرفة.

- هذا أفضل؟ كيف يكون هذا أفضل؟ لسوف يهلكون الآن فقراً!

- لن يهلكوا، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال. سيقبلهما في الغد حتماً.

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير في الغرفة مطرقاً مفكراً:

- نعم... لن يعارض في الغد... هذا أكيد...

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال:

- لقد ارتكبت خطأ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة.

- أي خطأ؟ ولماذا تتصور أنه ستكون له ثمرات طيبة؟

- اسمعي. إن هذا الرجل له طبع ضعيف وجل. لقد أرهقه القدر، ولكن له قلباً طيباً. حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأةً بأنه أُهين فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف، ثقي بهذا! وأحسب أنني استشف الآن الأسباب الكثيرة التي جعلت شعوره يُجرح... وكان ذلك أمراً لا بد منه. هكذا... فهو أولاً قد أسرف في إظهار ابتهاجه بهذا المال أمامي، ولم يكتم سعادته في اللحظة الأولى. فلا بد أنه شعر بعد ذلك بذلّة من استجابته تلك السريعة التي لم يستطع أن يسيطر عليها. فلو أنه اغتبط اغتباطاً أقل، لو أنه امتنع عن اظهار هذا الاغتباط، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس لأخذ المال، لقبل الوضع بسهولة أكبر، ولما رفض هذه المساعدة. لقد أسرف في الصدق والإخلاص، وذلك هو ما يجرح شعوره. آه يا ليزا! إنه إنسان طيب صادق، وهذا يصعّب الأمور دائماً في مثل هذه الأحوال! لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكدود متعجل. وكان يضحك ضحكة صغيرة أيضاً... يضحك

أو يبكي... لقد كانت ضحكاته أقرب إلى البكاء... كان يبكي حماسةً... حدثني عن ابنتيه... عن الوظيفة التي عُرضت عليه في مدينة أخرى... لقد فتح لي قلبه، وأسرَّ لي بذات نفسه، وأفاض في الإفصاح عن عواطفه فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي وعار... ثم إذا هو يشعر نحوي بكرهٍ على حين فجأة. إنه واحد من أولئك الناس المساكين الذين يسرفون في الإحساس بالخجل والعار. لقد شعر بالذل من أنه سارع يعدّني صديقاً، وأنه استسلم لي بغير مقاومة. في بيته كان قد هدَّدني وتوعَّدني تقريباً، ثم ها هوذا حين تلقى المال يسارع فيوشك أن يرتمي على عنقي. لقد ودَّ لو يعانقني، وكانت يداه تلامساني في كل لحظة. فلهذه الأسباب جميعاً أحسَّ أنه أذلَّ نفسه أمامي؛ ومما زاد الطين بلةً أنني ارتكبت تلك الخطيئة، أنني اقترفت تلك الغلطة الخطيرة: لقد صرَّحت له فجأة بأنه سيُمنح مزيداً من المال إذا كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة إلى مدينة أخرى، حتى لقد عرضت عليه أن أسهم أنا في ذلك بمالي إسهاماً كبيراً. ذاك ما فاجأه. لقد تساءل: لماذا أقحم نفسي في مساعدته أنا أيضاً؟ يجب أن تعلمي يا ليزا أن المُذَلّين أمثاله لا يحبون أن يعتبر جميع الناس أنفسهم محسنين إليهم... سمعت هذا الرأي كثيراً، ولا سيما من الشيخ زوسيما. لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة، ولكن أتيح لي أن ألاحظها بنفسي مراراً. ثم إنني لو كنت في مكانهم لكان ردّي كردِّهم أشعر بذلك في ذات نفسي. يجب أن نتصور خاصةً أنه رغم جهله حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال أخيراً، كان يشعر بذلك شعوراً غامضاً مبهماً. هذا أكيد. ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله إلا لأنه كان يحسّ هذا الإحساس الغامض... على كل حال، مهما تكن هذه الخاتمة داعيةً إلى الأسف والحسرة، فما ينبغي أن نقلق

منها، بل إنني لعلى يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل، وأن الأمور هي الآن علي خير ما يرام...

- لماذا ليس هناك ما هو أفضل منه، لماذا؟

كذلك هتفت ليزا وهي تلقي على أليوشا نظرة دهشة.

فقال أليوشا:

- لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه، لو أنه أخذ المال، إذاً لظل يبكي في بيته من الذل بعد ساعة أو ساعتين، ذلك أمر محتوم، ولندم على ما فعل ولجاءني مع الغد حانقاً ساخطاً ليرمي بهما في وجهي، أو ليدوسهما بقدميه كما فعل منذ قليل. أما وقد صنع ما صنع، فسيشعر بعد الآن بالكرامة والكبرياء، والظفر، رغم علمه بأنه قد «ضيَّع نفسه بفعلته». يترتب على ذلك أنه لن يكون هنالك شيء أسهل من ردّه إلى قبول هاتين المائتين من الروبلات في الغد، ما دام قد برهن على تمسكه بالشرف برفض المال ودَوْسه... ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أنني سأردهما إليه في الغداة من جديد. وهو في حاجة رهيبة إلى هذه المساعدة المالية، ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء، فإنه سيظل يفكر طوال النهار في المعونة الكبيرة التي فقدها. وسيكون أمره في الليل أدهى، فإن الندم والحسرة سيقضّان مضجعه وسيعذبانه في أحلامه، فما أن يطلع الصبح حتى يكون ميالاً إلى المجيء إليّ معتذراً. وفي تلك اللحظة إنما سأذهب إليه أنا، فأقول له معترفاً: «أنت إنسان كريم وشهمٌ، وقد برهنت على ذلك، فاقبل الآن هذا المال، واغفر لي وأعفُ عني». وسوف يقبل المال عندئذ، ما في ذلك ريب!

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه النشوة. وصفقت ليزا يديها إحداهما بالأخرى، وقالت:

- هذا صحيح جداً! هذا واضح جداً! فهمت كل شيء فهماً تاماً! أوه أليوشا، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها؟ ما تزال في ريعان الشباب ثم تدرك ما يجري في النفس الإنسانية هذا الإدراك العميق... ما كان لي أنا أن أستطيع ذلك...

تابع أليوشا كلامه يقول وهو في غمرة الحماسة:

- الأمر الأساسي الآن هو أن نقنعه بأننا سنعامله على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا. يجب أن يشعر بأننا لا نعامله على قدم المساواة فحسب، بل على قدم التفوق أيضاً...

- «على قدم التفوق» هذا تعبير رائع يا ألكسي فيدوروفتش، ولكن هل شرحته لي!

- أقصد... الحق أنني لم أحسن الإفصاح... لا... ليس الأمر أمر قدم التفوق... ولكن سيان...

- طبعا... سيان... أنت على حق! اغفر لي يا أليوشا، يا عزيزي أليوشا... لقد كنت حتى الآن لا أكاد أحترمك كثيراً، هل تعلم؟ أقصد... كنت أحترمك، ولكن على قدم المساواة، أما بعد الآن فسأحترمك على قدم التفوق...

أردفت تقول فوراً بحرارة:

- لا تؤاخذني يا صديقي العزيز إذا أنا تفكهت وتندَّرت قليلاً. أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك، ولكن أنت، أنت... قل لي يا ألكسي فيدوروفتش، ألا تظن أن في استدلالاتنا، أو قل في استدلالاتك أنت - لا في استدلالاتنا نحن - شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين، شيئاً من الاحتقار له؟ ألا نضع أنفسنا فوقه بتشريح عواطفه هذا وباقتناعنا منذ الآن بأنه سيقبل أخذ المال؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة، كأنه كان ينتظر هذا السؤال:

- لا يا ليزا، ليس في هذا شيء من احتقار البتة. لقد ألقيت على نفسي هذا السؤال ذاته وأنا عائد إلى هنا. فكري قليلاً: كيف يمكننا أن نحتقره ونحن جميعاً مثله، كيف يمكننا أن نحتقره والبشر جميعاً مثله؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذ المسكين، وهبينا خيراً منه الآن، فإننا لن نبقى خيراً منه إن وُضعنا في ظرف كالظرف الذي هو فيه... لا أستطيع أن أقطع برأي فيما يتصل بك أنت يا ليزا، ولكنني على يقين من أن نفسي صغيرة في كثير من النواحي. أما ذلك الضابط فليست نفسه صغيرة، بل بالعكس، مرهفة جداً... لا يا ليزا، صدقيني، ليس في موقفنا هذا أي احتقار ولا ازدراء! هل تعرفين ماذا علمني شيخي مرة؟ قال لي: يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى...

- قل لي يا ألكسي فيدوروفتش، قل يا صديقي! ما رأيك في أن ننذر نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى!

- أوافق يا ليزا، أتمنى. ولكنني لست متأهباً بعد كل التأهب. إن صبري ينفد في بعض الأحيان فأضيق ذرعاً. وفي أحيان أخرى أراني غائباً فما ألاحظ شيئاً. أما أنت فشأنك شأن آخر.

- لا أصدق من هذا الكلام شيئاً! آه يا ألكسي فيدوروفتش! ما أعظم سعادتي!

- ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا ليزا!

- ألكسي فيدوروفتش، أنت طيب طيبة خارقة. ولكنك تتصرف في بعض اللحظات كمتحذلق قليلاً... ومع ذلك، في واقع الأمر، فلست كذلك أبداً... اقترب من الباب، في رفق وهدوء، وتأكد من أن ماما ليست تتنصت علينا.

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبي. فاتجه أليوشا نحو

الباب، فشقه قليلاً، ثم عاد فقال إن أحداً لا يتجسس عليهما.

وتابعت ليزا كلامها تقول وهي تزداد احمراراً:

- اِقترب مني يا أليوشا مزيداً من الاقتراب... هات يدك... هكذا... يجب أن أبوح لك بسر كبير: إن الرسالة التي بعثت بها إليك أمس لم تكن مزاحاً، بل جداً...

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها. كان واضحاً أنها تشعر من هذا الاعتراف بحياء شديد. وفجأة، أمسكت يد أليوشا فلثمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة.

هتف أليوشا يقول:

- أوه! ليزا! حسن منك هذا! ولقد كنت مقتنعاً كل الاقتناع بأنك كنت جادة في رسالتك.

- كنت مقتنعاً؟ أهذا كلام؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا، ولكن دون أن تتركها، وقد احمرّ وجهها احمراراً شديداً مرة أخرى، وضحكت ضحكة خفيفة سعيدة.

- ألثم يده فيقول «حسن منك هذا»!

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضاً.

تمتم يقول بخراقة، وهو يحمرُّ أيضاً:

- لشد ما أحب أن أرضيك يا ليزا، ولكنني لا أعرف كيف أصل لهذا ولا كيف أتدبره.

- أليوشا، عزيزي، أنت فاتر ووقح. أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء؟ لقد تفضل فاختارني زوجةً له ثم ها هوذا هادىء النفس! كان مقتنعاً بأنني جادة في رسالتي، لا مؤاخذة! ولكن هذه وقاحة، وقاحة...

سألها أليوشا ضاحكاً:

- أكان عيباً إلى هذا الحد إذاً أنني كنت مقتنعاً بذلك؟

فقالت له ليزا وهي تلقي عليه نظرة حنونة رقيقة سعيدة:

- أوه! أليوشا! بالعكس... كان ذلك منك حسناً جداً، حسناً جداً جداً.

وكان أليوشا ما يزال ممسكاً يدها بيده فما هي إلا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها في فمها.

هتفت ليزا تسأله:

- ما هذا أيضاً؟ ماذا دهاك؟

كان أليوشا قد انذهل تماما. قال:

- اغفري لي... إن كنت قد أخطأت... لعلني... حقاً إنها لحماقة رهيبة... لقد أخذت عليَّ أنني بارد، لذلك... قبلتك... ولكنني أدرك الآن أن هذا كان حماقة مني...

انفجرت ليزا ضاحكة، وأخفت وجهها بيديها. ثم لم تملك أن تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها: - «وأنت في مسوح الراهب!» ثم توقفت عن الضحك فجأة، وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة بل قاسية، وقالت:

- إن علينا أن ننتظر قليلاً فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا. نحن لا نعرف حتى الآن كيف نفعل ذلك، لا أنا ولا أنت. لا بد لنا أن ننتظر زمناً طويلاً أيضاً.

بهذا ختمت كلامها فجأة. ثم أردفت بعد لحظة تقول:

- ولكن اشرح لي: ما الذي حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلي هي فوق ذلك كسيحة، في حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء والتعقل والفطنة؟.. أوه! أليوشا، أنا سعيدة جداً، لأنني

لا أستحقك أبداً!

- لا تقولي مثل هذا الكلام يا ليزا. سوف أترك الدير تماماً بعد بضعة أيام. فإذا عشت في الدنيا فسيكون عليَّ أن أتزوج، أنا أعرف ذلك. ثم إنه هو الذي أمرني بهذا. فأين عسى أجد امرأة خيراً منك... ومن عسى يريدني سواك؟ لقد فكرت في كل شيء.. أنت أولاً تعرفينني منذ الطفولة. وأنت ثانياً تملكين مزايا كثيرة لا أملكها. نفسك أقرب إلى المرح من نفسي. وأنت خاصةً أكثر براءة مني. فأنا قد عرفت حتى الآن أشياء كثيرة... أوه! أنت لا تعلمين هذا! أنا أيضاً كارامازوف! أي ضير في أن تضحكي وأن تمزحي دائماً وأن تسخري حتى مني؟ بالعكس: اسخري ما شاء لك هواك أن تسخري.. إنني لأسعد بهذا... إنك تضحكين كطفلة صغيرة، إنك شهيدة.

- شهيدة؟ ماذا تريد أن تقول؟

- نعم يا ليزا. انظري مثلاً في ذلك السؤال الذي ألقيته منذ لحظات حين قلت: أليس في نفسنا شيء من احتقار لذلك الضابط المسكين الذي نشرِّح قلبه؟ تلك فكرة جديرة بالشهداء يا ليزا... لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع من القلق قادر في رأيي على أن يتألم كثيراً... لا شك أنك قلَّبت معاني كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسي...

قالت ليزا بصوت أوهنته السعادة:

- أليوشا، ناولني يدك! لماذا تسحبها دائما؟ قل لي يا أليوشا: أي زي تنوي أن ترتدي حين تترك الدير؟ لا تضحك، ولا تغضب، ذلك أن هذا الأمر يهمني كثيراً.

- لم أفكر بعد في الزي الذي سأرتديه يا ليزا ولكنني أريد أن ألبس ما يرضيك.

قالت ليزا:

- أحب أن ترتدي سترةً من مخمل أزرق قاتم، وصديرة من «بيكيه» بيضاء، وقبعة رمادية من جوخ طري... قل لي الحقيقة: لقد صدَّقتَ في مساء أمس أنني لا أحبك، حين تنكرتُ لرسالتي، أليس كذلك؟

- لا... لم أصدّق.

- أوه! ألا إنك لفتى لا سبيل إلى إصلاحه! إنك لا تطاق ولا تُحتمل هل تعلم ذلك؟

- كنت أعرف أنك... تحبينني، ولكنني تظاهرت بأنني أعتقد بأنك لا تحبينني... وذلك لأجعلك... أكثر ارتياحاً...

- هذا شر وأدهى! ولكن لا...

هذا أدهى وأفضل معاً، في آن! إنني أحبك حباً رهيباً يا أليوشا! قلت لنفسي في هذا الصباح وأنا أنتظر زيارتك: «سأطلب منه مرة ثانية أن يردَّ إليّ رسالتي، فإذا أخرجها من جيبه بلا مقاومة فمدَّها إليّ (كما يمكن توقع ذلك منه) فإنه يكون فتى أبله لا يحبني اطلاقاً ولا يشعر بشيء ولا يستحق حبي... وأكون أنا قد هلكت». غير أنك تركت الرسالة في الدير، فردَّ هذا إليّ شيئاً من شجاعتي. إنك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أنني قد أطلبها منك، وأنت لا تريد أن تردها، أليس كذلك؟ قل! نعم؟

- أوه! ليزا! كلا... الرسالة معي الآن، ولقد كانت معي من قبل، هي هنا، في هذا الجيب. انظري!

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكاً، وأظهرها عليها من بعيد، ثم أضاف:

- اعلمي مع ذلك أنني لن أردها إليك. انظري إليها من بعيد.

- كيف هذا؟ أكذبت إذاً حين طالبتك بها؟ أتكذب وأنت راهب؟
فقال أليوشا نعم أكذب وهو يضحك:
- مسلماً باتهامها! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردَّ إليك الرسالة.
- ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد: - هذه الرسالة عزيزة عليَّ إلى أقصى حد. سأحتفظ بها ما حييت، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها مني!
كانت ليزا شاخصةً إليه ببصرها مأخوذة مفتونة. ثم قالت له هامسة:
- أليوشا! هيَّا انظر ألا تتنصت علينا ماما وراء الباب؟
- طيب يا ليزا، سأنظر ما دمت تريدين ذلك. ولكن أليس الأفضل أن لا نحاول التثبت من هذا؟ لماذا نظن في أمك هذا الظن؟ لماذا نتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه؟
فقالت ليزا مستاءةً وقد احمرّ وجهها احمراراً شديداً:
- أي سماجة؟ فيم الكلام عن السماجة؟ هل من السماجة أن تراقب أمٌّ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها؟ إن من واجب الأم أن تفعل هذا مع ابنتها. وليس في عملها ذاك أي إخلال بقواعد اللياقة وأصول الأدب. كن على يقين يا ألكسي فيدوروفتش من أنني حين سيكون لي ابنة أنا أيضاً، فلن يفوتني أن أتجسس عليها في كل مناسبة!
- صحيح؟ ولكن هذا شر يا ليزا!
- لماذا يكون هذا شراً؟ أي ضير فيه؟ لو قد تجسست هذا التجسس على حديث عادي يجري في المجتمع، إذاً لكان ذلك مني ضعةً وحقارة بدون ريب. أما هنا فالأمر مختلف كل الاختلاف. هنا

فتاة مختلية بشاب. . . اسمع يا أليوشا: أحب أن أقول لك منذ الآن إنني سأراقبك أنا أيضاً متى تمت خطوبتنا، وسأفض بريدك، وأقرأ جميع رسائلك. . . اعلم هذا. ها أنذا أبلغك منذ الآن. . .

- موافق. . . ما دمت تريدين ذلك. . . ولكن هذا ليس حسناً، صدقيني. . .

بهذا تمتم أليوشا. فقالت ليزا:

- أوه! هذا الاحتقار! أليوشا، صديقي، لا نتشاجرن منذ أول يوم. إنني أؤثر أن أعترف لك بالحقيقة: أنا أعرف أن التجسس على الناس معيب جداً. لقد أخطأت أنا طبعاً، وأصبت أنت. ولكنني سأراقبك مع ذلك.

فقال أليوشا ضاحكاً:

- راقبيني، راقبيني. . ولن تكتشفي أشياء كثيرة، أقول لك ذلك منذ الآن.

- أليوشا، هل ستطيعني؟ تلك أيضاً مسألة يجب أن نسوّيها سلفاً.

- سأطيعك يا ليزا، سيسرّني جداً أن أطيعك، ولكن ليس في الأمور الأساسية. في الشؤون الهامة، سأعمل بما يمليه عليَّ ضميري، حتى ولو خالفتني.

- هذا مفهوم، وأنا أيضاً، ألا فاعلم يا أليوشا أنني مستعدة من جهتي لأن أطيعك لا في الشؤون الأساسية فحسب، بل في كل شيء، وفي كل وقت، مدى الحياة. . . أعاهدك على هذا منذ الآن. وإذا خضعت لك، فإنني أخضع راضية سعيدة فرحة! (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة). وإني لأحلف لك أيضاً أنني لن أراقبك أبداً، لن أراقبك مرة واحدة، لا ولن أقرأ رسائلك قط، في يوم من الأيام.

ذلك أنك على حق، وأنني على خطأ. أعرف أن رغبة رهيبة في مراقبتك سوف تتأجج في نفسي، ولكنني سأحبس هذه الرغبة، لأن هذا معيب في نظرك. ستكون لي بمثابة العناية الإلهية. . . اسمع يا ألكسي فيدوروفتش: لماذا أنت حزين هذا الحزن كله في هذه الآونة الأخيرة، أمس واليوم؟ أنا أعرف أن هناك أنواعاً من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك، ولكني لاحظت فيك حزناً خاصاً. . . أهو ألم سري؟

قال أليوشا بصوت مكبوح:

- نعم يا ليزا، هو حزن سري. إنني أرى أنك تحبينني حقاً ما دمت قد أدركت ذلك.

سألته ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة:

- ما سبب حزنك؟ هل أستطيع أن أعرفه؟

فأجابها أليوشا محرَجاً:

- سأذكره لك يا ليزا. . . ولكن فيما بعد. إذا حدثتك الآن عن سبب حزني، فلن تفهمي. ثم إنني لن أحسن شرحه كما ينبغي.

قالت ليزا:

- أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذي يعذبك علاوة على آلام أخرى، أليس كذلك؟

قال أليوشا حالماً مفكراً:

- نعم، هناك أخواي أيضاً.

قالت ليزا فجأة:

- أنا لا أحب أخاك إيفان يا أليوشا.

استقبل أليوشا هذا التصريح بشيء من الدهشة، ولكنه تابع كلامه يقول:

- أخواي يسيران إلى الضياع، وكذلك أبي. وهم يجرُّون إلى الشقاء كائناتٍ أخرى. إنها «القوة الغامضة الخفيّة الكامنة في أفراد آل كارامازوف»، كما قال الأب بائيسى في الآونة الأخيرة... هي قوة عارمة، أصيلة لا يمكن السيطرة عليها، حتى إني لست واثقاً من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة... ولكنني لا أعلم أنني واحد من آل كارامازوف، أنا أيضاً... أنا في الظاهر راهب. فهل أنا راهب حقاً يا ليزا؟ لقد قلت منذ هنيهة إنني راهب...

- نعم قلت ذلك..

- راهب... ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله...

- أأنت لا تؤمن بالله؟ ماذا دهاك؟ - كذلك سألته ليزا محاذرة بصوت خافت. ولكن أليوشا لم يرد. إن هذا القول الذي أفلت من لسانه يعبِّر عن فكرة غامضة تثوي قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفسه أن يستبينها، ولكنها كانت تعذبه ما في ذلك ريب. وتابع أليوشا كلامه:

- وفوق ذلك كله، هذا هو يموت... إن الإنسان الذي أعده خير إنسان في هذا العالم سيبارح الأرض. آه! ليزا! لو علمت مدى تعلقي بهذا الإنسان، ومدى شعوري بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له!.. سوف أكون بعد اليوم وحيداً... سأجيء إليك كثيراً يا ليزا... لن نفترق بعد الآن...

- نعم سيظل كل منا قرب الآخر. سنكون متحدين مدى الحياة، متحدين إلى الأبد... أليوشا، قبّلني الآن... أسمح لك الآن بأن تقبلني.

قبلها أليوشا.

- والآن إذهب. كان المسيح معك! (قالت ذلك وهي ترسم عليه

إشارة الصليب.) أدركه هو قبل أن يموت. الآن أفهم أنني أضعت لك وقتاً ثميناً. سأصلي له ولك اليوم. أليوشا، سنكون سعيدين، سنكون سعيدين، أليس كذلك؟

- أعتقد يا ليزا.

لم ير أليوشا، حين خرج من عند ليزا، أن من الضروري أن يذهب أولاً إلى السيدة خوخلاكوفا، وإنما تأهب لمغادرة المنزل دون أن يودعها. ولكنه ما إن فتح باب البيت وخطا خطوة على السلَّم حتى انبجست السيدة خوخلاكوفا أمامه. فأدرك أليوشا فوراً أنها كانت تترقب انصرافه.

- هذا فظيع يا ألكسي فيدوروفتش! هذه أمور صبيانية، هذه سخافات وحماقات. آمل أن لا تحمل أقوال ابنتي على محمل الجد، وأن لا تهدهد أوهاماً وأحلاماً! يا للحماقة! يا للحماقة! يا للحماقة! كذلك انهالت عليه مردّدة. فقال لها أليوشا:

- لا تقولي هذا الكلام لها على الأقل، وإلا اضطربت اضطراباً شديداً وساءت حالها كثيراً.

- هذا أخيراً كلام متزن يبرهن لي على أنك شاب عاقل. هل أفهم من كلامك هذا أنك إنما وافقتها إشفاقاً على حالتها، حتى لا تثير بمعارضتك حنقها؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة:

- لا، إطلاقا بل كنت جاداً في حديثي معها كل الجد.

- لا شأن للجد هنا. هذا شيء لا يمكن تصوره، لا يمكن تخيله! اعلم أولاً أنني لن أستقبلك بعد اليوم في منزلي، واعلم ثانياً أنني سأسافر من هذه المدينة مبتعدة بابنتي. هل فهمت؟

قال أليوشا:

- لِمَ هذا كله؟ إنما الأمر أمر مشروع ما يزال تحقيقه بعيداً جداً. لا بد أن ننتظر سنة ونصفاً على الأقل.

- لعلك على حق يا ألكسي فيدوروفتش. فإلى ذلك الحين يتسع الوقت للتشاجر معها والانفصال عنها مائة مرة. آه... ما أشقاني! ما أشقاني! صحيح أن هذا كله صبيانيات، ولكنني صعقت حقاً. أنا الآن في موقف فاموسوف في آخر مشاهد المسرحية الهزيلة. أما تشاتسكي فأنت، وأما صوفيا فهي(14). انظر إلى هذا التطابق. لقد رابطت على السلَّم لأنتظرك. وفي تلك المسرحية الهزلية حدثت جميع المصائب على السلم أيضاً. سمعت كل شيء. وتجلدت تجلداً شديداً حتى أستطيع أن أسيطر على نفسي. هذا هو إذاً سرُّ الأرق الرهيب في الليل وسر نوبات الهستيريا بالأمس! البنت عاشقة. ولم يبق للأم إلا أن تموت! هو قبري إذاً يهيَّأ! أجب عن سؤالي الثاني الآن وهو أهم: ما تلك الرسالة التي كتبتها إليك؟ أرنيها فوراً! اصرّ على ذلك فوراً!

- لا داعي لذلك، لا تلحّي. والأفضل من هذا أن تقولي لي كيف حال كاترين إيفانوفنا الآن. إنني أحرص على معرفة ذلك.

- ما زالت تهذي. لم تستردَّ حواسها بعد. وعمّتاها معها، ما تنفكان تتفجعان وتئنان وتصطنعان مظاهر الأبهة. أما الدكتور هرتسنشتوبه فقد وصل، ولكنه بلغ من الذعر أنني أصبحت لا أعرف ماذا يجب عليَّ أن أعمل لأهدىء روعه. حتى لقد خطر ببالي أن أستدعي طبيباً له. قد نقلوه إلى بيته في عربتي، ثم ها أنذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة هذه الرسالة، تتمة للشقاء والبلاء! صحيح أن هناك سنة ونصف... ولكنني أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك، أستحلفك بشيخك المحتضر، أن تريني هذه الرسالة يا

ألكسي فيدوروفتش. أرني الرسالة، أرنيها أنا، أنا، أم ليزا! امسكها بأصابعك إذا شئت، فلن آخذها، وإنما أقرؤها من بعيد.

- لا يا كاترين أوسيبوفنا، لن أريك الرسالة. لا جدوى من الإلحاح. لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لي هي بذلك. سأعود غداً، فإذا شئت ناقشنا جميع المشاكل. أما الآن فإلى اللقاء!

قال أليوشا ذلك، وهبط السلَّم راكضاً، فخرج إلى الشارع.

– 3 –

قيثارة سمردياكوف

كان يغذّ الخطى، فلم يكن لديه وقت. حين ودَّع ليزا كانت قد برقت في ذهنه فكرة عن الطريقة التي يستطيع بها أن يفاجىء أخاه ديمترى الذي كان واضحاً أنه يحاول أن يتجنب لقاءه. الوقت متأخر. هي الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً. كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود إلى الدير، إلى شيخه «العظيم» المحتضر، ولكن حاجته إلى رؤية أخيه ديمترى مرة أخرى قد تغلبت أخيراً على كل شيء، : إن إحساسه بوشوك وقوع كارثة، بوشك حدوث أمر رهيب، يرسخ في نفسه مزيداً من الرسوخ كلما انقضت الساعات. أما ما هي تلك الكارثة التي ستقع، وما هو الذي يريد أن يقوله لأخيه ديمترى؟ فإن ذلك شيء قد لا يستطيع في تلك اللحظة أن يوضحه حتى لنفسه. «اذا مات شيخي المحسن إليّ أثناء غيابي، فلن ألوم نفسي في أقل تقدير، مدى الحياة، على أنني كان في وسعي أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت أن أفعل ذلك، وأغفلت واجبي وأسرعت أعود إلى مسكني بأقصى سرعة. وإني إذ أفعل الآن ما أفعل إنما أتبع أوامر معلمي...».

كانت خطته هي أن يعثر على ديمترى فجأة، متسللاً إلى الحديقة من خلال السياج الذي سبق أن تخطاه أمس داخلاً إلى الكوخ. وكان

يقول لنفسه: «فإن لم أجده، فسأختبىء هناك دون أن أنبىء لا أهل الدار ولا توما، ثم أنتظر هنالك حتى المساء إذا وجب الأمر. فإذا كان ينوي أن يترقب جروشنكا كما فعل أمس، فربما جاء إلى هذا الكوخ...» ولم يفكر أليوشا طويلاً في خطته بجميع تفاصيلها، ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفيذ فوراً، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع إلى الدير في ذلك اليوم...

وقد جرى كل شيء بغير عائق. تخطى السياج في موضع غير بعيد عن الموضع الذي تخطاه فيه أمس، وتسلل خفية إلى الكوخ. وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد. ذلك أن من الجائز أن يكون أهل الدار وتوما (في حالة وجوده بالدار) منحازين إلى صف دمتري، فقد يمنعونه إذاً من دخول الحديقة، أو قد يبلغون دمتري وصوله في الوقت المناسب، تنفيذاً لتعليمات دمتري نفسه. لم يكن في الكوخ أحد. جلس أليوشا في مكان الأمس وانتظر. ونظر إلى الكوخ فبدا له أكثر تداعياً مما في اليوم السابق، وأحدث في نفسه شعوراً بالشقاء. ولكن النهار كان مضيئاً مشمساً كما كان يومَ زيارته الأولى. وعلى المائدة الخضراء تُرى علامة مستديرة خلّفها قدح الكونياك الذي لعله انسكب أمس. وساورت أليوشا خواطر تافهة لا صلة لها بالظروف الراهنة، كما يحدث عامة أثناء انتظار مضجر. تساءل مثلاً: لماذا جلس في المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس، ولم يجلس في مكان آخر. وتملّكه شيئاً فشيئاً حزن كبير مردُّه إلى غموض المجهول المثير للقلق. وبعد أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك، سمع ألحان قيثارة تنطلق قريبة منه. لا شك أن أحدا كان متلبثاً في الغابة الصغيرة على مسافة عشرين خطوة في أكثر تقدير، أو أن أحداً وصل إلى ذلك المكان منذ برهة قصيرة. وتذكر أليوشا فجأة

أنه حين ترك أخاه أمس، وابتعد عن الكوخ قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكة خضراء ريفية قديمة غائرة في الأدغال. فهنالك إذاً لا بد أن يكون قد جلس الواصل أو الواصلون. ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون؟ وهذا رجل ينطلق في تلك اللحظة مغنيا أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثارة (إن الصوت صوت مترقق من طبقة التينور، عاميُّ النبرات):

بقوة عظيمة لا تغلب

إلى الجميلة انجذب[15]

رفقا بنا يا رب

بي وبها يا رب

بي وبها يا رب

بي وبها يا رب

وصمت الصوت ذو التثنيات العامية. وهذا صوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً في غنج ودلال:

- لماذا لا تجيء الينا إلا نادراً يا بافل فيدوروفتش؟ أأنت تحتقر صحبتنا؟

فقال صوت الرجل في تأدب، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئاً من ارادة تأكيد الرصانة والوقار:

- لا... لا...

كان واضحاً أن الرجل مسيطر على الموقف، في حين أن المرأة تداعبه. قال أليوشا لنفسه: «ولكن هذا سمردياكوف! هذا صوته على الأقل. أما المرأة فأتخيل أنها ابنة صاحبة الدار، التي رجعت من موسكو في الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل، والتي تجيء كل يوم إلى مارفا أجناتفنا التماساً لشيء من حساء...».

وعاد صوت المرأة يقول:

- إنني أعبد الأشعار، ولا سيما إذا كانت متسقة متناغمة. لماذا توقفت عن الغناء؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه:

تاج الملوك هين في نفسي

ما دمت أحظى بصديقة أنسي

رفقا بنا يا رب

بي وبها يا رب

بي وبها يا رب

بي وبها يا رب

قال صوت المرأة:

- غنّيتها في المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن. كنت في المرة الماضية تقول: «صديقة أنسي العذبة»، فكان ذلك أرق عاطفة. هل نسيت؟

فقال سمردياكوف بلهجة قاطعة:

- ما الأشعار إلا سخف وحماقة!

- أوه! لا . . . أنا أحب الأشعار كثيراً.

- الشعر هزل لا جد. إقضي في الأمر بنفسك: من ذا الذي يتكلم في هذا العالم مقفّياً؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً، حتى بأمر صادر عن السلطات مثلاً، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها. لا . . . صدقيني يا ماريا كوندراتيفنا: ما الشعر إلا كذب وتصنّع!

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلاً وقد ازداد غنجاً ودلالاً:

- ما أذكاك! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافة؟

- كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك، وأن أصبح أوسع ثقافة وأغزر علماً، لو أن القدر لم يحاربني منذ المهد. كان يمكنني أن أقتل في مبارزة بالمسدس ذلك الذي قد يصفني بأنني امرؤ جلف لأنني ليس لي أب، ولأن أمي امرأة نتنة[16]. لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو، حيث شاع سر مولدي بفضل جريجوري فاسيلفتش. إن جريجوري فاسيلفتش يعيب عليَّ تمردي على ميلادي. وقد قال في معرض حديثه عن أمي: «لقد مزقت لها أحشاءها». إنني أسلِّم بذلك، ولكنني كنت أؤثر أن أُقتل في بطنها على أن أجيء إلى هذا العالم. إن الناس يتناقلون في السوق (وقد ظنت أمك، لقلة لباقتها، أن من واجبها أن تقول لي ذلك أيضاً) إن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر، وإن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام. وكانت أمك تمط أحرف المد وهي تكلمني، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جداً على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفيتها ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك). هل يستطيع الفلاح الروسي أن يشعر بعواطف كما يشعر بها رجل مثقف؟ إنه أجهل من أن يشعر بأي شيء. إنني حين أسمع أحرف المدِّ تمُطُّ هذا المط أتمنى لو ألطم رأسي بجدار. وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي! أوه! إنني أكره روسيا كلها يا ماريا كوندراتفنا.

- لو كنت ضابطاً أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير، بل لجرَّدت سيفك دفاعاً عن روسيا.

- لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا، بل عكس ذلك أرغب في إلغاء الجيش واختفاء الجنود.

- فمن يدافع عنا إذاً إذا هاجمنا العدو؟

- لا داعي إلى الدفاع. في عام 1812 غزا إمبراطور الفرنسيين، نابوليون الأول، وهو أبو الإمبراطور الحالي[17]، غزا روسيا، فلو قد تم للفرنسيين هؤلاء الاستيلاء عليها آنذاك لكان ذلك حظاً عظيماً؛ لأن أمة ذكية تُخضع لنفسها عندئذٍ أمة غبية، وتلحقها بها. فلو قد تم تحقيق ذلك إذاً لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف.

- كأنهم خير منا!... ألا إنني لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شباننا الحسان ثلاثة فتيان من الإنجليز...

كذلك هتفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة.

ولا بد أنها كانت تلقي على صاحبها عندئذ نظرات تفيض دلالاً.

قال الرجل:

- المسألة مسألة ذوق!

- هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبي، أجنبي نبيل جداً. أعترف لك بهذا وأنا أحمرٌ خجلاً.

- هل تريدين أن أقول لك الحقيقة؟ إنهم جميعاً سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق، أجانب كانوا أم روساً. هم جميعاً أوباش، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمعة، في حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم النتن، لا يجدون فيه ضيراً. إن الشعب الروسي يستحق أن يُجلد. لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام، رغم أنه مجنون، هو وأبناؤه جميعاً.

- ولكن سبق لك أن قلت إنك تحترم إيفان فيدوروفتش احتراماً كبيراً.

- ذلك لم يمنعه من أن يصفني بأنني خادم نذل. هو يتخيّل أنني واحد من أولئك المتمردين. ولكنه مخطىء. لو ملكت قدراً كافياً من

المال، إذاً لسافرت منذ زمن طويل. أما ديمترى فيدوروفتش فهو شر من خادم، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه. هذا رجل لا يصلح لشيء. ومع ذلك يحترمه جميع الناس. أنا أعلم أنني لست إلا طباخاً فاشلاً، ولكن لو أوتيت شيئا من حظ فسوف أفتتح «مقهى ومطعماً» بموسكو، في شارع بتروفكا. إنني أجيد إعداد أطباق حسب الطلب، وما من أحد من زملائي قادر على ذلك، إلا الأجانب. وديمترى فيدوروفتش هذا ليس إلا مفلساً، ومع ذلك لو طلب إلى المبارزة أنبلَ أبناء أحد الكونتات، لرضي هذا أن يبارزه. فيم هو ينازعني؟ إنه أقل مني ذكاء! وما أكثر ما أتلف من مال في سبيل حماقات وترهات!

قالت ماريا كوندراتفنا فجأة:

- لا بد أن مشهد المبارزة جميل جداً.

- لماذا؟

- إنها الخطر والشجاعة، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات في سبيل سيدة! ما أروعه من منظر! لو كانت تُقبل فتيات في مشاهدة مبارزة، لوهبت أي شيء في سبيل أن أشهد مبارزة.

- المبارَزة ممتعة حين يسدِّد المرء بنفسه، أما حين يكون الآخر هو الذي يسدِّد إليك، فالأمر يصبح عندئذ سخيفا، وربما تهربين يا ماريا كوندراتفنا.

- أتهرب أنت في مثل هذه الحالة؟

لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها. وبعد برهة من الوقت سُمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصدح مغنياً:

سأرحل مهما أكابد

فإني سئمت العذابا.
سيبهجني أن أعيش بعيداً
أمتّع نفسي وأحيا سعيداً
حياة العواصم.
فلا شيء يمسكني ها هنا
ولست بباك عليك أيضاً
ولست بباك على أي شيء.

وفي تلك اللحظة حدث شيء ليس في الحسبان: لقد عطس أليوشا فجأة. فسرعان ما صمتت الأصوات. فنهض أليوشا عن مكانه واتجه نحو الدكة. الرجل هو سمردياكوف فعلاً، بثيابه الفاخرة، وحذاءيه الملمّعين. وشعره المدهّن حتى لكأنه مجعّد. كان قد وضع القيثارة على الدكة. والمرأة الشابة هي ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار. إنها ترتدي فستاناً أزرقاً فاتحاً ذا ذيل طويل جداً. وكان يمكن أن تبدو الفتاة الشابة جميلة لولا ذلك النمش البشع في وجهها المسرف في الاستدارة.

سأل أليوشا بلهجة هادئة وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر سؤال بسيط لا قيمة له:

- هل سيأتي أخي ديمترى إلى هنا بعد قليل؟

فنهض سمردياكوف بدون تعجل، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا.

- أنّى لي أن أعرف ما يفعله ديمترى فيدوروفتش؟ إنني لم أكلف بحراسته فيما أعلم...

كذلك أجاب سمردياكوف مقطّعا ألفاظه دون أن يرفع صوته، وبلهجة الاستخفاف.

فقال أليوشا شارحاً:

- إنما سألتك بكل بساطة لتجيبني إذا كنت تعلم.

- أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن، ولا أحرص على أن أعرف. . .

- لكن أخي أسرَّ إليّ أنك تطلعه على كل ما يحدث في الدار، وأنك وعدته بإبلاغه عن مجيء آجرافينا ألكسندروفنا.

فرفع سمردياكوف بصره إلى أليوشا ببطء دون أن يضطرب. ثم قال وهو يحدِّق إلى أليوشا ويتفرس فيه:

- هل يمكنني أن أسألك أنا أيضاً كيف فعلت حتى استطعت أن تدخل إلى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة؟

قال أليوشا:

- مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل إلى الكوخ رأساً.

ثم أضاف يقول مخاطباً ماريا كوندراتفنا:

أرجو أن لا تؤاخذيني على عدم تحرجي. لقد كنت أحرص على أن أرى أخي بأقصى سرعة.

فأجابت ماريا كوندراتفنا تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحاً أن اعتذار أليوشا إليها قد سرها كثيراً:

- كيف أؤاخذك؟ إن ديمترى فيدوروفتش يسلك هذا الطريق نفسه لبلوغ الكوخ، فكثيراً ما لا نلاحظ وصوله إلا بعد أن يكون قد استقر فيه.

- لا بد لي أن أراه حتماً. إنني أبحث عنه في كل مكان. ألا تستطيعين أن تقولي لي أين يمكنني أن أعثر عليه الآن؟ إن الأمر أمر مسألة تهمه كثيراً.

فتمتمت ماريا كوندراتفنا تقول:

- إنه لا يطلعنا على تنقلاته.
واستأنف سمردياكوف كلامه فقال:
- أجيء إلى هنا زائراً، فإذا هو يلاحقني حتى إلى هذا المكان ليسألني عن أخبار سيدي. لقد طالبني مراراً بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها، وكل ما يمكنني أن أطلع عليه من أمور أخرى. حتى لقد هدَّدني بالقتل مرتين!
سأل أليوشا من مدهوشاً:
- بالقتل؟ كيف يمكن هذا؟
- إنه، بما له من طبع خاص، لا يتورّع عن شيء... ولقد أتيح لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال. لقد أنذرني بأن عاقبتي ستكون وخيمة إذا أنا تركت لآجرافينا ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضي ليلة في الدار. إنني أخافه وأخشاه، ولولا أنه يثير في نفسي هذا الجزع كله إذاً لأبلغت عنه سلطات المدينة. الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله ديمترى فيدوروفتش!
وأضافت ماريا كوندراتفنا تقول:
- وقد صرَّح له منذ أيام:
«سأسحقك بالهاون سحقاً».
قال أليوشا:
- لئن تكلم عن الهاون، فليس الأمر بالجد... ليتني أستطيع أن أعثر عليه الآن، إذاً لقلت له كلمة عن هذه التهديدات أيضاً...
قال سمردياكوف وكأنه قد غيَّر رأيه فجأة:
- إليك المعلومات الوحيدة التي أستطيع أن أنهيها إليك. إنني أجيء إلى هنا كصديق قديم، ولِمَ لا أزور جيراناً؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إيفان فيدوروفتش قد أرسلني في ساعة مبكرة

من هذا الصباح إلى أخيك في «شارع أوزيورنايا». لقد كلفني، دون أن يحمّلني رسالة مكتوبة، بأن أعلم ديمترى فيدوروفتش جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجيء لتناول طعام الغداء معه في الحانة التي تقع في الميدان. لم أجد ديمترى فيدوروفتش في مسكنه. كانت الساعة هي الثامنة صباحاً. وقالت لي صاحبتا المنزل «إن ديمترى فيدوروفتش قد خرج». أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه. من الجائز جداً أن يكون أخوك ديمترى فيدوروفتش الآن في تلك الحانة مع إيفان فيدوروفتش، لأن إيفان فيدوروفتش لم يرجع إلى المنزل للغداء. أما فيدرو بافلوفتش فقد تغدى وحيداً منذ ساعة، ولا بد أنه الآن يُقيل. أتوسل إليك مع ذلك أن لا تحدِّث أخاك عني، وأن لا تقول له إنني ذكرت لك هذه المعلومات لأنه قادر على أن يقتلني بلا أي سبب إذا هو عرف بالأمر.

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيداً من التأكد:

– هل ضرب أخي إيفان موعداً اليوم لدمتري في الحانة؟

– تماماً.

– أهي حانة «العاصمة الكبرى» التي تقع في الميدان؟

– هي نفسها.

فهتف أليوشا يقول وقد ألمَّ به انفعال شديد:

– جائز جداً! شكراً يا سمردياكوف. هذه معلومات ثمينة. سأذهب إلى هناك فوراً.

قال سمردياكوف ملحًا:

– إياك أن تفضحني!

– اطمئن. سأتظاهر بأنني دخلت الحانة مصادفة.

وبينما كان أليوشا يتجه نحو السياج، هتفت ماريا كوندراتفنا قائلة:

- إلى أين أنت ذاهب؟ سأفتح لك باب البستان.
- لا داعي إلى ذلك. من هنا أقرب. سأتخطى السياج.

أحدث هذا النبأ في أليوشا أثراً قوياً. وأسرع متجهاً إلى الحانة. ليس من الحشمة طبعاً أن يدخل أليوشا الحانة وهو في مسوح راهب. ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة، وأن يستدعيهما إليه على السلَّم. وإنه ليقترب من مبنى الحانة إذا بنافذة من نوافذها قد فتحت، وها هو أخوه إيفان نفسه يناديه من فوق سائلاً:

- هل تستطيع أن تجيئني إلى هنا يا أليوشا؟ فتسدي إليّ معروفاً.
- طبعاً. ولكنني أتحرج من الدخول بثوبي هذا.
- أنا في حجرة خاصة. تعال إلى سلَّم المدخل، فألقاك هناك...

وبعد دقيقة، كان أليوشا يجلس إلى جانب أخيه. لقد كان إيفان وحيداً، وكان يتناول غداءه.

- 3 -

الأخوان يتعارفان

لم يكن إيفان يحتلّ حجرة خاصة بمعنى الكلمة. وإنما كان جالساً قرب النافذة في ركن تعزله عن الصالة حواجز. فالأشخاص الذين يجلسون في هذا المكان الخاص لا يراهم روّاد الحانة الآخرون. هي قاعة مدخلٍ تفضي إلى الصالات التي بعدها، قد نصب «بوفيه» أمام جدارها الجانبي. والخدم يجتازون هذه القاعة في كل لحظة. ولم يكن في القاعة حينذاك إلا زبون واحد هو ضابط محال على التقاعد يجلس في الركن ويحتسي الشاي. ليست كذلك الصالات الأخرى فهي تزخر بما تزخر بها أمثال هذه الأماكن عادة من نداءات عالية، وصرخات فرحة، وقرقعات الزجاجات التي تُفتح، وطقطقات الكرات على مائدة البلياردو، مع أصوات أرغن تشق هذه الجلبة كلها. كان أليوشا يعلم أن أخاه إيفان لا يكاد يرتاد هذه الحانة أبداً، لأنه لا يحب جو الأماكن التي من هذا النوع على وجه العموم. فقال أليوشا لنفسه: «فإنما هو جاء إذاً ليلقى ديمترى». ولكن ديمترى لم يحضر.

هتف إيفان وكان يبدو سعيداً بحضور أليوشا:

- هل تريد أن آمر لك بحساء السمك؟ يخيَّل إليّ أنك لا تتغذى بالشاي وحده!

وكان إيفان قد فرغ من تناول طعامه، فهو الآن يحتسي فنجاناً من الشاي. أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً:

- هات حساء السمك، واطلب لي كذلك شاياً، فإنني جائع.

- فما قولك إذاً بشيء من مربب الكرز؟ إن عندهم هنا مربّب كرز. وعهدي بك أنك كنت تحب هذا المربب في الماضي حين كنت صغيراً وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف. أما تزال تتذكر هذا؟

- أأنت تتذكره إذاً يا إيفان؟ موافق على المربب، فإنني ما أزال أحبه كما كنت أحبه في الماضي.

نادى إيفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك، وبشاي، وبمربب كرز.

- إنني أتذكر كل شيء، أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحادية عشرة من عمرك. وكنت أنا عندئذ في الخامسة عشرة. ما كان يمكن أن تنعقد أواصر رفقة بين أخوين في ذلك العمر إذا كانت تفصل بينهما أربع سنوات. ولست على يقين من أنني أحببتك في ذلك الأوان. وبعد سفري إلى موسكو لم تخطر ببالي قط أثناء السنين الأولى. حتى إذا جئتَ بعد ذلك إلى موسكو أنت أيضاً، لم أصادفك إلا مرة واحدة لا أدري أين! وها أنذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر، دون أن يتاح لنا أن نتبادل حديثاً حقيقياً مرة واحدة. وإني مسافر غداً، لذلك تساءلت منذ لحظات: «تُرى أين يمكن أن أجده لأودِّعه!» وإذا بك تمر من هنا.

- أكنت تتوق جداً إلى رؤيتي إذاً؟

- نعم، جداً. إنني أود أن أعرفك مرة وإلى الأبد، وأن تعرفني كذلك مزيداً من المعرفة. ثم نفترق بعد ذلك. إن أفضل لحظة

للتعارف هي في رأيي اللحظة التي تسبق الفراق. لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة. كان في عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر، وهذا ما لا أطيقه. لذلك لم أحاول أن أقترب منك. ولكنني تعلمت أن أحترمك. قلت لنفسي: «ما يزال الرجل الصغير ثابتاً على مواقعه». إنني أمزح قليلاً، ولكنني أتكلم الآن جاداً. أنت فتى ثابت جداً، أليس هذا صحيحاً؟ إني أحب أمثال هؤلاء الثابتين أيا كان ما يثبتون عليه، حتى لو كانوا صبية صغاراً مثلك. لهذا أصبحت نظراتك التي تعبِّر عن الانتظار والتوقع لا تسوءني ولا تنفِّرني، حتى لقد أصبحت محبَّبة إليَّ... يبدو لي أنك تحبني لسبب ما يا أليوشا، أليس كذلك؟

- أحبك يا إيفان. دبمتري يصفك بأنك «قبر»، أما أنا فأقول إنك لغز. ولم أستطيع أن أحل هذا اللغز حتى الآن. هناك نقطة مع ذلك أحسب أنني أبصرتها واضحة في نفسك، ولكن منذ هذا الصباح فحسب!

سأله إيفان ضاحكاً:

- فما هي؟

ضحك أليوشا هو أيضاً وسأله:

- ألن تغضب؟

- طبعاً لا؟

- إذاً فاعلم أنني اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم في الثالثة والعشرين من أعمارهم، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم، ويعوزك النضج كما يعوزهم، أي... هل كدّرك قولي هذا كثيراً؟

فصاح إيفان في مرح بحماس:

- بالعكس! بل أدهشني صدق رأيك، وهو يتفق ورأيي. لقد

كنت منذ لقائنا عندها في هذا الصباح أفكر في هذا الجانب من طبيعتي، في عدم نضجي هذا في الثالثة والعشرين، فإذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة! هل تعلم بماذا كنت أحدِّث نفسي قبل وصولك؟ كنت أقول لنفسي: مهما تخيِّب الحياة ظني، ومهما أفقد إيماني بالمرأة التي أحبها، ومهما أفقد إيماني بحكمة نظام الكون ومهما أقتنع، بالعكس، بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان فلن يغيّر هذا من الأمر شيئاً. . .، قد أغوص في جميع وهاد اليأس الإنساني، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شيء. أود لو أعب كأس الحياة متلذذاً حتى الثمالة، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه! ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمي الكأس قبل نفاده، ثم أمضي. . . إلى أين؟ لا أدري بعد. . . أما حتى ذلك الحين، أي إلى أن أبلغ الثلاثين، فإن شبابي سينتصر على كل شيء - أنا واثق من هذا - سينتصر على خيبة الأمل وعلى مشاعر الضيق بالحياة. لقد تساءلت مراراً: «هل في هذا العالم يأس يمكن أن يخنق في نفسي هذا الظمأ إلى الحياة، هذا الظمأ المسعور الذي قد لا يكون لائقاً؟» وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه ربما لا يوجد مثل هذا اليأس، ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب، ثم أزهد وأعف من تلقاء نفسي بعد ذلك. . . فيما أظن. . . إن الواعظين بالأخلاق، المصدورين الفتيان الحزانى، وكذلك الشعراء، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعة هذا الحب الحارّ للحياة. ويجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف الظمأ إلى الحياة هذا بأي ثمن. لا بد أن يكون هذا الظمأ قائماً فيك أنت أيضاً. ولكن لماذا يوصف بالجبن والضعة؟ إن القوة الجاذبة المركزية قويّة إلى درجة فظيعة في كوكبنا السيّار هذا يا أليوشا. الحياة حلوة،

وإني لأحيا ولو على خلاف كل منطق. أنا لا أؤمن بحكمة نظام الكون. لنسلم بهذا. ولكنني أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع في الربيع، وأحب السماء الزرقاء، وأحب أيضاً دون أن أدري لماذا - هل تصدق ذلك؟ - أحب أيضاً بعض البشر وتهزني الحماسة لأعمال البطولة الإنسانية التي انقطعتُ مع ذلك عن الإيمان بها منذ زمن طويل، ولكنني ما زلت أقدِّسها بحكم عادة عزيزة على نفسي أثيرة في قلبي. جاؤوك بحساء السمك. كُلْه هنيئاً مريئاً. إنهم يحسنون إعداده هنا. أنوي أن أسافر إلى أوروبا يا أليوشا. سأسافر إلى هناك من هنا رأساً. وإني لأعلم مع ذلك أنني لن أجد هنالك إلا مقبرة، ولكنها أعزّ مقبرة، تلك هي المسألة! ولكنني شديد الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى. إن كل حجر يذكرني بحياة حارة ماضية وبسورة جامحة من سورات الإيمان بالحياة والبطولة وبقيمة العمل، وبالحقيقة، وبالكفاح، وبالعلم أيضاً. أوه! أنا أعلم سلفاً أنني سأرتمي على ركبتيّ جاثياً أمام هذه الحجارة، وأنني سأبكي على أحجار القبور هذه، وأغمرها بالقبل، مع شعوري في قرارة قلبي بأن ذلك ماض تصرَّم ولن يعود. على أنني لن أبكي من كرب ويأس، بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعي. سيسكرني حزني وحناني. إنني أحب وريقات الأشجار الطريات في الربيع، أحب السماء الزرقاء. تلك هي المسألة... ليس الأمر أمر عقل ومنطق. إن حب الحياة ينبجس من أرحامي، وإن قوى شبابي التي لم تضعف ولم يمسسها سوء هي التي أحبها. أأنت تفهم شيئاً من هذه المعميّات يا صغيري أليوشا؟ هه؟

ألقى إيفان هذا السؤال وهو يضحك فجأة. فأجابه أليوشا بقوله:

- أفهمها جداً يا إيفان، أفهمها أكثر مما يجب! من قرارة الأرحام

إنما ينبع حب الحياة؛ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة. وإني لأبتهج لك كثيراً حين أراك راغباً في الحياة رغبة قوية هذه القوة.

كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف:

- وعندي أن على كل إنسان في هذا العالم أن يتعلَّم حب الحياة قبل كل شيء.

- حب الحياة أكثر من حب مغزاها؟

- نعم، حب الحياة، دون اكتراث بالمنطق، كما قلت أنت. وبهذا وحده إنما يصل الإنسان إلى اكتشاف معنى الحياة. أنا من جهتي أفكر في هذا منذ زمن طويل. لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تحب الحياة، ولم يبقَ عليك إلا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص والسلامة.

- أأنت تهتم بخلاصي وسلامتي؟ ما كنت أحسب أنني بسبيل الضياع والهلاك. وما هو النصف الثاني في رأيك؟

- النصف الثاني هو بعث أولئك الموتى أصحابك الذين لعلهم لم يبرحوا الحياة. اعطني الشاي.. إنني سعيد جداً بحديثنا هذا يا إيفان.

- ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلاً. ما أكثر ما أحب اعترافات الصدق هذه التي يقولها... رهبان مبتدئون مثلك! إنك رجل ثابت يا أليوشا. هل صحيح أنك تفكر في ترك الدير؟

- صحيح. إن شيخي أمرني بالذهاب إلى الدنيا.

- سوف نلتقي اذاً، سوف نلتقي إذاً في هذه الدنيا قبل حلول الثلاثين، قبل أن أرمي الكأس. أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل أن يبلغ السبعين، وحتى يحلم أن يعيش ثمانين عاماً، كما يقول ذلك هو نفسه. إنه جاد في هذا كل الجد، مهما يكن

مهرّجاً. إنه يتهالك على اللذة، ويحسب أنه مقيم عليها إقامته على صخرة وطيدة... صحيح أن الإنسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء غير اللذة... ولكن الحياة على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت. فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين. وبذلك يستطيع أن يحافظ على «مظهر نبل»[18] في أقل تقدير، كاذباً على نفسه، هل رأيت دمتري اليوم؟

- لا... ولكنني رأيت سمردياكوف.

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعةٍ تفاصيل لقائه بالخادم. فكان إيفان يصغي إليه وقد اكتسى وجهه تعبيراً عن الهمّ والقلق على حين فجأة، حتى إنه استوضح أليوشا بعض النقاط.

وأضاف أليوشا قوله:

- وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمتري شيئاً مما أسرّ به إليّ.

فقطب إيفان حاجبيه، ووجم يفكّر لحظة.

سأله أليوشا:

- أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج؟

- نعم، بسببه. شيطان يأخذه على كل حال!...

ثم أضاف يقول كأنما على مضض:

- حقاً لقد كنت أرغب في أن أرى دمتري، ولكن لم تبق بي حاجة إلى ذلك الآن...

- هل تنوي أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً؟

- نعم.

فسأله أليوشا قلقاً:

- ما عسى يصير إليه حال دمتري والأب؟ ترى كيف ينتهي هذا الأمر كله؟

- إنك ما تفتأ تعود إلى هذا الموضوع! فيم يعنيني نزاعهما؟ أأنا حارس لأخيك دمتري؟

كذلك أجاب إيفان بلهجة حانقة، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه، فابتسم ابتسامة مرة وقال:

- ذلك جواب قابيل لله عن أخيه الذي قتله، أليس هذا ما خطر ببالك في هذه اللحظة؟ إلى جهنم على كل حال!.. أنا لا أستطيع أن أبقى هنا حارساً لهما! لقد أنهيت أعمالي، وسأسافر. أتراك تتخيل أنني غيور من دمتري، وأنني حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترينا إيفانوفنا؟ دعك من هذا! لقد كانت لي أنا شؤوني وأعمالي. وقد أنجزتها فسأسافر. أنجزتها في هذا الصباح، وكنت أنت شاهداً عليها.

- هل تعني ذلك الحديث الذي جرى بينك وبين كاترينا إيفانوفنا؟

- نعم. لقد قطعت صلتي بها دفعة واحدة. ثم ماذا؟ فيم يهمني دمتري؟ إنه لا شأن له بهذا الأمر، كانت علاقاتي بكاترينا إيفانوفنا شأناً خاصاً بي. ثم إنك تعرف أنت نفسك أن دمتري قد تصرف في هذا الأمر كله تصرف متواطئ معي. أنا لم أطلب منه شيئاً، وإنما هو تركها لي من تلقاء نفسه، وزاد على ذلك فبارك. لكأنها تمثيلية. أف... ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعوري بالتخفف الآن! حين كنت أتناول طعامي منذ قليل هنا، اشتهيتُ أن أطلب شيئاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريتي التي عادت إليّ حين أفكر في هذا الأمر... آه... لقد دام هذا نصف سنة، وها أنذا أتحرر دفعة واحدة. حتى أمس. ما كنت لأتخيل أنني أستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت!

- أعن حبك تتكلم يا إيفان؟

- عن الحب أتكلم إن شئت أن تستعمل هذا التعبير. لقد عشقت آنسة من الآنسات، فتاةً هي طالبة في مدرسة داخلية؛ فتألمت، وجعلتني هي أتألم. وكنت أحسب أنني مشدود إليها... ثم إذا بكل شيء يتبدد في طرفة عين. في هذا الصباح كنت أكلّمها مستهاماً، حتى إذا صرت في الشارع انطلقت أضحك ضحكاً مجلجلاً، هل تصدق هذا؟ تلك هي الحقيقة بعينها مع ذلك.

- أنت حتى في هذه اللحظة تتكلم في الأمر بمرح وحبور.

كذلك قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الهادئ المطمئن الذي لاح فيه فجأة المرح حقاً.

- كيف كان يمكنني أن أحزر أنني لا أحبها البتة؟ هأهأ! ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. أنا لا أحبها وضح هذا الآن. ولكن ما أكثر ما كانت تعجبني! في هذا الصباح نفسه، حين أجريت معها ذلك الحديث، كنت لا أمِلّ ولا أكلّ من الإعجاب بها! وحتى في هذه اللحظة تعجبني كثيراً، هل تصدق؟ ورغم هذا فما كان أسهل عليَّ أن أتركها! أتحسبني أقول هذا الكلام تباهياً وتبجّحاً؟

- لا... ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً؟

قال إيفان ضاحكاً:

- يا صغيري أليوشا، لا تندفع في إصدار آراء في الحب! ذلك لا يناسب حالتك. إنني أفكر في اندفاعك هذا الصباح يا بني! أي.. قد نسيت أن حينها... ومع ذلك ما أشد ما آلمتني وعذبتني! لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات. أوه! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها! وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً)، ولم يكن دمتري إلا عذراً لها تتخذه في سبيل أن تعذب نفسها. إن كل ما قلته لها هو الحق، هو الحق إطلاقاً. ولكن في حقيقة الأمر - وهذا

هو الشيء الأساسي - هي تحتاج إلى خمسة عشر عاماً أو إلى عشرين عاماً أخرى من أجل أن تدرك أخيراً أنها لا تحب دمتري البتة، ولا تحب أحداً سواي رغم أنها تؤلمني وتعذبني. وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الأيام على كل حال، رغم درس هذا الصباح! فليكن، ها قد نهضت فمضيت بلا رجعة! بالمناسبة، ما الذي صارت إليه؟ ماذا حدث بعد انصرافي؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمّت بها، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها في أغلب الظن، وأنها ما تزال تهذي.

- لعل خوخلاكوفا قد بالغت؟

- لا أظن.

- يجب أن أذهب لأستطلع أنباءها. على كل حال، لا أحد يموت من نوبة عصبية. فلتكن نوبة عصبية، إن الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة: النوبات العصبية. لا... لن أذهب إليها! فيم استئناف الأمر؟

- زعمتَ لها منذ قليل أنها لم تحببك يوماً.

- زعمت ذلك عامداً يا أليوشا! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالاً باستردادي حريتي. ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة!

أجابه أليوشا بحرارة قائلاً:

- أخي، الأفضل أن لا نشرب. ثم إنني أحسّ بالحزن الشديد.

- أنت حزين منذ زمن طويل، لقد لاحظت أنا هذا.

- أنت مصرٌّ على أن تسافر غداً في الصباح؟

- لماذا في الصباح؟ أنا لم أقل إنني مسافر في الصباح... على أنني قد أفعل. ها أنت ذا ترى أنني أصبت غدائي هنا حتى لا أخلو

إلى العجوز على مائدة واحدة، فإلى هذا الحد يثير العجوز اشمئزازي... كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده. ولكن لماذا يقلقك سفري هذا الإقلاق؟ ما يزال أمامنا وقت طويل، ما يزال أمامنا أبدٌ تقريباً...!

- أيكون أمامنا أبدٌ وأنت مسافر غداً؟

قال إيفان ضاحكاً:

- فيم يهمنا هذا السفر؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحدث عما يهمنا نحن الاثنين، لأن نتحدث عما جمعنا في هذا المكان. لماذا تنظر إليّ بهذه الدهشة؟ ما هو الأمر الذي جئنا من أجله إلى هنا؟ أجب! أنحن هنا من أجل أن نتحدث عن حبي لكاترينا إيفانوفنا والعجوز ودمتري؟ عن ظروف الحياة في الخارج؟ عن أحوال روسيا المتردّية؟ عن الإمبراطور نابليون؟ أنحن هنا من أجل أن نتحدث في هذه الأمور؟

- لا... طبعاً...

- ها أنت ذا تدرك بنفسك إذاً ما يجمعنا هنا. هنالك أناس آخرون يتناقشون في مثل هذه الشؤون، أما نحن، نحن الأغرار البسطاء، فنريد أن نحلّ أولاً المشاكل الأزلية، الميتافيزقيا. ذلك هو همنا. إن جميع شباب روسيا يتناقشون الآن في المسائل السرمدية وينهمكون في هذا الآن بالذات حين بدأ الشيوخ فجأة يدرسون المسائل العلمية. ما الذي كان يدفعك طوال هذه الأشهر الثلاثة إلى أن تنظر إليّ نظرة فيها ذلك التعبير عن الانتظار؟ كنت تريد أن تسألني: «أأنا مؤمن أم ملحد؟» ذلك ما كان يثوي في أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر، أليس هذا صحيحاً يا ألكسي فيدوروفتش؟

أجاب أليوشا مبتسماً:

- جائز جداً.

ولكنك في هذه اللحظة لا تسخر مني يا أخي، أليس كذلك؟

- أأنا أسخر، أنا؟ ألا إنني لا أحب أن أشجي قلب أخي الصغير الذي يبدو أنه انتظر مني أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة. أليوشا، انظر إليّ جيداً. ألست، أنا أيضاً، فتى صغيراً مثلك، مع فارق واحد هو أنني لست راهباً مبتدئاً؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل؟ إنهم يلتقون في خمارة تفوح منها رائحة كريهة كهذه الخمارة، ويجلسون إلى مائدة... لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن، وسيجهل بعضهم بعضاً في خلال أربعين عاماً أخرى، متى خرجوا من الخمارة! فما الذي يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصار التي تتيحها لهم مصادفة اللقاء في الحانة؟ يتناقشون في الكون وسرِّ الكون حتماً. هم يتساءلون: هل الله موجود، وهل هناك خلود؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجود الله، يتناقشون في الاشتراكية والفوضوية، وفي إعادة بناء الإنسانية على أسس جديدة والفريقان كلاهما سواء. فالمشكلات التي يعالجها هؤلاء، هي المشكلات التي يعالجها أولئك، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضة. إن عددهم لا يُحصى في بلادنا، هؤلاء الشبان الروس، الذين يفيضون أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا إلا المسائل السرمدية. ألستَ متفقاً معي في هذا الرأي؟

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر إليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة، كأنما ليشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيداً من الإفصاح:

- حتماً. إن المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التي تعالَج من الجهة المعارضة كما قلت، هي في

نظر الروس الحقيقيين ذات خطورة حيوية، ومن الخير جداً أن تكون كذلك.

- اعلم يا أليوشا أنه ليس من الذكاء أبداً في بعض الاحيان أن تكون شخصاً روسيّاً، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التي تشغل بال الشبان في روسيا هي أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور. غير أن بين هؤلاء المراهقين الروس واحداً أحبه كثيراً هو أليوشا.

قال أليوشا ضاحكاً:

- هذه نتيجة بلغت في استخلاصها غاية اللطف.

- بماذا تريد أن نبدأ؟ إنني أترك لك الخيار. هل تريد أن نتكلم عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا؟ قل...

- ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ، ولو بمعالجة تلك المسائل التي وصفتها بأنها تعالَج من «الجهة المعارضة». ألم تؤكد أمس، في منزل أبينا، أن الله غير موجود؟

كذلك سأل أليوشا أخاه، وهو يحدق إليه متفرساً فيه.

- تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناكدك وأغيظك، ورأيت لهيباً ينبجس في عينيك. أما الآن فأنا أشعر بأنني على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الأمر معك، ولسوف أناقشه جاداً لا هازلاً. إنني أحب كثيراً أن أتفاهم معك يا أليوشا، لأنني ليس لي أصدقاء. إنني أحاول أن أقترب منك.

قال إيفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكاً:

- هل تتصور أنني ربما سلَّمت، أنا أيضاً، بوجود الله؟ هذا يدهشك، أليس كذلك؟

- نعم، طبعاً، اللّهمّ إلا أن تكون مازحاً من جديد.

- «مازحا؟» لقد أخذوا عليَّ ذلك بالأمس، عند شيخك ولكنهم أخطأوا. اسمع يا عزيزي: إن عجوزاً آثماً عاش في القرن الثامن عشر قد قال إنه إذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه، s'il n'existait pas Dieu, il faudrait l'inventer[19]. والحق أن الإنسان قد اخترع الله. وليس أغربَ ما في الأمر ولا أهمّه أن الله موجود في الواقع، بل المدهش أن هذه الفكرة، فكرة ضرورة وجود الله، قد أمكن أن تنبت في دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الإنسان من توحش وشر، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر في القلب، وهي في الوقت نفسه حكيمة عاقلة. الحق أن هذه الفكرة تشرِّف الإنسان. أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذي خلق الإنسان، أم الإنسان هو الذي خلق الله. فسأعفي نفسي إذاً من فحص البديهيات التي يستند إليها شبابنا الروس في هذه الأيام والتي يستمدونها في حقيقة الأمر كما هي من الافتراضات التي يفترضها الناس في البلاد الأوروبية الأخرى. ذلك أن ما هو افتراضٌ لا أكثر، في نظر هؤلاء الأجانب، سرعان ما يصبح بديهية في نظر مراهقينا، بل وفي نظر أساتذتهم الذين ليسوا أفضل من المراهقين سدادَ رأي وصدق حكم في كثير من الأحيان. فسأترك جانباً جميع الافتراضات إذاً، وأتساءل ما هي غايتنا الآن على وجه الدقة؟ أما أنا فإنما يهمني أن أشرح لك آرائي بأقصى سرعة ممكنة، يهمني أن أُفهمك أي إنسان أنا، ما هو إيماني، وأين أضع أملي؟ أليس هذا بصحيح؟ لذلك سأقول لك فوراً إنني أسلم بوجود الله فوراً وبكل بساطة. ولكنني أحب أن تلاحظ ما يلي: إذا كان الله موجوداً، وإذا كان قد خلق الأرض فعلاً، فهو إنما اتبع في هذا الخلق، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة، قوانين هندسة

إقليدس، ولم يهب العقل الإنساني إلا فكرة الأبعاد الثلاثية للمكان. ومع ذلك فقد وُجد وما يزال يوجد إلى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكّون في أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعمَّ، مستنداً إلى قوانين هندسة إقليدس وحدها؛ حتى ليتجاسرون على الأمل بأن الخطين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة إقليدس أنهما لا يمكن أن يلتقيا على الأرض، يمكن في الواقع أن يتلاقيا في نقطة موجودة في اللانهاية[20]. ولقد قلت لنفسي يا عزيزي: إذا كنت عاجزاً عن فهم حتى هذه الحقيقة، فكيف أستطيع أن أعرف شيئاً عن الله؟ إنني أعترف في كثير من التواضع أنني لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأي في مسائل من هذا النوع، لأن عقلي إقليدسي قد خلق للأرض، ومن العبث الذي لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم، وإنك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا إذا أنت لم تفكر في هذه الأمور، وإذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا إلى إدراكها، لأن عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له إلا ثلاثة أبعاد. ذلك هو السبب في أنني لست أسلم عن طيب خاطر بوجود الله وكفى، ولكنني أسلم أيضاً بحكمته العليا وبغاياته، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات. إنني أؤمن بحكمة نظام الكون وبمغزى الحياة، وأؤمن بانسجام أبدي علينا أن نذوب فيه جميعاً ذات يوم فيما يبدو. أؤمن «بالكلمة» التي يتجه إليها الكون، «الكلمة التي هي الله»، وهلمَّ جرا إلى غير نهاية. لقد قيل في هذا المجال كلام كثير مسرف في الكثرة. ولكنني على طريق الصواب، ألا ترى هذا الرأي؟ فاعلم إذاً الآن، ختاماً لكل ما قلته، أنني لا أقبل العالم

على نحو ما خلقه الله، ولا أستطيع الموافقة على قبوله رغم علمي بوجوده. لست أرفض الله... افهمني جيداً... وإنما أنا أرفض العالم الذي خلقه ولا أستطيع الموافقة على قبوله. وها أنذا أشرح لك ما أريد قوله: إنني أؤمن إيماناً جازماً، كإيمان طفل، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئاً بعد شيء وستزول آخر الأمر، وأن هذه المهزلة الحقيرة، مهزلة التناقضات الإنسانية ستتبدد تبدد سراب باطل، تبددَ شيء تافه اخترعه ذهن إنساني ضعيف وصغير، وستتبدد تبدّد الذرّة في ذهن إقليدس. أؤمن بأن حقيقة عليا ستنبثق أخيراً في خاتمة المطاف من هذه الحياة، حين يتأكد الانسجام الأبدي، فإذا هي تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدىء جميع القلوب، وتسكّن جميع أنواع الغضب، وتكفّر عن جميع جرائم الإنسانية، وتفدي كل الدم الذي سُفح على الأرض. وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء الإنسانية فحسب، كائنة ما كانت تلك الأخطاء، وإنما هي ستسوّغها فوق ذلك. لنسلِّم بهذا كله! ولكن حتى في هذه الحالة، فإنني لن أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله! إلا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتوازية ولأرى ذلك، فأعترف بأنها التقت، ولكنني لن أقبل ذلك. تلك طبيعتي يا أليوشا، وتلك أحاسيسي ووجهة نظري بالعالم. لقد حدَّثتك حديثاً جاداً كل الجد في هذه المرة. تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن، ولكنني قدته إلى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً، لأن ذلك وحده يهمك. ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني، وإنما كنت تريد أن تعرف ما يدور في نفس أخ تحبه. فها أنت عَرَفت.

أنهى إيفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه.

سأل أليوشا أخاه وهو ينظر إليه متأملاً:

- قل لي: لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا «على أغبى نحو ممكن»؟

فأجابه إيفان بقوله:

- أولاً لأنني أحببت أن أجاري عادات الناس: فإن الأحاديث حول هذا الموضوع في روسيا غبية دائماً. وثانياً لأن المرء يكون أقرب إلى الحقيقة حين يكون غبياً. إن الغباء يمضي نحو الهدف رأساً. الغباء بساطة وإيجاز، أما الذكاء فمكر ومخاتلة. إن الفكر الذكي فاجر فاسد، أما الغباء فمستقيم شريف. لقد شرحت لك يأسي، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً، يكون الأمر أفضل في نظري.

سأله أليوشا مرة أخرى:

- أتقول لي لماذا ترفض «قبول العالم»؟

- طبعاً أقول لك. ليس هذا بسرّ. وأنا إنما بدأت هذه المناقشة لأصل منها إلى ذلك. يا أخي الحبيب! لست أريد بحال من الأحوال أن أفسدك وأصرفك عن إيمانك، أو أن أحوّلك عن اعتقاداتك... بالعكس... قد أتمنى أنا نفسي أن أُشفى وأبرأ بالاتصال بك.

بهذا أجابه إيفان، وهو يبتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول. لم يره أليوشا يبتسم هذه الابتسامة في يوم من الأيام.

- 4 -

التمرُّد

بدأ إيفان كلامه يقول:

- يجب أن أعترف لك بهذا الأمر: إنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس القريبين منه. ففي رأيي إن أقرب الناس إلينا يستحيل علينا أن نحبهم، بل قد نستطيع أن نحب، البعيدين عنا. لقد قرأت في موضع ما أن رجلاً اسمه «يوحنا الرحيم»[21] (هو قديس من القديسين) قد تضرّع إليه في ذات يوم مشرّدٌ جائع مرتعد من شدة البرد أن ينجده ويدفئه. فأضجعه على سريره وأحاطه بذارعيه ونفخ في فمه النتن المتقيّح المصاب بمرض رهيب. إنني أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعة هذا القديس مصطنعة فهو لا يقوم بهذا العمل بدافع الحب ومن تلقاء نفسه، وانما هو يلزم نفسه به إلزاماً باسم حب لا يشعر به، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه. إننا لا نستطيع أن نحب إنساناً إلا إذا ظل مختفياً عن نظرنا. فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب.

قال أليوشا:

- هذه ملاحظة طالما ردّدها الشيخ زوسيما. كان يقول إن وجه الإنسان يخلق في كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لما يتعلموا بعد أن يحبوا. ومع ذلك فإن في الإنسانية

كثيراً من المحبة، إن هناك محبة تكاد تشبه محبة المسيح... أنا أعرف ذلك بتجربة يا إيفان...

- جائز. أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه، وما أكثر الناس الذين يشبهونني من هذه الناحية! وإنما السؤال هو: هل يرجع هذا إلى خبث القلب الإنساني أم هو قانون طبيعي. وإني لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض. إن المسيح إله ونحن بشر. لنفرض مثلاً أنني قادر على أن أتألم كثيراً. إن من الصعب على شخص آخر غيري أن يعرف عمق الألم الذي أعانيه، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخر. يعزّ على المرء دائماً أن يسلِّم بألم غيره (كما لو كان ذلك رتبة ولقباً!). فهل تعلم لماذا يعزُّ عليه أن يسلِّم بألمي؟ ربما لأن رائحة فمي كريهة، أو لأن وجهي غبي، أو لأنني دست على قدمه في يوم من الأيام. على أن الآلام أنواع: فهناك آلام تخفض قيمتي أو تنقص قدري، كالجوع مثلاً؛ فالمحسن يمكن أن يصدقني فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام، أما إذا كان الألم أرفع من ذلك، إذا كان ألماً من أجل فكرة مثلاً، فإنه يرفض أن يصدِّقه، إلا في أحوال نادرة قليلة. وهو لا يصدقه لأنه حين ينظر إليّ يرى فجأة أن رأسي ليس ذلك الرأس الذي لا بد أن يكون في نظره رأس من يتألم في سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها. وهو عندئذ يأبى أن يتعاطف معي أي تعاطف، دون أن يكون في موقفه هذا شيء من روح الشر على كل حال. إن على الشحاذين ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار، وأن لا يطلبوا الإحسان إلا بإعلانات ينشرونها في الجرائد. إن من الممكن أن يحب الإنسان الإنسان حباً مجرداً، وأن يحبه في بعض الأحيان فعلاً، ولكن من بُعْد. أما من

قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً. لو كانت الأمور تجري كما تجري على المسرح، في باليه نرى فيه الشحاذين يظهرون لابسين أسمالاً من حرير ومغطَّين بتخاريم ممزقة، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة، فقد نعجب بهم عندئذ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم. حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع. كل ما أردته هو أن اطلعك على وجهة نظري. لقد كان في نيتي أن أحدثك عن آلام الإنسانية عامة، ولكنني أحسب أن من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم. ولئن كانت حجتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها، فإنني أظل أحسب أن هذا أفضل. لسوف تكون المناقشة أقل مؤاتاة لي بطبيعة الحال. ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم من قرب، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وإن كنت أعتقد أن وجه طفل لا يمكن أبداً أن يكون دميماً)؛ ثم إنني لا أحب أن أتكلم عن الكبار، ليس لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض: فهم قد أكلوا التفاحة وعرفوا الخير والشر وأصبحوا «شبيهين بالآلهة»، وما يزالون يأكلون منها... أما الأطفال فإنهم لمَّا يذوقوا تلك الثمرة، فبراءتهم ما تزال سليمة لم يمسّها سوء. هل تحب الأطفال يا أليوشا؟ إنني أعلم أنك تحبهم، ولسوف تفهم إذاً لماذا لن أحدثك إلا عنهم. إذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً في هذا العالم، فذلك لا يمكن إلا أن يكون بذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة، ومن أجل أن يكفِّروا عن تلك الخطيئة. ألا إن هذا فهم ليس من هذا العالم، وسيظل قلب الإنسان على هذه الأرض عاجزاً عن إدراكه. إن من الظلم أن يُعذَّب أبرياء - أبرياء إلى هذه الدرجة من البراءة - لذنب اقترفه غيرهم. أنا أيضاً أحب الأطفال كثيراً يا

أليوشا، تخيل هذا... سجّل هذا! إن القساة الضواري أصحاب الأهواء الجامحة، من أمثال آل كارامازوف، كثيراً ما يحبون الأطفال، فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم، حتى لكأنهم ينتمون إلى نوع آخر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا. إنني أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً في أحد السجون. لقد اتفق لهذا اللص أثناء اقتراف جرائمه أن قتل أُسراً بكاملها في المنازل التي تسلل إليها ليلاً ليسرقها، ولم يوفر الأطفال كذلك... ومع ذلك استبدت بهذا الرجل أثناء وجوده في السجن عاطفة قوية نحو الصغار، فكان يقضي وقته ناظراً من خلال الكوة إلى الصبية يلهون ويتسلون في ساحة السجن، واستطاع أخيراً أن يكسب مودة واحد منهم، فكان هذا يجيء يتحدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة... لا شك في أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله؟ إن بي صداعاً، وها أنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة.

قال أليوشا قلقاً:

- إنك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة، كأنك لا تملك وعيك كله.

وتابع إيفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه:

- بالمناسبة... لقد قصَّ عليَّ بلغاريٌ في الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون في بلاده بلغاريا إلى أنواع شديدة من القسوة بغية إرهاب الشعوب السلافية التي يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة. فهم يحرقون القرى، وينهبون الأرزاق ويذبحون السكان، ويغتصبون النساء والأطفال، ويسمِّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون إليهم في الصباح ليشنقوهم. أمور تفوق الخيال. يقال أحيانا إن الإنسان

«حيوان كاسر». ألا إن في هذا القول إهانة للحيوانات لا داعي إليها: فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر في القسوة أبداً، وهي لا تتفنن في قسوتها تفنن الإنسان. النمر يكتفي بتمزيق فريسته والتهامها. إنه لا يمضي إلى أبعد من ذلك، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج، ولو قدر على ذلك. وأولئك الأتراك يتسلُّون خاصة بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً. إنهم تارة ينتزعون بالخناجر صغاراً من أرحام أمهاتهم وتارة أخرى يرمون رضاعاً إلى فوق ويتلقفونهم بالحراب على مرأى من أمهاتهم اللواتي يعدُّ حضورهن أهم عنصر من عناصر هذه المتعة. ولقد حفظت ذاكرتي على الخصوص مشهداً وُصف لي: أمٌّ ترتجف جزعاً وهلعاً وفي يديها طفل رضيع؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبة صغيرة. إنهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلُّونه ويضحكونه. والطفل سعيد فها هوذا يضحك ويمدّ إليهم ذراعيه. وفي تلك اللحظة يصوِّب إليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشِّم جمجمة الصبي... أليس هذا فناً في الواقع؟

- أخي، إلى ماذا تريد أن تنتهي؟

- أعتقد أنه إذا لم يكن الشيطان موجوداً، وإذا كان الإنسان قد خلقه، فلا شك في أن الإنسان قد خلقه على صورته هو.

- كما خلق الله إذاً.

- إنك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس في «هاملت».

كذلك قال إيفان ضاحكاً، وتابع كلامه يقول:

- هذه حرب شريفة، وأنا أقبلها. ألا فاعترف مع ذلك أن جميل إلهك هذا إذا كان الإنسان قد خلقه على صورته. لقد

سألتني إلى أين أريد أن أنتهي؟ إنني أمرؤ يجمع بعض الوقائع ويقتطف ويجمع قصصاً معينة من الجرائد أو من أحاديث الناس أو من أي مصدر ثم يدونها على الفور. تخيل هذا. لقد جمعت منذ الآن حصاداً كبيراً من هذه الوقائع. والأتراك يحتلون في هذه الوقائع مكاناً كبيراً بطبيعة الحال، ولكن الأتراك أجانب. وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة وقائع البلاد الأخرى وتفوق حتى الوقائع التركية. في بلادنا روسيا إنما يُعمد خاصة إلى السوط والعصا... هذا اختصاص قومي لنا إن صح التعبير. نحن لا نسمّر الناس من آذانهم، لأننا أوروبيون رغم كل شيء. ولكننا في مقابل ذلك نملك السياط والعصي، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا. يظهر أن الناس في البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب. فإما أن الأخلاق أو العادات هنالك أصبحت طيبة أو أقرب إلى اللين، وإما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للإنسان أن يجلد أخاه الإنسان. على أن الإنسان قد وجد هنالك ما يعوِّض به ما افتقده تعويضاً يتصف كذلك بطابع قومي خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً في بلادنا. على أن هنالك علامات تدل، والحق يقال، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرّب إلى روسيا منذ زمن، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التي تنتشر في الآفاق العليا من مجتمعنا. إن عندي نشرة شائقة[22] مترجمة عن الفرنسية تروي قصة إعدام مجرم في مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار في الثالثة والعشرين من عمره، فيما أظن، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد إلى المقصلة. إن الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالى خمس سنين. وريشار هذا زنيم كان أبواه قد أهدياه وهو في السادسة من عمره إلى رعاة جبليين ربُّوه

بغية أن يعمل لهم بعد ذلك. شبَّ الصبي كحيوان صغير متوحش. والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً، وذلك في جميع الفصول والأجواء. وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعرهم ضميرهم بأي عذاب، لأن الصبي كان قد «أُهدي» إليهم كما يهدى شيء من الأشياء، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل. وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يشتهي خلال هذه السنين (كالابن الضال الذي يحدثنا عنه الإنجيل) أن يأكل حتى تلك العجينة التي كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع. ولكن لم يكن يُسمح له بذلك، وكان يُضرب إذا سرق بعضها من المذود. هكذا عاش ريشار سني طفولته وشبابه إلى الساعة التي شبّ فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً، فترك الرعاة وأخذ يسرق. وأصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بالمياومة، ولكنه كان ينفق ما يجنيه في السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة. وانتهى به الأمر إلى قتل رجل عجوز في سبيل أن يسلبه ما معه. وقد اعتُقل وحوكم وحُكم عليه بالإعدام. إن الناس ليسوا عاطفيين هناك. وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسس وأعضاء جمعيات مسيحية مختلفة وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية، الخ؛ فإذا هو أثناء مدة اعتقاله يعلَّم القراءة والكتابة ويفسَّر له الإنجيل ويوعظ، ويُردُّ إلى الصواب، ويُلام ويقرَّع، ويؤنب ويوبخ، وتشرح له العقيدة ويلقّن التعاليم المسيحية فيعلن جهاراً في ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب. وقد وجّه إلى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً، وأضاف إلى ذلك قوله إن

الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه إلى الحق وأتم عليه نعمته. وقد اهتزت المدينة كلها للأمر، فإذا جنيف الفاضلة الخيِّرة العاقلة الحكيمة تغلي وتفور، وإذا جميع الناس في المجتمع الراقي، إذا جميع «الأخيار» يريدون أن يزوروه في سجنه: حضنوه وعانقوه وقبَّلوه، وقالوا له: «أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله!»، فكان ريشار يبكي حناناً ويكرر قوله: «نعم لقد أدركتني نعمة الله! كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها، وها هوذا الرب يرسل إليّ الآن نعمته. سأموت في صلح مع الله!»، فيجيبه الآخرون: «نِعْمَ ما تقول يا ريشار، ستموت متصالحاً مع الرب. لقد سفكت دماً فيجب أن تموت متصالحاً مع الرب. صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ جهلت الله أيامَ كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب إذا أنت سرقت بعض هذا العلف (وأنت مخطىء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام)، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت». وحان اليوم الأخير. فكان ريشار، وقد ضعف ضعفاً شديداً، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال: «هذا أسعد يوم في حياتي، فإنني ذاهب إلى ملكوت الرب!»، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين «نعم نعم... هذا أسعد يوم في حياتك، لأنك ذاهب إلى ملكوت الرب!» وقد رافق هذا الجمهور ريشار إلى المقصلة، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً. ووقف الجميع أمام المقصلة، وأخذ الصياح يتعالى من كل مكان: «مت أيها الأخ، مت في صلح مع الله، لأن نعمة الله قد أدركتك!» ودُفع ريشار إلى المقصلة تغمره القبلات، وأُضجع عليها، وقطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد أدركته. أليس هذا شيئاً يتميز

بطابع خاص؟ لقد تُرجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية. . . ترجمها أشخاص ينتمون إلى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي، أرسلوا منها أعداداً ضخمة إلى جميع الصحف لتوزع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا. إن حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي. فنحن في بلادنا، والحق يقال، لا نقطع رأس رجل لأنه أصبح أخانا ولأن نعمة الله قد أدركته. ولكن عندنا شيئاً خاصاً بنا لا بأس به هو أيضاً. نحن في روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرِّحاً، وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعة. لقد صوَّر نكراسوف، في إحدى قصائده، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين، على «عينيه الوديعتين»[23]. . من ذا الذي لم يشهد في يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيراً، الروسي جداً إن جاز التعبير؟ إن ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذي كان يجر عربة مثقلة بأحمال فوق طاقته قد غاص في الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه. فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه. . . وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه في الهواء ويهوي به على الحيوان أنه أصبح لا يشعر بما يفعل، فهو فيما هو فيه من سكر وحشي بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً: «أصبحت لا تقوى على جر العربة، ولكنك ستجرها رغم أنفك. . . سأجبرك على ذلك أيها الحيوان القذر مت إن شئت، ولكن عليك أن تجر العربة!» وأخذ الحيوان يتخبط، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى إلا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة. . . على «عينيه الوديعتين» العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى. واستطاع الحيوان باندفاعة

مستميتة قصوى أن يتخلصّ من الوحل فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزى والعار، لا يكاد يستطيع أن يتنفس، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة في القلب. إن أشعار نكراسوف هذه تحدث في النفس أثراً رهيباً. والأمر مع ذلك أمر حيوان، ونحن نعلم أن الرب قد وهب لنا الخيول لنضربها، أو هذا على الأقل ما تعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكّرنا بهم. ولكن البشر يُضربون أيضاً. إنني أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته في ضرب ابنته الصغيرة وهي طفلة في السابعة من عمرها[24]. لقد دوَّنت الواقعة بجميع تفاصيلها. كان للعصيّ أشواك، فسُرَّ الأب من ذلك أعظم السرور. قال: «لتشعرين بالعقوبة شعوراً أقوى»... وأخذ يضرب ابنته. هناك أشخاص - وأنا أعلم ذلك علم اليقين - يسكرون من الضربات التي يكيلونها، ويبلغون من النشوة بها حدَّ اللذة الجسدية ويتمتّعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً. ضُربت الصبية دقيقة، فخمسَ دقائق، فعشر دقائق، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة. والصبية تصرخ وتبكي، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها: «بابا، بابا، بابا الحبيب!» وبمصادفة شيطانية غير لائقة، رُفعت القضية إلى المحكمة. واستعان الأبوان بمحام. إن الشعب الروسي يقول منذ زمن طويل: «المحامي ضمير يؤجر نفسه». وأخذ المحامي يصيح مدافعاً عن موكله أمام المحكمة: «أب أدَّب ابنته. فما هذا إلا حادث عادي شائع من حوادث الحياة العائلية. ومن عار هذا العصر الذي نعيش فيه أنه ظُن أن هذه القضية يجب أن ترفع إلى المحكمة!» وقد تأثر المحلَّفون أشد التأثر بأقوال المحامي، فمضوا يتداولون في الأمر، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة. وضجَّ الجمهور فرحاً حين سمع

الحكم ببراءة الجلاد. إنني لم أشهد المحاكمة، وإلا لاقترحت إنشاء صندوق إعانة، تكريماً لهذا الأب الجلاد!.. هذه لوحة جميلة يا أليوشا، غير أنني أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها، وهي تتعلق خاصة بالأطفال من الروس. إليك قصة بنيّة في الخامسة من عمرها، غضب منها أهلها، وهم «أناس محترمون، موظفون مثقفون، نشأوا نشأة كريمة وأُحسنت تربيتهم». أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص إلى تعذيب الأطفال، الأطفال وحدهم دون سواهم. إن هؤلاء الجلادين يبرهنون في تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين إنسانيين متنورين. ولكنهم في مقابل ذلك يجدون لذة كبيرة في تعذيب الأطفال، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة. إن منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التي لا تحسن الدفاع عن نفسها، ولا تعرف كيف تشتكي ولا إلى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية، يملك القدرة على إيقاظ القسوة الغريزية في نفوس أولئك المعذِّبين. لا شك أن في قرارة كل إنسان وحشاً نائماً، وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التي ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما إلى ذلك. ولنعد إلى أهل تلك البنية. لقد أنزل الأبوان المثقّفان في ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال. كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أي سبب، حتى انهدّ جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء. وشيئاً فشيئاً توصلا إلى صور من القسوة فيها كثير من التفنن. من ذلك أنهما أثناء الليالي الباردة كانا يحبسان الطفلة في

المرحاض، بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجتها في حينها (كأن طفلاً في الخامسة من عمره يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه الهادىء العميق في الوقت المناسب للذهاب إلى المرحاض)؛ وكانا يلطِّخان لها وجهها بغائطها نفسه «لتعليمها»، ويجبرانها على أن تبلع غائطها، وكانت أمها، أمها نفسها، هي التي تكرهها على ذلك! وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة في ذلك المكان الموبوء! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذي ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجري له، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين في غياهب الظلام والبرد ضارعاً إلى «الرب الرحيم» بدموع شقية بريئة أن يحميه؟ هل تستطيع أن تفهم علة وجود عالمٍ سخيف هذا السخف، باطل هذا البطلان مستحيل هذه الاستحالة. . قل لي يا صديقي ويا أخي. . . هي تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوره خالياً من الألم ومن الظلم اللذين يستطعيان وحدهما أن يهبا للإنسان معرفة الخير والشر! ألا بئست تلك المعرفة إذا كان ثمنها هذا الثمن! إن كل ما في العالم من علم لا يكفي للتكفير عن دموع تلك الطفلة التي تتوسل إلى «الرب الرحيم» أن ينجدها. لن أقول شيئاً عن الآلام التي يعانيها الكبار. فإن الكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة، فليجنوا جزاء ما فعلوا، وليأخذهم الشيطان جميعاً إذا كان الشيطان ما يزال يتابع أعمالهم ويهتم بأمرهم. . . أما الأطفال، أما الصغار الأبرياء، فما ذنبهم؟ ألاحظ أنني أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا. إن في وجهك

حزناً وشقاء. سأمسك عن الكلام إن شئت.

تمتم أليوشا يقول:

- لا... إنني أحب أن أتألم أنا أيضاً.

- لن أقصَّ عليك إلا قصة واحدة أخرى، لأنها شائقة جداً، ولأنها تتسم بطابع مميَّز حقاً. لقد قرأتها منذ زمن قصير في مجلة «الأرشيف» أو مجلة «الماضي الروسي»[25]، لا أتذكر على وجه الدقة... يجب التحقق من ذلك... لقد وقعت هذه القصة في أحلك عهود نظام القنانة عند بداية هذا القرن. عاش محرر الشعب[26]! كان يعيش في ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيانا واسعة. هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى في ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت. لقد وُجِد أمثال هؤلاء الرجال في الماضي. كان ذلك الجنرال يعيش في ضيعته التي يعمرها ألفان من الأقنان. وكان يصطنع الأبهة والعظمة، وينظر نظرة استعلاء إلى جيرانه المتواضعين، متظاهراً بأنه يعدهم مهرِّجين أو طفيليين. وكان يملك بضع مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم، لابسين زياً واحداً. ففي ذات يوم كان قن صغير هو صبي في الثامنة من عمره يتسلى برمي الأحجار. فإذا هو يصيب بإحداها الكلب الأثير لدى الجنرال، سهواً وغفلة. وسأل الجنرال مستطلعاً: «لماذا يعرج هذا الكلب الذي هو خير كلابي؟» فقيل له إنه قد جُرح بحصى رماها ذلك الصبي. قال الجنرال وهو يتفرس في الصبي: «أأنت السبب إذاً؟» ثم أضاف: «احبسوه!» انتُزع الصبي من أمه، وألقي في زنزانة مظلمة ضيقة لبث

فيها طوال الليل. وفي ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب إلى الصيد في احتفال عظيم. إنه يمتطي صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب ومطاردو الفرائس، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعاً. وأمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً، وجُعلت أم الصبي الجاني في أول صف من صفوفهم. وأخرج الصبي من زنزانته. كان ذلك في صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف، صباحٍ يبشر بصيد وافر. وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عارياً كل العري. إن الصبي يرتعش مصفراً من الخوف، ولا يجرؤ أن يفتح فاه... قال الجنرال آمرا: «اجعلوه يركض!»، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له: «اركض، اركض!»، فأطاع الصبي أمرهم وأخذ يركض... فإذا بالجنرال يعول صائحاً: «عليه!» مهيباً بكلابه أن تطارده، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي على مرأى من أمه!.. أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ. فما رأيك؟ أما كان يستحق أن يعدم رمياً بالرصاص؟ ألم يكن من الضروري إعدامه تهدئة للضمير الأخلاقي؟ هلاّ أجبت يا أليوشا!

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة:

– نعم كان يجب رميه بالرصاص.

فاندفع إيفان يقول بنوع من الحماسة:

– مرحى! ما دمت تقر بذلك أنت بنفسك، فلا بد... هاه... يا لرسول المحبة! ذلك إذاً هو الشيطان الذي تؤويه في قلبك يا أليوشا كارامازوف!

قال أليوشا:

- لقد قلتُ سخافة، ولكن...

صاح إيفان:

- ولكن... هذا هو الأمر: «ولكن»... أليس كذلك؟ ألا فاعلم أيها الراهب المبتدىء أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم. إن الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شيء وقد لا يحدث شيء. نحن نعلم ما نعلم!

- ماذا تعلم!

- لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف إيفان كلامه قائلاً في هذيان)، ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئاً. أريد أن أكتفي بالوقائع وأن أقتصر عليها. لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها. فلو حاولت أن أفهم إذاً لتشوّهت الوقائع فوراً، وأنا أحرص على أن أبقى في الواقع لا أخرج منه...

صاح أليوشا يقول بمرارة:

- لماذا تعذبني هذا التعذيب؟ هلاً قلت لي أخيراً..

- طبعاً سأقول لك. ذلك ما كنت أريد الوصول إليه منذ البداية. أنت عزيز في نفسي يا أليوشا، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيما بدون كفاح.

قال إيفان ذلك وصمت لحظة، وفجأة أصبح وجهه حزيناً جداً، ثم أردف يقول:

- أصغ إليّ الآن. لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً حتى يكون برهاني أكثر إقناعاً. ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الإنسانية التي تتبلل بها الأرض من... إنني أضيّق موضوع مناقشتنا عامداً. ما أنا إلا حشرة صغيرة من الحشرات. وإني لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزي

عن فهم نظام هذا العالم. هل يجب أن نؤمن بأن البشر مذنبون ومسؤولون وحدهم عن شرورهم؟ لقد وُهبت لهم الجنة، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم وسرقوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء، فلا داعي إذاً إلى أن نشفق عليهم ونرثي لحالهم. ولكن عقلي، عقلي البائس الإقليدسي الأرضي يؤكد لي، على عكس ذلك، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون، وأن جميع الأفعال الإنسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة، وأن كل شيء ينقضي آخر الأمر، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه. ذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلي الإقليدسي، أعرف هذا... وأنا لا أقبل أن أحيا وفقاً لهذا الوهم! فيم يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون؟ إنني في حاجة إلى قصاص وعدل، وإلا دمرت نفسي. وهذا القصاص الذي أطالب به، أنا لا أريده في «لا نهاية» لا يمكن الوصول إليها، وفي «أبدية» تفوقني، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض، أن أراه بعيني. لقد آمنت، وأريد أن أشهد انتصار الحقيقة! فإذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأبعث حياً! لسوف يسيء إليّ كثيراً أن يتحقق هذا المجد للإنسان في غيابي. هل تألمت أنا من أجل أن أمهِّد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن ينتفع به إلا آخرون؟ إنني أريد أن أرى الوعلة بعينيَّ مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام، وأن أرى الضحية مرتدة إلى الحياة تعانق قاتلها. أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف فجأة سرُّ هذا العالم للجميع. إن هذه الرغبة هي القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان، وأنا امرؤ مؤمن. ولكن الأطفال... ما ذنب الأطفال؟ كيف نسوِّغ عذاب الأطفال عندئذ؟ تلك مشكلة لا أجد إلى حلها سبيلاً. أعود فأقول لك للمرة المائة:

إن هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة، ولكنني اخترت هذه المشكلة، مشكلة الأطفال، لانها تتيح لي أن أعبِّر عما يشغل بالي ويقض مضجعي تعبيراً أوضح. قل لي: إذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهِّدوا بألمهم للانسجام الأبدي الكلي، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضاً؟ لماذا حُبس الأطفال في هذه الدائرة، لماذا يجب عليهم هم أيضاً أن يساهموا في الانسجام بعذابهم؟ ذلك أمر لا سبيل إلى فهمه إطلاقاً. لماذا أصبحوا هم أيضاً مادة لتسميد الانسجام القادم لأناس آخرين؟ قد أُسلِّم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا في الخطيئة فإن قيل إنهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وإنهم متضامنون إذاً مع آبائهم في هذه الخطايا قلت: هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل! رُبَّ مازح خبيث يعترض بقوله إن الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان الوقت ولكنني أقول إن ذلك الصبي الذي ما يزال في الثامنة من عمره لما يشتد ساعده بعدُ وقد مزقته الكلاب! آه يا أليوشا أن يكون في نيتي أن أجدِّف! إنني أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين ستدوي أصوات السماء والأرض جميعاً منشدة نشيد الشكر معاً وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين: «أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقك!» سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذي أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان: «أنت على حق يا رب»، ستنجلي عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة. ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأنني لا أستطيع أن أقبل حلاً كهذا الحل. وأنا أسارع إلى اتخاذ إجراءات ما زلت في

هذا العالم. قد يحدث يا أليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائي للحقيقة أو حين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصبح أنا أيضاً مع الجميع إذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحون: «أنت على حق يا رب!» ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك عندئذ، وأحرص على أن أحمي نفسي سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب تراني أتنازل تنازلاً حاسماً عن الانسجام الأعلى. إن هذا الانسجام لا يعدل في رأيي دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب حتى الموت الذي كان يلطم صدره بقبضتي يديه في مكان موبوء ويضرع إلى الله الرحيم من خلال دموعه التي لا يكفِّر عنها شيء! نعم ما من انسجام مقبل سيكفِّر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها وإلا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها؟ ما الذي يمكن أن يمحوها؟ أهو القصاص الذي سينزل بالجاني؟ فيم يهمني هذا القصاص؟ إنني لا أريده! فيم يهمني تعذيب الجلادين في الجحيم، إذ لن تغيّر من الأمر شيئاً إذا كان الأطفال قد عذِّبوا حتى الموت؟ وأين عسى أن يكون الانسجام إذا كان ثمة جحيم؟ إنني أحب أن أغفر وأن أصالح. إنني أتمنى أن لا يبقى في الكون عذاب. فإذا كانت آلام الأطفال أمراً لا بدّ منه لإكمال مقدار الألم الذي سيكون فدية للحقيقة فإنني أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظاً إلى هذا الحد.. إنني لا أريد أخيراً أن تصالح الأم الجلاد الذي أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها! ليس من حقها أن تغفر له. لها أن تتغاضى عن ألمها هي إذا شاءت، وعن عذاب الأم العظيم الذي قاسته، لها أن لا تحقد على الجاني، ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذي نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها! فإذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن

من حق الضحايا أن تغفر فأين الانسجام؟ هل في الكون فرد في وسعه ويجب عليه ومن حقه أن يغفر؟ إنني لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالإنسانية. إنني أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير. إنني أؤثر أن يظل ألمي بغير فدية وأن يظل استيائي متأججاً بغير ارتواء ولو كنت على خطأ. إن الثمن المطلوب للانسجام باهظ جداً وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن، إن بطاقة الدخول غالية مسرفة في الغلاء. لذلك أسارع فأردُّ بطاقتي. إنني أشعر بأن عليَّ أن أردها بأقصى سرعة إذا اعتبرتُ نفسي إنساناً شريفاً، وذلك ما أفعله. إنني لا أجحد الرب يا إيفان فيدوروفتش وإنما أقتصر على أن أعيد إليه بطاقتي بكثير من الاحترام.

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه:

- هذا تمرد.

فقال إيفان بلهجة نافذة مؤثرة:

- تمرد؟ لا أحب أن تحكم عليَّ أنت هذا الحكم. إن من المستحيل على المرء أن يحيا في تمرد، وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا. أجبني عن سؤال ولكن أجبني بصراحة. فإنني أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال: لو كنت مهندس المصائر الإنسانية وأحببت أن تبني عالماً تجد فيه الإنسانية السعادة والهدوء والأمن أخيراً أفتشرع في هذا العمل إذا علمت أنه لن يتحقق إلا إذا كان العذاب ثمنه، ولو لم يكن إلا عذابَ إنسان واحد صغير بريء هو مثلاً تلك الطفلة التي كانت تلطم صدرها بقبضتي يديها؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم إلا على تلك الدموع التي لا فدية لها تذرفها تلك البنية الصغيرة، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظل توافق على أن تكون مهندس

الكون في تلك الشروط؟
أجاب أليوشا بصوت خافت:
- لا. . . لا أوافق.
- وهل في وسعك أن تسلِّم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبني لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل بريء وأن يعرفوا السعادة إلى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك؟
- لا. . . لا أستطيع أن أسلم بهذا.
كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه:
- أخي لقد سألتني منذ لحظة هل في الكون كائن في وسعه ويجب عليه ومن حقه أن يغفر؟ إن هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البريء للإنسانية بأسرها. لقد نسيته أنت وهو هو الذي يقوم عليه البناء كله وهو الذي سيهتفون له: «أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقك».
- آه. . . إنك تتكلم عن «ذلك المبرأ وحده من الخطيئة» وعن دمه! لا يا أليوشا أنا ما نسيته وإنه ليدهشني أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمثالك في العادة يبرزون هذه الحجة منذ بداية المناقشة، اسمع يا أليوشا هل تعلم أنني نظمت قصيدة في ذات مرة؟ لا تسخر مني لقد فعلت ذلك منذ سنة فإذا وافقت على أن تضيّع في صحبتي عشر دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة.
- كتبت قصيدة؟
- لا لم أكتبها (كذلك أجاب إيفان ضاحكاً) ولا كنت قادراً في يوم من الأيام على أن أُسطِّر بيتين من الشعر ولكنني تخيلت هذه القصيدة وحفظتها في فكري. لقد تصوّرتها وأنا في نوع من ثورة

النفس وستكون أنت أوّلَ قرائي أو قل أول المستمعين إليَّ. ولماذا يجب على المؤلِّف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذي يملك أن يتلو عليه ما ألّف (كذلك أضاف إيفان مبتسماً) أأقول قصيدة أم لا؟

أجاب أليوشا:

- إنني أصغي إليك باهتمام وشوق.

- عنوان القصيدة «المفتش الأكبر». هي قصة خياليّة ولكن أودّ أن أقصها عليك.

- 5 -

المفتش الأكبر

بدأ إيفان كلامه يقول:

- لا بد من مقدمة. هذا من التقاليد الأدبيّة (قال إيفان ذلك ضاحكاً). ألست مؤلفاً أنا أيضاً؟ إن الأحداث تجري في القرن السادس عشر. ولقد كان رائجاً في ذلك الزمان إدخال القوى السماوية في القصائد، كما لا بد أنك تعلّمت ذلك في المدرسة. يكفي أن أذكّرك، حتى دون أن استشهد بمثال دانتي، بأن موظفي المحاكم والرهبان في الأديرة في فرنسا كانوا يقدمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون، ويظهر فيها المسيح، ويظهر فيها حتى الله نفسه. تمثيليات ساذجة وقد وصف فكتور هوجو في روايته «Notre Dame de Paris»[27] تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب في قاعة دار البلدية في عهد لويس الحادي عشر احتفالاً بميلاد ابنه البكر[28]، وكان عنوان التمثيلية هو الحكم الصائب للعذراء مريم المقدّسة النعمة»[29]، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لإصدار الحكم السديد. وعندنا في موسكو[30]، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت تمثيليات من هذا النوع تُمثّل من حين إلى حين، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة. وعدا هذه التمثيليات، فقد انتشرت في العالم طائفة من الأقاصيص أو «القصائد» يظهر فيها القديسون

وتظهر فيها الملائكة والقوى السماوية كلها، تبعاً للحاجات. وفي أديرتنا كانت تُترجم وكانت تنسخ أشياء كثيرة، بل لقد كانت تُؤلف قصائد في بعض الأحيان، حتى في عهد الاحتلال التتري. فكذلك على سبيل المثال، أحتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعاً) عنوانها: «درب الآلام للعذراء»، مليئة بلوحات تكاد تبلغ في جرأتها وجسارتها لوحات دانتي. ففي تلك القصائد تذهب العذراء إلى المعذبين في الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل، فترى الخطأة وترى ما يقاسون من عذاب أليم، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطأة تتخبط في بحيرة مشتعلة، فالذين يغوصون في هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك إلى سطحها قط، ويقال عنهم «إن الله قد نسيهم»، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة، وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية، فسقطت باكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبي الجحيم، وأن يغفر لهم جميعاً بغير تمييز. إن حديثها مع الرب شائق جداً، فهي تتضرع إليه وتلحّ وتأبى أن تنصرف، فإذا أومأ الرب إلى قدمي ويدي ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها: «كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين»، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخَطَأة بغير استثناء. واستطاعت أخيراً أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كلّ سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين، وأن يسارع المعذبون عندئذ إلى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل: «أنت على حق يا رب، وعادل حكمك». إن قصيدتي أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أنني عشت في ذلك العصر. إن الرب يظهر في قصتي، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح، لقد انقضى خمسة عشر

قرناً منذ أن وعد بأن يعود إلى مملكته، منذ أن كتب رسوله: «سأعود قريباً»[31] «أما اليوم والساعة فإن الابن نفسه لا يعرفهما، وإنما يعرفهما أبي الذي في السموات»، على حد الأقوال التي نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالأرض. ولكن الإنسانية ما تزال تنتظره بإيمان واحد وحماسة لم تتغير، بل إن الإيمان قد قوي واشتد، لأن خمسة عشر قرناً قد انقضت منذ أن كفت السماوات عن بذل رهائن للبشر.

صدق صوت قلبك أيها الإنسان
إن السموات لا تبذل ضمانات[32].

فلا إيمان إلا بما يقوله القلب! صحيح أن المعجزات كانت كثيرة في ذلك العصر. فلقد كان هنالك قديسون يبرئون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة، وإذا صدق ما يروى في سِيَر بعض الصالحين، فإن ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها. ولكن الشيطان لم ينم، وأخذت الإنسانية تشك في صدق هذه المعجزات. وظهرت عندئذ هرطقة جديدة رهيبة في شمال ألمانيا[33] فإذا بكوكب كبير «شبيه بشعلة» (هو الكنيسة طبعاً) «يسقط على نبع المياه فتصبح المياة مرة». لقد كان أولئك المجدِّفون الهراطقة ينكرون المعجزات. فازداد إيمان المؤمنين، واشتدت حماستهم. وأخذت الإنسانية ترفع أعينها الدامعة إلى الرب منتظرة مجيئه، محبة إياه بقلب حار، مؤمّلة فيه، ظامئة إلى التألم من أجله والموت في سبيله، كما حدث في الماضي... إن صلوات البشر ترتفع إلى السموات حارة منذ قرون طويلة قائلة له: «تفضّل بالمجيء إلينا يا رب»، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة، أن يعود إلى أولئك الذين يضرعون إليه هذه الضراعة. لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تُروى

سيرة حياتهم. وفي بلادنا روسيا تغنّى الشاعر تيوتشيف به في هذه الأبيات (وكان يؤمن إيماناً عميقاً بما يقول):

أيتها الأرض التي ولد فيها ملك السموات[34]
لقد طاف في كل جهة من جهاتك في صورة عبد،
منحنياً تحت ثقل صليبه،
يهب لك بركته الواسعة.

ذلك كله صحيح، أؤكد لك. لقد قرر الرب أن يظهر، في هذه المرة لا لأفراد من القديسين، بل للشعب بأسره، لجمهرة الناس المغمورين الذين يتألمون في خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلوب ساذجة كقلوب الأطفال. أحداث قصيدتي تجري في إسبانيا، بمدينة إشبيلية، في أحلك عهود «التفتيش»، حين كانت أكوام الحطب تشتعل لإحراق المتهمين كل يوم في جميع أرجاء إسبانيا تمجيداً للرب:

في نيران رائعة[35]
كان يحرق الزنادقة الأشرار.

لم يكن يقصد في هذه المرة أن يرجع إلى الأرض ذلك الرجوع الذي سيكون، حسب وعده في الكتب الدينية، في آخر الدهور، فيتجلى فجأة بكل مجده السماوي «كبرق يسطع من الشرق إلى الغرب»[36]. فكل ما كان يريده هو أن يقضي بضع لحظات عابرة بين أبنائه في تلك الأماكن نفسها التي تزفر فيها النيران الموقدة لإحراق الهراطقة. لقد أراد بدافع من رحمته اللانهائية أن يظهر مرة أخرى بين الناس في الصورة الإنسانية التي اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرناً خلال حياته الأرضية التي دامت ثلاثة وثلاثين عاماً. فهكذا نزل إلى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية التي تم فيها أمس، بأمر

الكاردينال، المفتش الأكبر، إحراقُ حوالى مائة من الزنادقة، تمجيداً لله، بمعاونة الأهالي[37] وبحضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات والجماهير الغفيرة من أبناء المجتمع وأهالي إشبيلية. وقد ظهر الرب خفية بدون ضوضاء، ولكن الأمر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه. وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة: لماذا عرفه الناس جميعاً؟ لقد انجذب إليه الجمهور بقوة لا تقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية له. إن شمس المحبة تتقد في قلبه، ومن عينيه تشعّ أشعة الضياء والتنوير والقوة فتنتشر في المؤمنين وتشعل المحبة فيهم، وهو يمدّ ذراعيه نحو الشعب ليباركه. إن ملامسته، وحتى ملامسة ثيابه، تملك القدرة على إبراء المرضى. فهذا شيخ من الجمهور، أعمى منذ طفولته، يهتف قائلاً على حين فجأة: «ردّ إليّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك» فما هي إلا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو يرى الرب. وبكى الشعب تأثراً، وأغرق بالقبلات الأرض التي مشى عليها. وأخذ الاطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين: «المجد لله» وتعالت الصيحات من كل جانب تقول في حماسة: «إنه هو، إنه هو، لا يمكن إلا أن يكون إياه». ووقف في الساحة أمام كاتدرائية إشبيلية لحظة كان يؤتى إلى المعبد، بين عبرات الحضور، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان بنية في السابعة من عمرها هي البنت الوحيدة لرجل من عيون سكان المدينة. ان الطفلة الميتة مغطاة بالأزهار. صاح الجمهور يقول للأم المحزونة: «سيحيي لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قد تقدم نحو التابوت، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه. فأجهشت أم البنيّة الميتة باكية وارتمت على قدمي

المسيح وضرعت إليه وهي تمد نحوه ذراعيها قائلة: «إذا كنت أنت هو حقاً، فأحيي ابنتي!» توقف الموكب، ووضع التابوت على البلاطات عند قدميه. فألقى على جثمان البنت نظرة تفيض بالعطف، وتحركت شفتاه في رفق تقولان مرة أخرى» «قومي أيتها البنية»[38] فما أن نطق بهذه الكلمات حتى انتصبت الطفلة في التابوت، وجلست مبتسمة، ونظرت حولها بعنين محملقتين مدهوشتين. إنها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها. اضطرب الجمهور وصاح وبكى. وفي تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال المفتش الأكبر في الساحة أمام الكاتدرائية. إنه شيخ في نحو السنة التسعين من عمره، طويل الجسم، منتصب القامة، معروق الوجه، غائر العينين، غير أن في عينيه شعلة تسطع. إنه لا يرتدي الآن ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذي ظهر به للشعب في الليلة البارحة حين كان يُرمى إلى النيران أعداء الكنيسة الرومانية. وإنما هو يلبس في هذه اللحظة ثوب الراهب، المصنوع من خشن الصوف. وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وعبيده وحرس «القداسة». وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد. لقد رأى كل شيء، رأى التابوت عند قدمي المسيح، ورأى البنية تُبعث حية، فأظلم وجهه واكفهر. إنه يقطّب حاجبيه الكثيفين الأبيضين، وإن بريقاً متوحشاً كاسراً يومض في عينيه. وها هوذا هو يشير إلى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه. إن هذا الرجل الذي عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع إراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الحرس، فإذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذي خيّم على حين فجأة، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه. وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الأكبر

الذي بارك الجمهور صامتاً وانصرف. أُخذ السجين إلى المبنى العتيق الذي تقع فيه المحكمة المقدسة، وحُبس في زنزانة مظلمة ضيقة مقبّبة. انقضى النهار، وهبط الليل. هي ليلة من ليالي إشبيلية تلك الحالكة الخانقة الحارة. «الهواء معطر بعبق أشجار الرّند والليمون[39]». وفجأة، في الظلمات، فُتح باب الزنزانة الحديدي، وتقدم المفتش الأكبر العجوز يسير في الممر ببطء حاملاً بيده مصباحاً. هو وحده، وما إن يدلف حتى يُغلق الباب خلفه فوراً. وقف لحظة على عتبة الزنزانة وتفرس في وجه السجين طويلاً. ثم اقترب منه آخر الأمر بخطى خافتة، ووضع المصباح على المنضدة وقال له: «أهذا أنت إذن؟ أهذا أنت؟»

- ولكنه حين لم يتلقَّ جواباً أسرع يضيف: - اسكت! لا تقل شيئاً! وما عساك تقول لي؟ إنني أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لي. وبأي حق تريد أن تضيف أي شيء إلى ما سبق أن قلته؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب في حياتنا؟ ذلك أنك إنما جئت لتعرقل عملنا، وأنت لا تجهل ذلك. فهل تعلم مع هذا ما الذي سيقع غداً؟ إنني لا أعرفك. ولا أريد أن أعرفك. أأنت هو حقاً، أم لست إلا طيفه؟ سيان... لأنني سأحكم عليك بالإعدام وسآمر بإحراقك مثلما آمر بإحراق أسوأ الزنادقة. إن ذلك الجمهور نفسه الذي كان يقبّل قدميك منذ بضع ساعات، سيهرع غداً، بإشارة بسيطة مني، فيرى لهيب النار، هل تعلم ذلك؟ - ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول سأرد الفكر، نافذ النظرة، متأمّلاً دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة: - لا شك أنك تعلم ذلك».

قال أليوشا الذي كان إلى ذلك الحين يصغي إلى أخيه صامتاً، قال وهو يبتسم:

- لست أفهم جيداً يا إيفان. أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك الذي لا يعرف الحدود، أم تريد أن تقول إنها خطأ من أخطاء الشيخ وقد خدعه ظنه، وأن لبسة ما قد أظلّته؟

قال إيفان ضاحكاً:

- لنسلّم بأن افتراضك الأخير صحيح، وبأن هناك لُبسة ما دامت واقعية هذا العصر قد دمغتك أنت أيضاً إلى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية. لنفرض أن هناك لبسة ما، إذا كنت تحرص على ذلك.

ثم أردف إيفان يقول وهو يضحك مرة أخرى:

- يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو في التسعين من عمره، وأن من الجائز أن يكون قد جنّ منذ زمن طويل في عزلته المستعلية. ولعل منظر السجين قد أدهشه. ولعل هذا كله لم يكن أيضاً إلا هذيان رجل عجوز قد أهاجه إحراق المائة زنديق الذين أحرقوا في الليلة البارحة، أو هلوسة من تلك الهلوسات التي تسبق الموت في بعض الأحيان. وإنه ليستوي على كل حال أن يكون الأمر أمر تهاويل خيالية أو أمر qui pro quo[40] (لُبسة)، المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة، وهو في التسعين من العمر، سيقول ما في قلبه وما فكّر فيه صامتاً طوال حياته.

- والسجين؟ أهو صامت؟ أهو ينظر إلى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة؟

قال إيفان شارحاً وهو مازال يضحك:

- على هذا النحو إنما يجب أن تجري الأمور. ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئاً إلى ما سبق أن قاله في الماضي؟ بل إن هذا في رأيي سمة من السمات الأساسية للكاثوليكية

الرومانية: «لقد عهدت برسالتك إلى البابا، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن. فلا تأت إلينا لتعرقل عملنا، وتبث القلق والإضطراب في حياتنا بغير طائل، لا تأت الآن لا تأت قبل الساعة المحدّدة على كل حال». فهذا ما لا يقوله فحسب، بل يكتبه صانعو الكنيسة الرومانية، أو هذا ما يقوله ويكتبه اليسوعيون على الأقل. لقد قرأت هذا بنفسي في كتب لاهوتييهم. إن العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال: «هل من حقّك أن تكشف لنا ولو عن سر واحد من أسرار العالم الذي جئت منه؟»

- ثم لم ينتظر جوابه، بل أضاف يقول فوراً:

- لا... ليس من حقك أن تفعل هذا... ولا حتى أن تضيف شيئاً إلى ما سبق أن قلت في الماضي، وذلك حتى تحرم البشر من تلك الحرية التي كنت تقدرها قدراً عظيماً حين عشت على الأرض. إن كل قول جديد قد تأتي به سيسيء إلى حرية الإيمان، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات، وقد كانت حرية إيمانهم أعز شيء لديك آنذاك منذ خمسة عشر قرناً. ألم تكن تردد على مسامعهم مراراً: «أريد أن أجعلكم أحراراً»؟ وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكّرة على حين فجأة: - ولقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر «الأحرار»... إن هذه الحرية هي من صنعنا، وقد كلّفتنا جهوداً لا نهاية لها - كذلك أضاف العجوز وهي يلقي على السجين نظرة قاسية - ولكننا أتممنا عملنا أخيراً باسمك. لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحرية، ولكن الأمر انتهى الآن، انتهى تماماً. ألا تظن أنه انتهى إلى الأبد؟ إنك تنظر إليّ بوداعة ولين ورفق، فلا شك أنك تقدّر أنك إن أظهرت استياءك كنت تشرفني تشريفاً لا أستحقه! ألا فاعلم إذاً أن البشر هم في هذا اليوم

بعينه أشدّ اقتناعاً منهم في أي وقت مضى بحريتهم الكاملة، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بكثير من الطاعة. ذلك هو عملنا. أهذه هي الحرية التي كنت تنشدها لهم؟»

قاطعة أليوشا مرة أخرة قائلاً:

- مرة أخرى أصبحت لا أفهم. أهو يسخر؟ أهو يتهكم؟

- كلا... إنه لا يسخر ولا يتهكم أبداً: إنه يتباهى، لنفسه ولصحبه، بأنهم أوقفوا نموّ الحرية، وأنهم فعلوا ذلك من أجل أن يجعلوا الناس بذلك سعداء. «ذلك أننا الآن، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للإنسانية بالسعادة (إنه يتكلم طبعاً باسم محاكم التفتيش). إن الإنسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد. ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء؟ لقد نُبهت إلى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها، ونبذت الطريق الوحيدة التي كان يمكن أن تقود البشر إلى السعادة. ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الأرض عهدت إلينا بمهمة إتمام رسالتك. لقد كلّفتنا بأن نوجّه الإنسانيّة وأن نرشدها بذلت لنا وعدك، وأقمت سلطتنا على كلمتك، ووهبت لنا حق العقد والحل، ولن تستطيع طبعاً أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن. فلماذا جئت تعرقل عملنا في هذا العالم؟».

قال أليوشا سائلاً:

- ماذا كان يعني بقوله إن النصائح والتحذيرات لم تعوزه؟

وأجاب إيفان:

- ذلك هو العنصر الأساسي في التفكير الذي كان العجوز يريد أن يعرب عنه.

تابع العجوز يقول: «إن الروح الرهيب الذكي، روح الدمار

والعدم، قد خاطبك في الصحراء[41]، وتروي الكتب المقدسة أنه «كان يغويك» أليس كذلك؟ هل نستطيع في الواقع أن نتخيل حقائق أكبر من الحقائق التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ، والكتب المقدسة تصفها بأنها «غوايات». ومع ذلك، لئن وُجدت على هذه الأرض في يوم من الأيام معجزة كبرى، معجزة صادقة، فإن تلك المعجزة إنما تحققت في ذلك اليوم بعينه، في يوم تلك الغوايات الثلاث. لقد كانت تلك الأسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت. لنتصور، على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها إلى النصوص المقدسة. لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الأرض - رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء - وقلنا لهم: أوجدوا لنا، تخيلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تلخص بالإضافة إلى ذلك، في ثلاث جمل إنسانية بسيطة، كل مستقبل العالم والإنسانية، فهل تظن أن كل حكمة الأرض المجتمعة في هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ولو من بعيد شيئاً يشبه بقوته وعمقه، تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي الذكي؟ إن تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة، أعني كون الأسئلة قد أُلقيت، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل إنساني عادي، بل أمر فكر خالد مطلق. ذلك أنها تضم في ذاتها، تشتمل في ذاتها على كل التاريخ المقبل للإنسانية، وتقدم رموزاً ثلاثة تتركز فيها جميع تناقضات الطبيعة الإنسانية، التي لا سبيل إلى حلها. إن تلك الحقائق لم تكن ظاهرة

آنئذ ظهوراً واضحاً، لأن التطور الذي تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفاً، أما الآن، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً، فإننا نرى أن كل ما تضمنته في تلك الأسئلة الثلاثة قد تحقق تحقّقاً يبلغ من الكمال والتمام درجة أننا لا نستطيع معها أن نضيف أو أن نحذف شيئاً بعد اليوم.

فاحكم في الأمر بنفسك: من ذا الذي كان على حق، أأنت أم سائلك؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة، لا نصّه بل معناه العام: «تريد أن تمضي إلى الناس، وأنت تمضي إليهم خالي اليدين إلا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن يفهموه، عدا أنهم بالإضافة إلى ذلك يخشونه ويخافون منه، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك في يوم من الأيام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحرية. هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة المحرقة؟ حوّلها إلى خبز تهرع إليك الإنسانية كقطيع جائع، وتصبح شاكرة لك مطيعة إياك، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من أن تسحب يدك وأن تُحرم هي من خبزك». غير أنك لم تشأ أن تحرم الإنسان من الحرية، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقد أجبت بقولك: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. أفكنت تجهل إذاً أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه، وأنه سيقاتلك ويغلبك؟ وأن الجميع سيتبعونه قائلين: «من ذا الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذي وهب لنا نار السماء؟» لسوف تنقضي قرون، فيأتي يوم تنادي فيه الحكمة الإنسانية وينادي فيه العلم الإنساني بأن الشر لا وجود له، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!»

بهذه الصيحة إنما سيحملون الراية ضدّك وسيقوّضون معبدك. وسيقيمون في مكانه مبنى آخر، هو «برج بابل» ثانٍ مهدّد. صحيح أن البناء لن يتم، كما لم يتم في المرة الأولى، ولكن كان في وسعك مع ذلك أن توفر على الإنسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة. ذلك أن البشر إنما سيتجهون إلينا نحن بعد أن يجهدوا في بناء برجهم مدة ألف سنة! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي نكون قد لجأنا إليها (لأننا سنُضطهد وسنعذّب من جديد)، سيجيئون قائلين لنا: «أطعمونا، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا». وسننهي عندئذ بناء البرج، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى النهاية. وسوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا، وسوف نطعمهم باسمك، كاذبين عليهم بأننا نفعل ذلك باسمك، ونستمد قوتنا منك. بدوننا لن يستطيعوا أن يطعموا أنفسهم أبداً! لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحراراً، ولكنهم سينتهون إلى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين: «استعبدونا ولكن أطعمونا». سيدركون هم أنفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الأرض، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته، لأنهم لن يتوصلوا إلى اقتسامه بالعدل في يوم من الأيام. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحراراً، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون إلى التمرد والعصيان. لقد وعدتهم بخبز السماء، ولكنني أسألك مرة أخرى: هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر هؤلاء البشر الذين سيظلون إلى الأبد فاسدين عاقّين؟ إذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدة لأن تتبعك في سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تحس بأنها قادرة على أن

تتنازل عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء؟ أتراك لا تعطف إلا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية، وهل يجب على ملايين البشر، هل يجب على الجموع التي لا نهاية لعددها، كرمل البحر، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضاً، أن لا يكونوا إلا مادة للكبار والأقوياء؟ إننا نحن نرى غير هذا الرأي، وإن الضعاف هم أيضاً أعزة على قلوبنا، إنهم شريرون عصاة، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون في آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعاً. سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء الحرية وأن نسيطر عليهم، فإلى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة في نظرهم بتقدم الزمن! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم هكذا يطيعونك أنت وبأننا نحكمهم باسمك. سوف نكذب عليهم في هذه النقطة أيضاً، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل في شؤوننا. وسيكون هذا الكذب الضروري عذابنا. ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول في الصحراء، وقد رفضت نداء الروح الجبّار باسم الحرية التي وضعتها في أعلى منزلة، وفضلتها على كل شيء. ولقد كان ذلك السؤال يخفي مع ذلك كل سرّ العالم. فلو قد رضيت أن تعطي الخبز، إذاً للبّيت ما تنتظره الإنسانية انتظاراً منذ عهود سحيقة، ولهدّأت القلق الذي يعذّب الفرد ويعذّب الجماعة كليهما: «من نطيع؟» فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى لدى الإنسان الذي أصبح حراً من همّ العثور على سيد يعبده بأقصى سرعة. ولكن الإنسان يتطلع إلى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى إجماعي. إن حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست إلى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد، وإنما إلى

اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع، ويمكن أن ينحني لها الناس كافة. فهذه الحاجة إلى الاشتراك في العبادة هي بعينها الهمّ الرئيسي الذي يعذّب كل فرد ويعذب الإنسانية جملة، منذ أقدم عهود التاريخ. فباسم هذا التطلع إلى العبادة الجماعية المشتركة إنما أفنت الشعوب بعضها بعضاً خلال الأحقاب. كانت الشعوب تصنع آلهة ثم تأخذ تتشاتم: «اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا. وإلا فالموت لكم ولآلهتكم!» وسيبقى الحال على هذا المنوال إلى نهاية العالم، وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لأصنام جديدة. ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسي من أسرار الطبيعة الإنسانية، فليس يمكن أن تجهل هذا السر، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوة جذب مطلق والتي قدّمت لك لتؤدي بجميع البشر إلى الانحناء أمامك بغير تردد - أعني راية الخبز الأرضي- لقد أقصيت هذه الرأية باسم الحرية وباسم الخبز السماوي. فانظر إذاً فيما صنعت بعد ذلك! انظر فيما فعلت باسم الحرية! أعود فأقول لك إنه لا قلق أرسخ في قلب الإنسان من قلق الحاجة إلى العثور على من يستطيع أن يضحّي له سريعاً بالحرية التي وُهبت له، هو المخلوق التعيس منذ ولد. ولكن لا سبيل إلى التصرف في حرية البشر إلا بتهدئة ضميرهم. ولقد كان في وسعك أن تتخذ الخبز راية لا تخطئ. أطعم الإنسان يُطعمك، فليس هناك في هذا العلم ما هو أعزّ على الجحود أكثر من الخبز. ولكن إذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذي يكون قد أغوى نفوسهم وأخضعها. في ذلك كان رأيك صحيحاً. إن سرّ الوجود الإنساني ومبرره ليس في إرادة الحياة، بل في الحاجة إلى معرفة السبب الذي يدعو الإنسان إلى الحياة. فالإنسان ما لم يكن

على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يوجد في العالم بل يؤثر أن يدمّر نفسه، ولو ملك الخبز وافراً كل الوفرة. تلك هي الطبيعة الإنسانية. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الإنسانية أردت لها مزيداً من النمو! فهل نسيت إذاً أن الإنسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار في معرفة الخير والشر؟ لاشيء يخلب اللب للوهلة الأولى أكثر من حرية الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يعذب الإنسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية. فبدلاً من أن تحمل للإنسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية لتهدئة ضميرها، وبدلاً من أن توفّر لها هذه الأسس إلى الأبد، عرضت عليها ما في هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الإنسانية، وكنت في عملك هذا كأنك لا تحب البشر اطلاقاً، أنت الذي إنما جئت مع ذلك لتضحي من أجلهم بالحياة! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الإنسانية وسّعتها، وبذلك أثقلت، بآلامها على ملكوت الإنسان النفسي. أردت من البشر أن يمنحوك حبهم أحراراً، وأن يتبعوك بإرادتهم، مفتونين بشخصك. ألغيت القانون القديم الذي كان وطيداً راسخاً، فأصبح على الإنسان أن يميّز الخير والشر نفسه، مستلهماً حكم قلبه، غير مسترشد في تردده إلا بصورتك أمام عينيه. أفلم تتنبأ إذاً بأن البشر سينوؤون بهذا الرهيب، حمل حرية الإرادة، فإذا هم آخر الأمر ينبذون في يوم من الأيام صورتك ويشكون في حقيقتك وتعاليمك؟ لسوف ينادون في النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك، فمن المستحيل إلقاؤهم إلى اضطراب أشد وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب الذين ألقيتهم إليهما حين تركت لهم كل هذه الأنواع من القلق، وكل هذا العدد من المشكلات التي لا سبيل إلى حلّها. لقد زوّدتهم أنت

نفسك الأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها. فهل هذا ما عُرض عليك مع ذلك؟ ليس على الأرض إلا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب إلى الأبد على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف، وأن تفعل ذلك من أجل سعادتهم، وهذه القوى هي: المعجزة، والسر، والهيبة. ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعاً وعلّمت البشر بقدوتك أن يحتقروها. فحين نقلك الروح الرهيب الداهية إبليس إلى سطح المعبد وقال لك: «إذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فالق بنفسك في الفضاء، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك»[42]، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك في الفضاء. صحيح أنك تصرفت في تلك اللحظة تصرفاً فيه ما في تصرف الله من عظمة وجلال، ولكن هل تتصور أن البشر، وهم جنس ضعيف متمرد، يملكون من القوة الروحية ما يملكه إله؟ لقد فهمت في تلك اللحظة أنه بخطوة واحدة، بمجرد حركة بسيطة هي أن تهم بإلقاء نفسك في الفضاء كانت ستعني إغراء الرب، فلو قمت بها لكنت، بطلب المعجزة، تبرهن على قلّة إيمانك، فإذا حُرمت من الإيمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التي جئت لتخلصها وتنقذها، ويهلل الروح المحتال الذي كان يغريك جذلاً وطرباً. ولكنني أعود فأسألك: هل أمثالك كثير في هذا العالم؟ هل وقع في وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضاً فوق إغراء من هذا النوع؟ هل في طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب الحرّ وحده في الساعات العصيبة من الحياة، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التي تعرض للنفس؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولي سيحفظ بالكتب المقدسة

إلى آخر العصور وأبعد حدود الأرض، وكنت تأمل أن يقتدي البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات. ولكنك لم تقدّر أن الإنسان متى جحد أسرع بجحد الرب، لأن ظمأه هو إلى العجائب لا إلى الرب، وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات، سيخلق بنفسه معجزات، فيهوي، ولو كان متمرداً وكافراً وملحداً، إلى خرافات سخيفة وتنطلي عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم. إنك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور إلى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء: «انزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت». إنك لم تنزل، لأنك مرة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة، وإنما أردت أن يجيئوا إليك بتأثير الإيمان الحر لا بتأثير الإيمان الذي تلده العجائب. كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحراراً لا أن ينصاعوا لك عبيداً أذهلهم جبروتك. هنا أيضاً أسرفت في تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم، ذلك أن البشر عبيد، رغم أنهم مفطورون على التمرد. انظر فيما حولك: ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرناً؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم إلى مستواك؟ أحلف لك أن الإنسان أضعف وأسوأ مما ظننت؟ هل يستطيع هو الوضيع أن يحقق ما حققته أنت؟ إنك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه، لأنك سألته فوق ما يطيق، أنت الذي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنك قدّرته أقل مما قدّرته إذاً لطلبت منه أقل مما طلبت، ولكان موقفك عندئذ أقرب إلى المحبة، لأن العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً. إن الإنسان ضعيف وضيع. لا يهمني أن يكون الآن قد ثار في كل مكان على سلطتنا، وأنه يرى في عصيانه هذا مجداً يعتز به. ذلك غرور طفل، ذلك غرور تلميذ. إن البشر يشبهون تلامذة صغاراً

ثاروا في المدرسة وطردوا معلمهم. ولكن فرحتهم لن تدوم، وستكلفهم ثمناً باهظاً. سوف يهدمون المعابد، وسوف يجري الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدركون عندئذ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء، أنهم إن خُلقوا عصاة متمردين، فليس يتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً في التمرد والعصيان، وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذي وهب لهم روح العصاة قد غرر بهم وسخر منهم. سيقولون هذا محزونين مكروبين، سيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضاً، لأن الطبيعة الإنسانية لا تحتمل التجديف، ولا بد أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر. القلق، الاضطراب، العذاب، ذلك هو المصير الذي كتب على البشر الآن، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته في الماضي من أجل أن تهب لهم الحرية! إن رسولك الكبير(43) روى أنه أبصر، في رؤيا، جميع المشركين في البعث الأول، فرأى اثنى عشر ألفاً من كل سبط. لقد كانوا، مهما يكثر عددهم، أقرب إلى آلهة منهم إلى بشر. قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين في الصحراء القاحلة، وأضناهم الجوع، واقتاتوا بالجراد والجذور. صحيح أن في وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحراراً، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا في سبيلك بأنفسهم في سورة رائعة. ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا إلا بضعة آلاف، أنهم أشبه بآلهة منهم ببشر. والآخرون؟ ما ذنب الآخرين إذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لا تعرف كيف تسمو إلى فضائل مخيفة إلى هذا الحد؟ أتراك جئت إلى هذه الصفوة ومن أجل هذه الصفوة وحدها؟ أأنت لا تفكّر إلا فيها ولا يخطر ببالك ما عداها؟ إذا كان الأمر كذلك فهو سرّ يفوق ما

نملك من قدرة على الفهم، ومن حقنا في هذه الحالة نحن أيضاً أن نلجأ إلى السر، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الاساسي ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً، وإنما هو السر الذي لا سبيل إلى معرفته والذي يجب عليهم أن يخضعوا له خضوعاً أعمى ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. وهذا بعينه هو ما فعلناه. أصلحنا خطأك الذي ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولي عن المعجزة، فبنينا عملك على ما هو فوق الطبيعة بنيناه مأثرتك، فبنيناها على المعجزة، والسر، والهيبة. وابتهج الناس إذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشؤومة التي وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها. قل: هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحب الإنسانية حباً كافياً، بينما نحن اعترفنا بوهنها في كثير من الإذعان والتسليم، وخففنا عنها الحمل في كثير من المحبة والالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعف طبيعتها، شريطة أن تستأذننا في ذلك كل مرة؟ فلماذا تجيء الآن لتعرقل عملنا؟ مالك تحدّق إليّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النفاذتين؟ أحرى بك أن تغضب. إنني لا أريد محبتك، لأنني أنا نفسي لا أحبك. ولست أحاول أن أخفي عنك ذلك لأني أعلم من ذا الذي أخاطب، أليس كذلك؟ ثم إنك تعرف كل ما قد أقوله لك، أقرأ ذلك في عينيك. ففيم المواربة والحالة هذه؟ إن سرنا لن يخفى عنك فلعل ما تريده إذاً هو أن تسمع هذا السر من فمي؟ ليكن لك ما تريد ألا فاعلم أننا لسنا معك، بل معه هو. ذلك هو سرنا! إننا منذ زمن طويل قد كففنا عن أن نكون معك، وتحيّزنا له هو. فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته

أنت مستاء، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشير لك إلى ممالك الأرض[44]: لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وسيف القيصر، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين، رغم أننا لم ننجز إلى الآن عملنا. ولكن من المذنب في هذا؟ إن هذا المشروع ما يزال في أوله، ولكنه بُدئ. ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به إلى غايته، ولا بد من آلام كبيرة في هذه الحياة الدنيا، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون. وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر في سعادة شاملة تنعم بها الإنسانية. لقد كان في وسعك أن تقبل سيف القيصر حتى آنذاك، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصيّة الثالثة التي نصحك بها الروح القوي، إذاً لكان في وسعك ان تحقق كل ما يتمناه الإنسان، وهو أن يعرف: من يطيع، والى من يعهد بقيادة ضميره، وبأي وسيلة يوحّد جميع البشر في مجتمع كمجتمع النمل، واحد كبير منظم. ذلك أن الحاجة إلى الوحدة الشاملة هو ثالث عذابات النفس الإنسانية وآخرها. إن الإنسانية قد حاولت في جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل. إن هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكن شقاءها كان كبيراً على مقدار نبلها، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة إلى التوحيد الشامل للبشر. إن الغزاة الكبار، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان، الذي مروا على الأرض مرور إعصار مخرب وعاصفة مدمرة، كانوا يتوقون إلى أن يصبحوا سادة العالم بأسره، ولكن شوقاً عميقاً واحداً إلى توحيد جميع الشعوب كان يحرّكهم دون أن يشعروا بذلك. فلو أنك قبلت دنيا القياصرة ومقامهم، لكان في وسعك أن تبني المملكة الشاملة وأن تكفل السلام الشامل للإنسانية إلى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر

إن لم يقع على أولئك الذين يحكمون ضمائر البشر والذين يملكون خبزهم؟ لقد أخذنا سيف القيصر إذاً، وإذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه هو. ستنقضي قرون طويلة من عربدة العقل البشري الحر والعلم البشري وأكل لحوم البشر، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا في بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً إلى أكل لحوم البشر. ولكن «الوحش» سيجيء بعد ذلك إلينا زاحفاً، وسيلعق أرجلنا التي سيبلّلها بدموعه الدامية. وسوف نركبه، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة: «السر!» ويومئذ إنما سيحل ملكوت السلام والسعادة للإنسانية. إنك فخور بصفوتك المختارة، ولكن الصفوة وحدها معك، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة إلى جميع النفوس. وحتى بين أبناء هذه الصفوة المختارة، حتى بين هؤلاء الأقوياء، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون إلى خدمتك، فانتظروك عبثاً، ثم سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أخرى، وانتهى بهم الأمر إلى رفع راية حريتهم عليك! ألست أنت الذي أعطيتهم راية الحرية هذه؟ أما نحن الذين نهشّ على البشر بعصانا، فإن البشر سيكونون سعداء معنا، وسيعزفون عن التمرد علينا. ولن يبيد بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن في كل مكان بفضل الحرية التي تركتها لهم. وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً إلا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم لصالحنا وخضعوا لنا. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب؟ إنهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة، لأنهم سيتذكرون أهوال العبودية والآلام التي قادتهم اليها حريتك. إن الحرية والعقل المتحرر، والعلم، إن كل ذلك سيؤدي بهم إلى غياهب وأدغال وسيضعهم أمام اضطراب وألغاز لا سبيل إلى حلها،

زاخرة بالمعجزات المحيّرة. وأما العصاة العنيفين منهم فسيدمّرون أنفسهم بأنفسهم، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً. أما الباقون، بجمهرة الكبرى من الضعاف والأشقياء فإنهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا: «أنتم على حق. إننا نعترف بهذا الآن، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره. نحن نعود اليكم. انقذونا من أنفسنا!» وحين سيتلقون الخبز من أيدينا، سيرون حق الرؤية أنهم هم الذين أنتجوه بعملهم، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة. سيفهمون أننا لم نقلب حجارة إلى خبز، ولكنهم سيغتبطون بأنه أطعموا، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم أطعموا على أيدينا: لن ينسوا قط أن الخبز الذي صنعوه كان، بدوننا، يتحول في أيديهم إلى حجارة، حتى إذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزاً لهم. سيعرفون كيف يقدّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائي! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم إلا شقاء، ما ظلوا لا يفهمون ذلك. فمن ذا الذي ساهم أكثر من غيره في قلة الفهم تلك؟ من الذي خرّب تلاحم القطيع وبعثره في طرق مجهولة؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد، وسيعود إلى طواعيته، إلى الأبد في هذه المرة. وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة سعادة متواضعة وادعة هي السعادة الوحيدة التي تناسبهم. سنعلمهم أخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم بذلك متكبرين. سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم، وأنهم أطفال يرثى لحالهم، ولكن سعادة الاطفال هذه هي أعذب سعادة. سوف يصبحون خجولين، وسوف ينظرون إلينا نظرتهم إلى حماة يحمونهم، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها. سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا، فخورين بأن لهم سادة يبلغون هذا المبلغ من القوة

والذكاء، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع البشرى الهائج والذي لا يُحصى عدده. سوف يرتعشون خوفاً أمام غضبنا... سوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال. ولكنهم، بإشارة منا، سوف ينتقلون بالسهولة نفسها إلى الفرح والمرح والغبطة، ضاحكين بهناءة، مغنين كالصبية الصغار. وسنجبرهم على العمل طبعاً، ولكننا سنهيئ لهم في ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب، فيها أغان وجوقات وحتى رقصات بريئة. أوه! وسنسمح لهم أيضاً بأن يأثموا ما داموا ضعافاً إلى هذا الحد من الضعف، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا. سنقول لهم إن كل خطيئة يمكن التكفير عنها إذا هي ارتكبت بموافقتنا. سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنا، لابأس... لسوف يحبوننا على أننا مخلّصون لهم، لأننا سوف نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب. ولن يكتموا عنا سراً. سنبيح لهم أو نحظر عليهم، تبعاً لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم أو خليلاتهم، وأن ينسلوا أو أن لا ينسلوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين. سيفضون إلينا بأخفى ما يضطرم في ضميرهم من أنواع العذاب. وسنفصل في جميع الحالات، وسيرتضون حلولنا سعداء، لأنها ستحررهم من القلق العظيم والعذاب الرهيب الذي يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قراراً ذاتياً حراً. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين سيقودونهم: سنكون وحدنا أشقياء، نحن الذين نملك السر. سيكون في هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء. لن يكون فيه إلا مائة ألف من الاشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشر. وسوف يموت أولئك موتاً

غامضاً ينطفئون باسمك وادعين مسالمين، فلا يجدون في الحياة الآخرة إلا العدم. ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت، ومن أجل سعادتهم سيتلألأ أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية. لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى. إن النبوءات تزعم أنك ستعود في يوم من الأيام لتحقق نصراً جديداً على الشر، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم. لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء إنما أنقذوا أنفسهم وحدها، أما نحن فقد جئتنا بالخلاص للناس كافة. يقال إن الزانية الدنيئة التي تركب «الوحش»[45] وتحمل بيديها كأس السر، سيجلّلها الخزي والعار ذات يوم وإن الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون الدين الكاذب رداءها الكاذب الفخم ويعرّون جسدها «النجس». ولكنني سأنهض عندئذ فأشير لك إلى تلك المليارات من الأطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة، ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم، سوف نمثل أمامك ونقول لك: «احكم علينا إذا كنت تستطيع، إذا كنت تجرؤ». ألا فاعلم أنني لا أخشاك. ألا فاعلم أنني عشت أنا أيضاً في الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات، وأنني باركت الحرية التي وهبتها للبشر. وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة، وأن أكون واحداً من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير، وكنت أحترق شوقاً إلى أن «أكمل عددهم». ولكنني رجعت إلى صوابي في الوقت المناسب، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة. لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضممت إلى صف أولئك الذين يعملون في إصلاح مأثرتك. تركت صفوف المتكبرين، وانضممت إلى الوديعين

لأعاون في تحقيق سعادتهم. إن ما أعلنه لك اليوم سيتحقق، وإن مملكتنا ستُبنى في هذا العالم. أعود فأكرر لك: إنك سترى غداً هذا القطيع الطيّع يسرع بإشارة مني إلى إضرام ألسنة اللّيب التي ستُحرق بها مزيداً من الإضرام بإضافة فحم متقد إلى النار. ذلك أنني سآمر بحرقك لأعاقبك على أنك جئت تعرقل عملنا. لئن وجد أحد يستحق أن يهلك في النار فهو أنت. غداً ستحرق. أنهي كلامي[46]».

صمت إيفان. كان قد تحمس أثناء الكلام، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامع حتى إذا فرغ من حديثه ظهرت على شفتيه ابتسامة على حين فجأة.

وقد أصغى إليه أليوشا صامتاً، ولكنه في أواخر الحديث حاول مراراً، وقد استبدّ به اضطراب داخلي عنيف، أن يقاطع أخاه. ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية. وها هوذا الآن يدع لنفسه أن تنفجر تعبيراً عن استيائه. صاح وهو يكاد يثب عن مقعده وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً:

- ولكن... هذا سخافة!... إن قصيدتك تمدح المسيح في الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو. من ذا الذي يقبل تأويلك هذا للحرية؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية؟ إن الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه... إنك تعرض تصوّر الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية، بل إن هذا التصور ليس تصوّر جميع الكاثوليكيين - ذلك خطأ! - وإنما هو تصوّر أشرارهم فحسب، هو تصوّر أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين!... ثم إن صاحبك المفتش الأكبر رجل لا صلة له بالواقع، وإنما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها. ما هي خطايا البشر التي يدّعي أنه أخذها

على عاتقه؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يُزْعَمُ أنهم ارتضوا لا أدري أي عذاب في سبيل سعادة الإنسانية؟ أين وُجد هؤلاء؟ إننا نعرف اليسوعيين. لقد قيل فيهم سوء كثير، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التي ترسمها لهم؟ إنهم ليسوا كذلك البتة... كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا في المستقبل ملكوت الأرض الشامل الآتي التي سيرأسها حبر روما برتبة إمبراطور... ذلك هو مثلهم الأعلى، وهو لا يشتمل على سر ولا على ذلك الحزن النبيل الذي لا يُفهم... إنه الظمأ إلى السيطرة والتسلط، إنه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة، إنه الرغبة في استعباد الناس... إنهم يحلمون بالعودة إلى نوع من نظام القنانة يكونون فيه هم المالكين والمنتفعين... ذلك هو طموحهم كله! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه إلا خيالاً محضاً...

قال إيفان ضاحكاً:

- لحظة، لحظة... لماذا تتحمس؟ ثمرة من ثمرات خيالي؟ لا أعارض في هذا، ذلك كله خيال طبعاً. ولكنني أرجو أن تسمح لي بإلقاء هذا السؤال: هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية في القرون الأخيرة لم تستلهم إلا الظمأ إلى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة؟ لا شك أن الأب بائيسى هو الذي قال لك هذا الكلام!

- بالعكس! إن الأب بائيسى قد قال لي في يوم من الأيام كلاماً يشبه كلامك تقريباً...

- كذلك قال أليوشا، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً:

- أعني... إنه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة...

قال إيفان:

- اسمع، اسمع. هذا اعتراف له شأنه رغم قولك «لا يشبه البتة»! كيف تستطيع أن تصدّق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشيء إلا لامتلاك الخيرات الماديّة الحقيرة؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم في يوم من الأيام ولو انسان واحد من من الصفوة المختارة يعذّبه ألم نبيل ويستبدّ به حبّ الإنسانية؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم، في عداد هؤلاء الطامعين الظامئين إلى المباهج الأرضية السافلة رجل واحد، رجل واحد شبيه بصاحبي المفتش الأكبر عاش في الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته في سبيل الوصول إلى الحرية وإلى الكمال. تخيل أن هذا الرجل قد أحبّ الإنسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفسية التي حريّة الروحي الإرادة إنما هي وهم باطل ما دامت حياة ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الهية مثله، ليست إلا سخرية لاذعة مرة، وأنهم لن يستطيعوا أبداً أن يتصرفوا بحريتهم، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا في يوم من الأيام عمالقة قادرين على إكمال بناء البرج... أي أنهم لن يصلوا في يوم من الأيام إلى حريتهم، وأن حلم الانسجام والتناسق الذي حلم به المثالي الكبير لم يخلق لهذا النوع من الأوز!... تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك، فعاد إلى صوابه، وانضم إلى الناس الأذكياء... أهذا في رأيك افتراض مستحيل؟

قال أليوشا فيما يشبه الحدة:

- إلى من انضم؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء؟ انهم لا ذكاء لهم البتة، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر! هؤلاء زنادقة... ذلك سرّهم كله! إن صاحبك المفتش لا يؤمن بالله... ذلك سرّه كله!

- لنسلم بهذا. لقد فهمت أخيراً. صحيح، أنه أصبح لا يؤمن

بالله، ذلك كل سرّه. لكن أليس هذا عذاباً بالنسبة إلى رجل مثله ضيّع حياته كلها في مأثرة الصحراء ثم لم يستطع أن يبرأ من حبه الإنسانية؟ لقد رأى في أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التي أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العصاة الضعاف، حياة هذه «المخلوقات الناقصة التي كانت للخالق تجربة، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة». فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذي نصح به الروح الذكي، الروح الرهيب، روح الموت والخراب. وإذا كان منطقياً مع نفسه، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم، بغية السير بهم إلى الموت وإلى العدم سيراً واعياً، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق، حتى لا يكتشفوا إلى أين يُسار بهم. فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء. لاحظ أنه يرى نفسه مضطراً إلى مقارنة هذا الكذب باسم ذلك الذي كان مثلاً أعلى له والذي آمن به إيماناً مشبوباً طوال حياته. أفليس هذا عذاباً؟ ألا إنه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف هذا الجيش «الظامئ إلى السيطرة وإلى اللذات المادية الدنيئة»، لكان في هذا ما تُخلق منه مأساة حقة! أكثر من ذلك، يكفي أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تنفخ فكرة موجّهة في فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها، فكرة عليا. أقول لك بصراحة: إنني على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا في جميع الأزمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية، وربما وجد منهم بين الباباوات أنفسهم! ومهما يكن من أمر، فإن ذلك العجوز اللعين الذي يصرّ

ذلك الإصرار كله على حب الإنسانية على طريقته يمكن أن يوجد في أيامنا هذه، مع عدد من أمثاله، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله نتيجة مصادفة، بل ثمرة تفاهم واتفاق، وأن يكون نوعاً من جميعة سرية أنشئت منذ زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء، وتأمين سعادتهم بذلك. لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً. هذا أمر لامناص منه ويبدو لي من جهة أخرى أن الماسونيين لابد أن يكون لهم هم أيضاً سرّ من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم[47]. ولعلّ هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيين من كره وبغض، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون إلى وحدة الفكرة، بينما يجب أن لا يكون هناك إلا قطيع واحد وراعٍ واحد... ولكنني ألاحظ أنني في دفاعي عن فكرتي أظهر بمظهرِ مؤلف عاجز عن احتمال نقدك. كفى هذا...

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله في تلك اللحظة:

- أتراك تنتمي إلى الماسونيين؟

ثم أضاف يقول:

- أنت لا تؤمن بالله.

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق في هذه المرة. حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح في وجهه السخر.

وسأله فجأة وهو خافض عينيه:

- كيف تنتهي قصيدتك؟ أهي تقف عند هذا الحد؟

- خطر ببالي أن أختمها على النحو التالي: صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه رداً. إن صمت السجين قد ثقل على نفسه. لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدّق اليه بنظرة رقيقة نافذة، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل في مناقشة معه. كان العجوز

يرغب في أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة. ولكن السجين لم ينطق بكلمة واحدة. وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتي من بلغ من عمره التسعين. كان ذلك كل جوابه. ارتعش العجوز، واختلج شيء ما في طرفي فمه. واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه: «اذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم أبداً، أبداً!» وأومأ له بيده إلى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة»[48]. وانصرف السجين.

- والعجوز؟

- حرقت القبلة قلبه، ولكنه لم يعدل عن فكرته.

- التي هي فكرتك أيضاً، أليس كذلك؟

بهذا صاح أليوشا يقول في مرارة. فأخذ إيفان يضحك. وقال:

- ما بك يا أليوشا؟ ما هذا كله بجد. هي قصيدة سخيفة ألّفها طالب بليد لم يكن في يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر. فلماذا توليها هذا الشأن كله؟ أتراك ستظن أنني ذاهب إلى الخارج لأنضم إلى هؤلاء اليسوعيين ولأنخرط في صفوف أولئك الذين يدّعون «إصلاح ما قام به المسيح»؟ فيم يعنيني هذا كله؟ لقد سبق أن قلت لك إن كل ما يعنيني هو أن أديم ابتهاجي إلى الثلاثين من العمر ثم أرمي الكأس!

هتف أليوشا يقول ممتلئاً مرارة:

- ووريقات الربيع الغضة، ماذا أنت صانع بها؟ والقبور العزيزة عليك، والسماء الزرقاء، والمرأة التي تحب؟ كيف ستعيش إذاً، وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب؟ إنك بهذه الأفكار الجهنّميّة في رأسك وفي قلبك لن تستطيع ذلك! بل بلى... إنك مسافر إلى الخارج لتنضم إليهم، وإلاّ فستقتل نفسك... إنك لن تصمد!

قال إيفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة:

- في نفسي قوة ستتيح لي أن أصمد لكل شيء!

- أي قوة؟

- قوة آل كارامازوف... قوة الحطة والخسّة في آل كارامازوف!

- ماذا إذاً، أتغرق في العهر والفجور، أتخنق الروح في حضيض الجسد؟ أهذا ما تفكر فيه؟

- ربما... ولكنني سأعرف كيف أتحاشى ذلك حتى الثلاثين من العمر. وبعدئذ...

- ستعرف كيف تتحاشى ذلك؟ كيف؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هي هذه الأفكار.

- بل سأعرف كيف سأتحاشاه، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضاً.

- أتعني القول بأن «كل شيء مباح». كل شيء مباح متى اتّفق مع المصلحة، أليس كذلك؟

قطب إيفان حاجبيه وشحب لونه شحوباً غريباً. وقال:

- آه! ألأنت تُلمح إلى الفكرة التي عبّرت عنها أمس عند شيخك، فكانت أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف... تلك الفكرة التي تلقفها دمتري فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة في السذاجة؟ (أضاف إيفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة متكلفة)... ليكن! هو كذلك على وجه الإجمال! «كل شيء مباح»! قلت ذلك ولن أنقضه. أما صياغة ميتيا فليست رديئة هي الأخرى.

نظر إليه أليوشا صامتاً.

واستأنف إيفان كلامه يقول بانفعال مباغت:

- كنت أحدّث نفسي يا أخي بأنني سأحتفظ حين أسافر بإنسان

واحد يحبني على الأقل، ولكنني ألاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي المعتزل. أنا لن أنكر فكرتي القائلة بأن «كل شيء مباح»، ولكنك أنت ستنكرني بسبب هذه الفكرة، إذا صدق فهمي، أليس كذلك؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئاً.

هتف إيفان يقول في حماسة:

- هذا سطو أدبي! لقد سرقت الفكرة من قصيدتي! شكراً شكراً على كل حال. انهض يا أليوشا. آن أوان الانصراف، لي ولك على السواء.

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الحانة. قال إيفان بصوت جازم:

- اسمع يا أليوشا... إذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحبّ وريقات الربيع النضرة، فسيكون هذا بفضل ذكراك. سوف يكفيني في ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا في مكان ما حتى أسترد حب الحياة. هل يرضيك هذا؟ عُدّه تصريح حب إن شئت. والآن... إن طريقينا يفترقان. ستمضي أنت يمنة، وسأمضي أنا يسرة. كفى ثرثرات، هل فهمت؟ وحتى إذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد أنني سأسافر)، فالتقينا مرة أخرى، فلا تعد إلى هذه المسائل التي ناقشناها اليوم، أرجوك. حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع. ولا تكلمني أيضاً عن دمتري في المستقبل، إنني أطلب منك هذا جازماً قاطعاً. والأفضل أن لا تكلمني بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مباغتة). لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله، أليس هذا صحيحاً؟ وفي مقابل ذلك فإنني أقطع لك هذا

الوعد: حين سأقرر في الثلاثين من العمر أن «أرمي الكأس»، فسوف أجيء لأراك مرة أخرى أينما كنت... سآتي ولو من أمريكا... سأجيء إليك فنتناقش من جديد... في وسعك ان تعوّل على هذا. سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض. سيشوقني أن أراك عندئذ وأن أعرف ما الذي صرت اليه. ذلك عهد أقطعه على نفسي. وقد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنين أو عشر سنين. اذهب الآن. أسرع إلى صاحبك الأب سيرافيكوس[49]. لأنه يحتضر. فاذا مات في غيابك فقد تحقد عليّ لأنني أخّرتك. إلى اللقاء. قبلني أيضاً... هكذا... والآن اذهب...

تركه إيفان وسار في طريقه دون أن يلتفت. إن هذا الانصراف المباغت يذكّر بالطريقة التي تركه بها أخوه دمتري أمس، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف. مسّ هذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً، فشعر فجأة بحزن وإرهاق. لبث في مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذي كان يبتعد. لاحظ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك في تلك اللحظة، أن مشية إيفان كانت متمايلة بعض التمايل وأن كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف الأخرى. إنه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل. وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً. كان الظلام قد هبط. شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه. لقد نبت في نفسه إحساس لم يستطع أن يستبين طبيعته. هبّت الريح كما هبت في الليلة البارحة. وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المائة من أعمارها، غمرته بحفيف شجي حزين حين دخل غابة المنسك. كان يركض الأب سيرافيكوس. أين تراه وجد هذا الاسم؟ كذلك تساءل أليوشا - إيفان، أخي المسكين، متى عسى أراك؟... هذا هو

المنسك. آه... يا رب! نعم نعم، سوف ينقذني الأب سيرافيكوس سوف ينقذني منه إلى الأبد!

سوف يتساءل أليوشا مراراً أثناء حياته، في دهشة عميقة، كيف أمكنه في ذلك اليوم، بعد أن ترك أخاه إيفان. أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمتري، مع أنه كان قد عزم عزماً أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر، ولو اضطر في سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب إلى الدير في تلك الليلة.

– 6 –

حيث لا سبيل إلى الفهم بعد

اتجه إيفان فيدرورفتش، بعد أن ودّع أليوشا، إلى مسكنه أي إلى منزل أبيه فيدور بافلوفتش. ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بحزن لا يطاق، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته. وليس الحزن الذي يشعر به هو الذي يدهشه، وإنما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد له سبباً. لقد سبق له كثيراً في الماضي أن أحسّ بحزن يستولي على نفسه، ولا غرابة في أن يكون حزيناً في هذه اللحظة التي يتهيأ فيها للسفر، بعد أن قطع فجأة صلته بكل ما يشده إلى هذه المدينة، أن ينعطف انعطافاً شديداً ويسير في اتجاه جديد يجهله كل الجهل. سوف يكون وحيداً من جديد، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل، مع آماله العريضة الواسعة، دون أن يعرف علامَ يعقدها، مع انتظاره من الحياة لأشياء كثيرة، لعلها مسرفة في الكثرة، دون أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة. غير أن الشيء الذي يعذبه في هذه اللحظة ليس هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد، رغم أن هذه الخشية قائمة في نفسه. تساءل قائلاً «أتراه هو الاشمئزاز الذي يوقظه في نفسي منزل أبي؟ لكأنني قد بلغت من كره هذا المنزل أنني لا أستطيع التغلب على التقزز من الذهاب اليه رغم علمي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة... ولكن لا... لا... ليس

هذا سبب الارهاق الذي أشعر به الآن. أهو إذاً وداع أليوشا والحديث الذي جرى بيننا؟ لقد أصررت على الصمت سنين طويلة، لا أتنازل أن أفتح فمي بكلمة لانسان، ثم ها أنذا أخرج جميع تلك السخافات دفعة واحدة». صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلة تجربته وشدة غروره، غرور المراهق، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبّر عن نفسه كما كان يتمنى أن يعبّر، ولا سيما أمام انسان كأليوشا ينتظر منه في قرارة نفسه أشياء كثيرة. لا شك أن في نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف، ذلك لا بد منه... ولكن ليس هذا ما يُثقِلُ صدره الآن ويخنقه خنقاً... هناك شيء آخر... ولكن ما هو؟ «إن غمّاً يملأ جوانب نفسي حتى ليكاد يثير غثياني، ولست أصل إلى معرفة ما يعوزني ومعرفة ما أريد، لعل الأفضل أن لا أفكر في هذا الأمر...».

حاول إيفان فيدوروفتش أن «لا يفكر في هذا الأمر»، ولكنه لم يفلح. إن الغمّ الذي يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة. إن إيفان يحسّ ذلك إحساساً واضحاً. إن الأمر أمر شيء أو شخصٍ - لا يدري إيفان على وجه الدقة - لا يطاق وجوده في نظر إيفان. ان إيفان يحسّ بضيق شبيه بالضيق الذي يثيره في النفس أحياناً، أثناء العمل أو أثناء حديث حار، وجود شيء مزعج لم يره المرء رؤية واعية بعد، ولكنه يغتاظ منه وحتى يتعذب به، إلى أن يخطر بباله أخيراً أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذي كثيراً ما يكون سبباً تافهاً مضحكاً: شيئاً ليس في مكانه، منديلاً ساقطاً على الأرض، كتاباً نُسي وضعه في المكتبة، الخ. بلغ إيفان منزل أبيه أخيراً، معتكر المزاج جداً، مهتاج الأعصاب اهتياجاً شديداً. وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدي ألقى نظرة على

البوابة فأدرك على حين فجأة ما كان يخنقه ويعذّبه طوال الطريق. كان الخادم سمردياكوف جالساً على دكّة قرب البوابة يتمتع بطراوة الجو في المساء. فما ان لمحه إيفان فيدرورفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خياله على غير علم منه، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يطيقها. لقد اتضح كل شيء. فحين كان أليوشا يحدّثه، في الحانة عن اجتماعه بالخادم، شعر إيفان وكأن شيئاً كئيباً وكريهاً ينغرز فجأة في قلبه مثيراً فيه ردة فعل غاضبة وخانقة على الفور. ولقد انقطع عن التفكير في سمردياكوف أثناء الحديث الذي أعقب ذلك، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقي في قلبه، فلما ترك أليوشا واتجه إلى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحساس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء إلى أصله. تساءل إيفان محتداً: «كيف يمكن أن يقلقني هذا الجرو الغبي مثل هذا الإقلاق؟».

والواقع أن إيفان فيدروروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن، ولا سيما في الأيام الأخيرة. وكان يدرك هو نفسه أن العداوة التي يشعر بها نحو هذا الإنسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً. ولعل عداوته قد استفحلت واحتدّت لأن موقف إيفان فيدروفتش من الخادم كان عند وصوله إلى مدينتنا يختلف عن هذا الموقف كل الاختلاف. لقد أظهر إيفان فيدروفتش في ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام الخاص بالخادم، حتى لقد عدّه شخصاً طريفاً كل الطرافة، وشجّعه على أن يتحدث إليه، دون أن يفوته مع ذلك ما كان في أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك، أو قل من بعض القلق في عقله، وكان إيفان يتساءل: تُرى ما الذي يهزّ فكر هذا «المتأمل» على هذا النحو بغير انقطاع؟ لقد عالجا موضوعات فلسفية، وناقشا، فيما ناقشا، مسألة الضياء من أين جاء في أول يوم من أيام خلق العالم ما دامت

الشمس والنجوم والقمر لم تخلق إلا في اليوم الرابع من أيام الخلق؟ وتساءلا: كيف يمكن تأويل هذه الآية من التوراة؟ ولكن إيفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالشمس والنجوم والقمر كثيراً وأن مسائل الشمس والنجوم والقمر لا تعنيه كثيراً وإن تكن جذابة. كان واضحاً أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذا تماماً. وشيئاً فشيئاً ظهرت أنانيته وظهر غروره، يفاقمهما أنه سريع التأذي على ادعاء وتبجح. فهذه الخصال لم تعجب إيفان، وولّدت نفوره منه وكرهه له، وبعد ذلك، حين انبثقت المشاجرات العائلية المعقدة بظهور جروشنكا، وقامت المنازعات بين دمتري وأبيه، أتيح لايفان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع الخادم، فكان يستحيل عليه، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً بانفعال شديد، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقول، وما هو الشيء الذي يتمناه هو نفسه. إن ما يلمحه المرء في رغباته من بعد عن المنطق والرشاد، على نحو غامض، يثير الدهشة والاستغراب. كان سمردياكوف يستوضح كثيراً، ويقلي بعض الأسئلة مواربأ، لغرض في نفسه من غير شك، ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض، وكان يصمت فجأة في بعض الأحيان أو ينتقل إلى موضوع آخر في وسط الكلام. ولكن إيفان إنما أصبح يحنق منه خاصة أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه، فهو يخاطبه في غير تحرّج، وهو يمعن في ذلك مزيداً من الإمعان يوماً بعد يوم. وقد ولّد هذا الموقف في نفس إيفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكراهية قاطعة. ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع إيفان. بالعكس: لقد كان يصطنع في مخاطبته كثيراً من الاحترام. ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم إلى حيث

اعتقد، لا ندري لماذا، أنه متضامن مع إيفان فيدوروفتش. فهو يتحدث إليه بطريقة خاصة، كأن بين الرجلين تفاهماً مضمراً سرياً، وتواطؤاً قائماً منذ زمن طويل، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما. ولقد لبث إيفان فيدوروفتش مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقي الذي يثير حنقه المتزايد، ثم لم يدركه إلا منذ بضعة أيام. أراد إيفان، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف. ولكن سمردياكوف نهض عن دكته، فأدرك إيفان من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً. نظر إليه إيفان وتوقف. وما أشد ما أحنقه توقفه هذا! لقد كان ينوي منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيظ شديد! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة إلى هذا الوجه الهزيل الذي يشبه وجوه الخصيان، وإلى هذا الشعر المصفف بكثير من العناية على الصدغين، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس. وكانت عين سمردياكوف اليسرى الضيقة قليلاً، تغمز غمزة ماكرة، فكأنها تقول: «قف، لن أدعك تمر. ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن نتبادله نحن معشر الأذكياء؟».

ارتعد إيفان غضباً، وتمنى لو يصيح قائلاً: «امض أيها الجرو! أأنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك؟» فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف:

- أما يزال أبي نائماً أم أنه استيقظ؟

كذلك سأله برقة فيها إذعان وتسليم أدهشاه هو نفسه، وعلى هذا النحو نفسه الذي لم يكن في الحسبان أيضاً، رأى نفسه يجلس على الدكة. وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه في اللحظة الأولى. كان سمردياكوف واقفاً أمامه، جاعلاً يديه وراء ظهره، ينظر إليه نظرة

فيها ثقة بل وفيها صرامة. وقال دون تعجل (كأنه يريد أن يقول: «لست أنا، بل أنت الذي تبادرني بالكلام!»):

- إنه ما يزال يرتاح. - وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت، وهو يغضّ عينيه في تصنّع، ويقدم رجله اليمنى، ويهز رأس حذائه الملمّع:

- هل تعلم أنك تدهشني يا سيدي؟

فأجابه إيفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية، وهو يحاول أن يسيطر على نفسه، قائلاً:

- ما الذي يدهشك؟

ولكن إيفان شعر في الوقت نفسه، على اشمئزاز وتقزز، إن في نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه.

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلاً وهو يرفع عينيه، ويبتسم في إلفة:

- لماذا لم تسافر يا سيدي إلى تشرماشنيا[50]؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول: «ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله فيجب أن تفهم سبب ابتسامتي؟».

قال إيفان فيدوروفتش متعجباً:

- لأي غرض أذهب إلى تشرماشنيا؟

فصمت من جديد، ثم أجابه أخيراً:

- لقد رجاك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها في كثير من الإلحاح.

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولي جوابه هذا أي اهتمام. فكأنه يقول له: «إنني أجيبك بأي شيء. بأول جواب يخطر على بالي، لا لهدف إلا أن أقول شيئاً ما».

صاح إيفان فيدوروفتش غاضباً، منتقلاً من الإذعان إلى الغلظة بدون تدرّج:

- ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية. هلاّ تكلمت بوضوح؟ ماذا تريد؟

ردّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى، ونصب قامته، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه، وظل يبتسم.

- ليس هناك أي شيء هام. . . . وإنما تكلمت هكذا، بغير هدف أو غاية. . .

وساد صمت من جديد. صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة. أدرك إيفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب. وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقول له: «سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب؟» ذلك ما شعر به إيفان فيدوروفتش على الأقل. وهمّ أخيراً أن ينهض. ففتح سمردياكوف عندئذ فمه كأنه قد انتظر هذه اللحظة ليتكلم. قال في بطء، بصوت جازم، وهو يقطّع كلامه:

- إنني في وضع رهيب يا إيفان فيدرورروفتش، وأنا أتساءل كيف يمكنني أن أخرج من المأزق.

ثم تنهّد تنهدة كبيرة. عاد إيفان يجلس. واستأنف سمردياكوف كلامه فقال:

- لكأنهما فقدا كلاهما العقل. إنهما يتصرفان تصرف أطفال صغار. إنني أتكلم عن أبيك وعن أخيك دمتري فيدوروفتش. سوف يأخذ فيدور بافلوفتش يعذبني بأسئلته متى نهض من فراشه، سوف يسألني في كل لحظة: «هيه؟ ألم تجئ؟ لماذا لم تجئ؟» وسوف تستمر هذه الأسئلة إلى منتصف الليل، وإلى ما بعد منتصف الليل.

وإذا لم تجئ آجرافينا الكسندروفنا (وفي رأيي أنها لا تنوي أن تجيء أبداً)، فسوف يستأنف أسئلته في صباح الغد متهجّماً عليّ: «لماذا لم تجئ؟ متى تجيء؟»، كأنني أنا المذنب. ومن الجانب الآخر، فالقصة نفسها: فمتى هبط الغسق، بل وقبل هبوط الغسق، يأخذ أخوك دمتري بالاستعداد فيَكمن في مكان قريب مسلّحاً، ويقول لي: «انتبه أيها الوغد! حذار أيها الطاهي! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئني، لأقتلنّك أنت أول من أقتل!» حتى إذا انقضى الليل عاد يعذّبني بأسئلته كأبيك: «ألم تجئ بعد؟ هل تجئ قريباً؟» لكأنه يعذّبني، هو أيضاً، مسؤولاً عن سلوك هذه السيدة! الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، وغضبهما كليهما يزداد من ساعة إلى ساعة. والخوف يحاصرني حتى لأفكر في قتل نفسي تخلصاً من هذا المأزق. إنني لا أتوقع منهما أي خير يا سيدي!

قال إيفان منزعجاً:

- ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك في هذا الأمر!

لماذا ارتضيت أن تكون لدمتري فيدوروفتش مُخبراً؟

- كيف كان يمكنني أن أبقى بعيداً. إنني لم أحشر نفسي في الأمر، إذا شئت أن تعرف ذلك. كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد، ولكن أخاك ألحّ وأكرهني على أن أكون خادمه ليتشاردا[51] في هذه القضية. وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مسامعي قوله: «لأقتلنّك أيها الوغد، لأقتلنك إذا تركتها تمُرّ!» أنا على يقين من أنني سأصاب غداً بنوبة طويلة.

- أي نوبة طويلة! ماذا تقصد؟

- نوبة صرع، طويلة، طويلة جداً. ربما دامت بضع ساعات، وربما استمرت إلى الغد. لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة

أيام. سقطت آنذاك من الشونة. تمرّ النوبة، ثم تعود من جديد وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الإغماء يحدث لي هذا فجأة. وفي تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشوبه، فوصف لي ثلجاً على الجبين ودواء آخر. . . وكدت أموت.

– يُقال إن نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها ولا بموعدها. فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة؟

كذلك سأله إيفان باستطلاع يمازجه غيظ. فقال سمردياكوف:

– صحيح. . . لا يمكن التنبؤ بها.

– ثم إنك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة.

– ذلك أنني أصعد إلى ذلك الطابق كل يوم، ومن الجائز جداً أن أسقط منه في الغد أيضاً. واذا لم أسقط من طابق الشونة، فقد أسقط في القبو، لأنني أذهب إلى القبو كل يوم أيضاً للقيام بالخدمة.

تفرّس فيه إيفان فيدوروفتش طويلاً.

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شيء من التهديد:

– يبدو أنك تدبّر أمراً. ما الذي تريد أن تصل اليه؟ أتراك ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام، هه؟

كان سمردياكوف قد أغمض عينيه، وعاد يهزّ رأس حذائه. وها هوذا الآن يرجع رجله اليمنى وقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة:

– هبني دبّرت لهم «مقلباً» من هذا النوع. إن هناك أسباباً وجيهة تدفعني إلى أن أفعل ذلك. لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع إذا كان يملك بعض التجربة، فسيكون من حقي تماماً أن ألجأ إلى هذه الوسيلة إنقاذاً لحياتي. حين أكون مريضاً فحتى إذا

حدث أن قررت آجرافينا الكسندروفنا أن تجيء إلى أبيك، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضاً: «لماذا لم تبلغني؟» سوف يستحي هو نفسه أن يفعل ذلك.

هتف إيفان فيدوروفتش يقول وقد تقبَّض وجهه غضباً:

- شيطان يأخذك! لماذا تخاف على جلدك أيها الجبان؟ ليست تهديدات دمتري إلا كلاماً في الهواء! إنه لن يقتلك. قد يقتل، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال!

- بلى! سيقتلني كذبابة، وسيقتلني قبل أن يقتل أي إنسان آخر! هناك مع ذلك شيء أخشاه أكثر من هذا أيضاً: هو أن أُتهم بالتواطؤ معه إذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون في حق أبيك.

- لماذا تُتهم أنت في هذه الحالة؟

- سيُظن أنني شريك لأنني أطلعته على تلك الإشارات السرية.

- أي إشارات تعني؟ من أطلعت عليها؟ سحقاً لأساليبك المختالة هذه! هلاّ قلت كلاماً واضحاً آخر الأمر؟

بدأ سمرדياكوف يقول مقطِّعاً كلامه قائلاً بهدوء متحذلق كأنما ليضفي على نفسه قيمة:

- يجب أن أعترف لك بأن هناك سراً بيني وبين فيدور بافلوفتش. فمنذ بضعة أيام، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال)، تعوّد فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفسه بالمفتاح، منذ يهبط الليل، ومنذ يهبط الغسق أحياناً. إنك في الآونة الأخيرة تصعد إلى جناحك في ساعة مبكرة، وأمس مثلاً لم تخرج قط، لذلك فلعلك لم تلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن، ومدى حرصه على إحكام إغلاقها. إنه لا يفتح الباب حتى لجريجوري فاسيلفتش إذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين. ولكن جريجوري فاسيلفتش لا

يجيء، لذلك أنا وحدي أخدمه الآن في غرفته. هذا ما قرر أن يعمد إليه منذ اندفع في تلك المغامرة مع آجرافينا ألكسندروفنا. وتنفيذاً لأوامره، فإنني أترك المنزل أنا أيضاً متى حلّ الظلام، وأمضي أقضي الليل في الملحقات، ملزماً بالسهر إلى منتصف الليل على كل حال، لأتربّص وأخرج إلى الفناء من حين إلى حين بغية أن أرى إن جاءت آجرافينا ألكسندروفنا. ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بإلحاح هو كالجنون. إنه يفكر على النحو التالي: لا شك أنها تخاف منه، من دمتري فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) لذلك ستؤثر أن تجيء في الليل مارةً من خلف الفناء. وأنا مكلَّف إذاً بانتظارها كل مساء إلى منتصف الليل وإلى ما بعد منتصف الليل. قال لي: «متى ظهرت كان عليك أن تسرع إليّ، فتقرع بابي أو النافذة المطلة على الحديقة قرعتين أولاً، قرعتين غير قويتين جداً، هكذا: طق، طق، ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً: طق، طق، طق، فأعلم عندئذ أنها جاءت، فأفتح الباب برفق وهدوء». ثم شرح لي بعد ذلك إشارة أخرى استعملها حين يحدث شيء مفاجئ: أقرع في أول الأمر قرعتين متقاربتين: طق طق، وبعد برهة أقرع قرعة ثالثة أقوى، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجئ وأنني أريد أن أكلمه، فيفتح لي الباب، فأدخل إليه وأروي له ما وقع. هذا إذا لم تجئ آجرافينا ألكسندروفنا وإنما أوفدت رسولاً برسالة، أو إذا ظهر دمتري فيدوروفتش على مقربة من المنزل، فبذلك أستطيع إبلاغه فوراً. إنه يخاف دمتري فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرني بأن عليّ، إذا حدث أن كانت آجرافينا ألكسندروفنا في المنزل مختلية به، فظهر دمتري فيدوروفتش على مقربة من المنزل، أن أبلغه ذلك فوراً بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات. لقد علّمني إذاً إشارتين: الأولى تتألف من خمس

قرعات ومعناها أن «آجرافينا ألكسندروفنا جاءت»، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أنني «أريد أن أكلمه حالاً». وقد جرّب هاتين الإشارتين أمامي مراراً لأتعلمها. لأن لا أحد في العالم يعرف هاتين الإشارتين، إلا أنا وهو، فإنه متى سمع الإشارة يفتح الباب فوراً بلا تردد، وبدون أن يلقي أي سؤال (لأنه يخاف أن يُسمع صوته). والمشكلة الآن هي أن دمتري فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الإشارتين.

– من أين عرفهما؟ أأنت كشفت له إذاً عنهما؟ فكيف تجرأت أن تفعل؟

– كيف تجرأت؟ فعلت ذلك بسبب الخوف طبعاً! وهل من سبيل إلى الصمت معه؟ كان لا ينفك يكرّر على مسامعي في كل يوم قوله: «أنت تكذب! أنت تخفي عني شيئاً. لأحطمنّ ساقيك!» وعندئذ أطلعته على هاتين الإشارتين السريتين ليرى على الأقل أنني أطيعه ولا أعصي أمره، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أني أخفي عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية.

– إذا كنت تقدّر أنه ينوي أن يستخدم هاتين الإشارتين ليدخل، فعليك أن تمنعه من الدخول الأمر بسيط.

– إذا اتفق أن كنت في تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيي بسبب نوبة صرع؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول، هذا إذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه في تلك الحالة من ضراوة وعنف!

– سحقاً لك ولنوبة الصرع التي تتكلم عنها هذه! كيف علمت أن نوبة صرع ستصيبك غداً؟ أتراك تضحك عليّ؟

– وهل أجرؤ أن أضحك عليك يا سيدي؟ هل تظن أن بي رغبة

في الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع؟ إن الخوف بعينه هو الذي سيُحدث لي هذه النوبة.

- يا للشيطان... إذا كنت أنت مريضاً، أمكن أن يتولى الحراسة جريجوري، أخطره سلفاً وسوف يمنعه هو من الدخول.

- ولكنني ممنوع من اطلاع جريجوري فاسيلفتش على هاتين الإشارتين إلا باذن من السيد. أما عن إمكان أن يسمع جريجوري فاسلفتش مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك إنه مريض منذ أمس، وإن مارفا اجناتفنا تنوي أن تداويه في الغد. على هذا اتفقنا اليوم. وإن لها في مداواة زوجها طريقة غريبة جداً: إنها تعرف منقوعاً من العقاقير تحتفظ به في بيتها دائماً لمثل هذه الحالات، وهو سائل قوي جداً تعرف سرّه فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها في الماء وتداوي به زوجها ثلاث مرات في العام تقريباً حين تداهمه آلام الظهر ويصبح شبه مشلول. إنها تبلل بهذا السائل منشفة تأخذ تدلك بها ظهره على طوله خلال نصف ساعة إلى أن ينتفخ الجلد ويحمر، حتى إذا فرغت من ذلك جرّعته ما يبقى في الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو دعاءً معيّناً. ولكنها تبقي لنفسها من السائل مقداراً قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة. ويجب أن أقول لك أيضاً إنهما، بسبب عدم تعودهما الشراب، ما يكادان يحسوان هذا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث يكونان، فيناما نوماً عميقاً خلال مدة طويلة. فإذ استيقظا شعر جريجوري فاسيلفتش كل مرة بأنه شُفي من مرضه، أما مارفا اجناتفنا فلا بد أن يصيبها صداع. فإذا نفّذا في الغد عزمهما على استعمال هذا الدواء، فإنهما لن يسمعا شيئاً، لأنهما سيناماان، ولن يمنعا دمتري فيدوروفتش من دخول المنزل.

صاح إيفان فيدوروفتش يقول:

- ما هذا الهراء! كل شيء يحدث في آن واحد كما لو كان مدبّراً! أنت تصاب بنوبة الصرع، وهما يفقدان الوعي!

ثم أضاف يسأله فجأة مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد:

- أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة؟

- كيف يمكنني أن أفعل ذلك... وعلام أفعل؟ كل شيء رهن بإرادة دمتري فيدوروفتش وحده، وبما يعزم عليه ويقرره... فإذا كان ينوي أن يوقع مصيبة فسيفعل؟ وإذا لم يكن ينوي فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه إلى أبيه دفعاً، فيما أتخيل، أليس كذلك؟

عاد إيفان فيدوروفتش يقول وقد اصفرّ وجهه غضباً:

- لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمتري إلى هنا، وأن يتسلل تسللاً، إذا كانت آجرافينا الكسندروفنا لا تفكر في المجيء إلى أبي، كما قلت هذا بنفسك. لقد أكدت لي أنت هذا منذ لحظة، وكنت أنا على يقين منذ حللت في هذا المنزل أن العجوز تراوده أوهام، لأن هذه المخلوقة لن تجيء إليه في يوم من الأيام. فهلاّ قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يقتحم دمتري منزل العجوز في سبيلها إذا لم تأت هي؟ تكلم... إنني أريد أن أعرف حقيقة ما يجول في خاطرك.

- إنك تعرف هذه الغاية حق المعرفة، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها البتة. سوف يقتحم أخوك منزل أبيه بدافع الشر وحده أو وسوسته وسوء ظنّه. سوف يتساءل عما يجري في المنزل، وسيحب من فرط نفاذ صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنها ليست مختبئة في إحداها. وهو يعلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ ظرفاً كبيراً يحوي ثلاثة آلاف روبل، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود، وكتب عليه بخط

يده: «إلى ملاكي جروشنكا، إذا هي رضيت أن تجيء»، وأضاف إلى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام: «إلى حمامتي الصغيرة الغالبة». وهذا ما يثير قلقاً في نفسي.

صرخ إيفان فيدوروفتش يقول خارجاً عن طوره:

- هذا سُخف! لن يسرق دمتري مالاً، ولن يقتل أباه لهذا السبب! لقد كان يمكن أن يقتله أمس، كمجنون مهتاج، بسبب جروشنكا، ولكنه لن يجيء إلى هنا ليسرق!

- إنه الآن في حاجة ملحّة إلى المال، إنه في ضيق شديد، صدقني يا إيفان فيدوروفتش. لا تستطيع أن تتصور مدى رغبته في الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير). أضف إلى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له. لقد أكد لي ذلك أمس. قال: «إن أبي ما يزال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل تماماً». ويجب أن لا يغيب عن بالك يا إيفان فيدوروفتش، لأن هذه هي الحقيقة بعينها، إن آجرافينا ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت في ذلك أيسر رغبة. لقد أسرفت أنا في التعجل حين أكدت أنها لن تجيء إلى هنا، مع أنها قادرة جداً على أن تسدّد إلى هدف بعيد أن تداور في سبيل أن تصبح سيدة حقة. لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق، قال لها بصراحة تامة إن هذا سيكون حلاً ذكياً، وكان يضحك وهو يقول هذا الكلام. ليست جروشنكا امرأة غبية، ثق من ذلك! لن تبلغ من الحماقة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمتري فيدوروفتش. فما قولك والحالة هذه يا إيفان فيدوروفتش؟ ولعلك تقدّر أن دمتري فدوروفتش، إذا أصبحت آجرافينا ألكسندروفنا زوجة أبيه، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته، لا هو ولا أنت

ولا أخوك ألكسي. ذلك أن آجرافينا ألكسندروفنا لن تقبل هذا الزواج إلا في سبيل أن تنقل إلى اسمها كل ثروة أبيك، جميع ممتلكاته وأمواله. أما إذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج، فإن كلاً منكم سينال على الفور أربعين الف روبل، بالتمام والكمال. حتى دمتري سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه، وذلك لأن فيدور بفلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته... وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمتري معرفة جيدة...

تقلّص وجه إيفان، وألمّت به اختلاجة، واحمرّ على حين فجأة، وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً:

- قل لي: لماذا كنت تريد أن تراني مسافراً إلى تشرماشنيا؟ ما هي الغاية التي تسعى إليها؟ لا يعلم إلا الله ما سيحدث بعد سفري في هذا المنزل!

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروّية، وهو يحدق إلى إيفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه:

- هذا صحيح تماماً.

قال إيفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه:

- صحيح تماماً؟ ما معنى هذا؟

- لئن قلت هذا الكلام، فلأنني أشفق عليك وأرثي لحالك. اسمح لي أن أقول لك لو كنت في مكانك لآثرت أن أسافر فوراً على أن أجد نفسي مقحماً في قضية من هذا النوع...

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها شيء من تحرّج، دون أن يحوّل بصره عن إيفان فيدروفوفتش الذي كانت عيناه تقدحان شرراً. وأعقب ذلك صمت.

ثم قال إيفان بعد لحظة وهو ينهض فجأة عن الدكة:

- يبدو أنك أبله كبير... لكنك أيضاً وغد رهيب!

وكان يهمّ أن يجتاز الباب الحديدي، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف. وحدث عندئذ شيء غريب: لقد عض إيفان فيدوروفتش على شفتيه متشنجاً، وقبض يديه، فكان على وشك أن يهجم على الخادم بعد لحظة دون شك. فأدرك سمردياكوف ذلك فوراً، فارتجف، وارتد بجسده إلى وراء. وانقضت هذه اللحظة دون أن يصاب سمردياكوف بأذى. واتجه إيفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة. ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوي، مقطّعاً ألفاظه، وقد فاضت نفسه حنقاً:

- سأسافر غداً إلى موسكو، إذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك. غداً، في الصباح الباكر! هذا كل شيء!

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر في ذلك الظرف بالحاجة إلى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر.

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضي إليه إيفان هذا السر:

- هذه فكرة عظيمة، هذا أفضل الحلول! ولكنك تظل معرّضاً للاستدعاء من موسكو ببرقية إذا حدث هنا شيء.

فتوقف إيفان فيدوروفتش مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة سريعة. فإذا بسمردياكوف يتغيّر فجأة. تبددت الإلفة التي كان يصطنعها وتبدد الإهمال الذي كان يظهره، في لمح البصر وعبّر وجهه عندئذ عن انتباه شديد، كما عبّر عن انتظار ذليل خاضع، وكأن عينيه المحدّقتين إلى إيفان بإلحاح غريب تسألانه: «ألن تقول شيئاً آخر؟ ألن تضيف كلمة واحدة؟» فوعوع إيفان فيدوروفتش يقول

رافعاً صوته بدون سبب ظاهر:

- ألن أستدعى من تشرماشنيا أيضاً إذا حدث شيء؟

فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس، وكأنه ضائع الفكر شارد اللب، ولكنه لا ينقطع عن التحديق إلى إيفان فيدوروفتش بإلحاح:

- طبعاً... إذا حدث شيء... فستستدعى... من تشرماشنيا...

- الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة، أما تشرماشنيا فهي قريبة. هل النفقات التي لا داعي إليها هي التي تقلقك، أم أنت تحب أن توفر عليّ رحلة طويلة فتنصحني بأن أسافر إلى تشرماشنيا بدلاً من أن أسافر إلى موسكو؟

- هو كذلك تماماً...

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصمت مرتعش وهو يبتسم ابتسامة خبيثة. وكان متوتراً أو مستعداً للارتداد بجسده إلى وراء. فما كان أشد دهشته حين رأى إيفان فيدوروفتش وهو ينفجر ضاحكاً على حين فجأة، ويتجه بسرعة نحو الباب وهو ما يزال يضحك.

ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منتبه في تلك اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح. ثم إنه هو نفسه ما كان ليستطيع أن يقول ما الذي كان يشعر به حينذاك.

وكانت مشيته متقطعة، وكان في حركاته شيء يشبه أن يكون حركات آلة.

- 7 -

يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكي

إن الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها إيفان قد ظهرت في أقواله أيضاً. فإنه ما إن دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش في الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده: «أنا صاعد إلى غرفتي رأساً. لن آتي إليك. إلى اللقاء» ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر إلى أبيه. لعل منظر العجوز كان في نظره عندئذ لا يطاق، ولكن إظهاره هذه الكراهية بغير تحرّج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه. وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضي به إلى ابنه، لذلك هبّ إلى لقائه. ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من إيفان فيدوروفتش توقف حيث كان، دون أن ينطق بكلمة، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب في الطابق الأعلى.

وظهر في تلك اللحظة سمردياكوف الذي دخل إلى البيت إثر إيفان فيدوروفتش، فسأله العجوز فوراً:

- ماذا به اليوم؟

فقال سمردياكوف متهرباً:

- من يدري؟ إنه متعكر المزاج جداً.

- شيطان يأخذه إذاً! ألا فليتعكر مزاجه إذا كان ذلك يسره! أما أنت فهيئ السماور ثم انصرف. أسرع! أما من جديد حتى الآن؟

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذي كان سمردياكوف قد اشتكى منه لإيفان فيدوروفتش منذ قليل. إنه يلقي عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التي ينتظر زيارتها. ولا داعي إلى تكرار هذه الأسئلة هنا. وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحكم إقفاله بالمفتاح، وخلا العجوز إلى جنونه، فأخذ يسير في غرفته طولاً وعرضاً، منتظراً على نار كنار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها، كإشارة على وصول جروشنكا وهو ينظر من خلال النوافذ من حين إلى حين، فلا يرى في الخارج إلا الظلام.

انقضى شطر من الليل، ولكن إيفان فيدوروفتش لم ينم بعد. كان يفكّر ويتأمّل. ولم يرقد على فراشه تلك الليلة إلا في نحو الساعة الثانية. لن نحلل مجرى الخواطر التي دارت في رأسه، لأن قراءة ما كان يعتمل في نفسه عندئذ لم يحن حينها، وسيأتي دورها فيما بعد. ثم إن وصف ماكان يجيش في قرارة قلبه ليس بالأمر السهل، لأنه لم يكن خواطر بل كان شيئاً غامضاً، كان شيئاً مضطرباً مسرفاً في الاضطراب خاصة. وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره. هذا عدا رغبات غريبة غير متوقعة تقريباً كانت تعذبه في بعض اللحظات. من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية لا تقهر في أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب إلى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً. لماذا؟ لو سألته هذا السؤال لما استطاع أن يذكّر سبباً واحداً على وجه الدقة اللّهم إلا أنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الإهانة. ومن جهة أخرى فقد وافته في أثناء تلك الليلة نوبات خوف

مذلٍ لا تفسير له، بلغ من إدخال الاضطراب في نفسه أنه أحسّ بشلل مفاجئ في قواه الجسمية. وكان يشعر في الوقت نفسه بصداع ودوار. واستولى عليه بغض غامض، كما لو كان ينوي الانتقام من أحدٍ ما. إنه يشعر بعداوة حتى لأليوشا، حين يتذكر الحديث الذي جرى بينه وبينه في النهار. وكان يبدو له في لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها. أما كاترينا إيفانوفنا فكأنه نسيها. وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد، لا سيما وأنه كان أمس في الصباح، قد أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر غداً إلى موسكو، قد سمع صوتاً يدمدم في قرارة نفسه (إنه يتذكر هذا تذكراً واضحاً) قائلاً له: «كذبت! لن تسافر! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السهولة التي تتباهى بها الآن». ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صغيرة ستظل تنبجس في خياله كثيراً أثناء السنوات اللاحقة، فتملؤه اشمئزازاً وتقززاً. لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته عدة مرات ففتح الباب بدون ضوضاء، كأنه يخشى أن يكون هناك من يسترق السمع ويتلصص عليه وخرج إلى فسحة السلم، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذي كان يمشي في غرف الطابق الأرضي. كان يتنصّت على حركاته بفضول غريب منحبس الأنفاس خافق القلب، لا يدري هو نفسه لماذا يتصرَّف هذا التصرُّف، ولأي سبب يصيخ بسمعه إليه دقائق طويلة. لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك في تلك الليلة بأنه «سلوك حقير»، معتقداً في دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذي كان يحركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر إليها في حياته كلها. كان لا يشعر في تلك اللحظات بأي عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه، وإنما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب، محاولاً أن يتصور، بفضول قوي،

كيف يمشي أبوه في غرفته محموماً من نفاذ الصبر، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر إلى الخارج، وكيف يتوقف بعد ذلك في وسط الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الإشارة المتفق عليها. لقد خرج إيفان فيدوروفتش إلى فسحة السلّم على هذا النحو مرتين. فلما عاد الهدوء يخيم على كل شيء، وأوى فيدرو بافلوفتش إلى فراشه، في نحو الساعة الثانية من الصباح، قرر أن يرقد هو أيضاً، عازماً عزماً قوياً على أن ينام بأقصى سرعة، لأنه كان يحسّ بأنه مهدود القوى. وسرعان ما غرق فعلاً في نوم عميق لم تتخلله أحلام. واستيقظ في الصباح مبكراً، في نحو الساعة السابعة، وكان النهار قد طلع. فما إن فتح عينيه حتى أحسّ في نفسه بسيل خارق من القوة، فأدهشه ذلك كثيراً. وبسرعة نهض عن سريره بوثبة واحدة، ولبس ثيابه، وأخرج حقيبته، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة. وكانت الغسّالة قد جاءته بغسيله أمس. ابتسم إيفان فيدوروفتش راضياً حين لاحظ أن كل شيء يسير على خير حال، وأن سفره المفاجئ لايصطدم بأي عقبة غير متوقّعة. ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً، فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترينا إيفانوفنا، ولأليوشا، ثم لسمردياكوف)، فإنه لم يفكِّر فيه البتة حين رقد على سريره (إنه يتذكر ذلك الآن)، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض هي أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل. وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر. فلما أزفت الساعة التاسعة جاءته مارفا أجناتفنا تلقي عليه سؤالها المألوف: «أين تريد أن تتناول الشاي، هنا أم تحت؟» فنزل إيفان فيدوروفتش إلى الطابق الأرضي. كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجّل العصبي كان بادياً في حركاته وفي أقواله. وبعد أن سلّم على أبيه متودداً حتى

لقد سأله عن صحته خاصة، أعلن، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله، أنه مسافر إلى موسكو بعد ساعة، نهائياً، ورجا أن يؤمر بإعداد الخيل. لم يُظْهِر العجوز أي دهشة لإعلان ابنه سفره ونسي حتى أن يعبّر عما اصطلح الناس على التعبير عنه في مثل هذه الأحوال من أسف. وفي مقابل ذلك لم يفته أن يقلق فجأة على أمر من أموره الخاصة، ورأى أن ينتهز الفرصة ليكلِّمه فيه. قال:

- أوه! كان ينبغي أن تبلغني أمس... لا بأس على كل حال... سيتسع الوقت لحل هذه المسألة الآن. أرجو أن تقدم لي هذه الخدمة يا بني الشهم: توقف في تشرماشنيا عابراً. لن يكون عليك، حين تصل إلى محطة فولفيا، إلا أن تعرج شمالاً مسافة اثني عشر فرسخاً في أكثر تقدير، فإذا أنت في تشرماشنيا.

- معذرة، صدِّقني لا أستطيع. إن المسافة من هنا إلى محطة القطار ثمانون فرسخاً، وقطار موسكو يسافر في الساعة السابعة مساء، فلا يكاد يتسع وقتي لإدراكه.

- تسافر في قطار الغد أو غداة الغد. أما اليوم فاذهب إلى تشرماشنيا. أيصعب عليك إلى هذا الحد أن تقدِّم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك؟ لولا أنني مضطر إلى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت إلى تشرماشنيا بنفسي منذ زمن طويل. الأمر هناك مستعجل وهام جداً، ولكنني لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن... إن لي في تشرماشنيا غابة من حصتين في أراضي بيجيتشوفو ودياتشكينو. والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان عليّ إلا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع، على حين أن مشترياً آخر كان مستعداً في العام الماضي لأن يدفع لي اثني عشر ألف روبل بكل سرور. لم يكن ذلك المشتري من هذه المنطقة، وهذا هو تفسير الأمر، فما من

سبيل إلى العثور على مشتر من أهل المنطقة، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها إرادتهم فرض القانون. إنهم «كولاك»[52] وما من أحد يجرؤ أن يقف في وجههم وأن يصمد لهم. ولكن القس من قرية ايلينسكويه كتب لي يوم الخميس الماضي يقول إن رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الأشجار. والرجل تاجر هو أيضاً، وأنا أعرفه. إنه من مدينة بوجريبوفور، وهو لا يخشى آل ماسلوف لأنه ليس من سكان المنطقة إنه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع، فهمت؟ وقد ذكر لي القس أنه الآن في تشرماشنيا إلى حين، وأنه سيبارحها بعد أسبوع. عليك أن تذهب إليه لتناقش الأمر معه...

- ما عليك إلا أن تكتب للقس، فيتم لك الصفقة!

- إنه لا يفهم في هذه الأمور شيئاً، ذلك هو المزعج. إن هذا القس رجل أعمى في الشؤون العملية. إن له قلباً من ذهب، وإنني لمستعد أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل. ولكنه قصير النظر حتى لقد يخدعه صوص. ما هو من هذه الناحية برجل. وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا؟ إن هيئة جورستكين هذا هي هيئة فلاح، وهو يرتدي قميصاً أزرق، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً! إنه يكذب كما يتنفس. حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشيء إلا لذة الكذب! لقد روي منذ ثلاث سنين، مثلاً، أن امرأته ماتت، وأنه تزوج أخرى. فهل تتصور أنه كان يكذب؟ نعم لقد كان يكذب. حتى أن امرأته لم تكن في خطر الموت. وهي ما تزال حية وما تزال تضربه مرة كل ثلاثة أيام. فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار.

- إنك لتعلم جيداً أنني أنا أيضاً لا أفهم في هذه الأمور شيئاً. ففيم يمكنني أن أنفعك؟

- لحظة. انتظر. يمكنك أن تنفعني، لأنني سأطلعك على العلائم التي تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور في نفس جورستكين. إنني أعرفه منذ عهد بعيد. عليك أن تنظر إلى لحيته فتنفذ إلى خفايا سريرته. إن له لحية صغيرة حمراء مبعثرة، فإذا أخذت هذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة، أما إذا رأيته يلاعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغشّ. لا تحاول أن تقرأ في عينيه، فليس في وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئاً. إنه وغد لئيم، وما عيناه إلا ماء عكر. وإنما يجب عليك أن تنظر إلى لحيته. سوف أعطيك رسالة، فما يكون عليك إلا أن تناوله الرسالة. وليس اسمه الحقيقي جورستكين وإنما اسمه في الواقع لياجافي[53]. ولكن إياك أن تخاطبه باسم لياجافي، والا استاء استياء رهيباً. ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجري مجرى حسناً، فأبلغني ذلك فوراً: يكفي أن تكتب إليّ في هذه الحالة هذه العبارة: «ليس يكذب». حاول أن تصرّ على الثمن الذي ذكرته لك، وهو أحد عشر ألف روبل. ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل إذا اقتضى الأمر، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك. احكم بنفسك: من ثمانية آلاف إلى أحد عشر الفاً... الفرق ثلاثة آلاف. هذا مال يهبط عليّ من السماء لأن المشترين نادرون في هذه الأيام. وأنا في حاجة ماسة إلى هذا المبلغ، لا تتصور مدى حاجتي إليه. فمتى أبلغتني أن الأمر جد، وثبتُ إلى هناك لأتمّ الصفقة بنفسي. سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت. أما أن أذهب إلى هناك منذ الآن، فليس

ينفعني هذا في شيء، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله. هيه؟ اتفقنا؟ أتذهب أم لا؟

- لا يتسع وقتي، فلا تحرجني!

- أرجوك، اصنع هذا الجميل لأبيك! سأذكره لك ما حييت. ألأنتم جميعاً إذاً بغير قلب؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة؟ إلى أين تنوي أن تسافر؟ إلى البندقية؟ إن البندقية لن تهوي إلى قاع البحر خلال هذين اليومين! كان يمكن أن أرسل أليوشا، ولكن أليوشا لا يفهم في هذه الأمور شيئاً. ولئن اتجهت إليك فلأنك ذكي، أنا أعرف ذلك. ما أنت بتاجر، ولكنك ترى رؤية واضحة. المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد. أعود فأكرر أنه يكفي النظر إلى لحيته، فاذا ارتعشت كان يقول صدقاً.

صاح إيفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة:

- سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً إذا أنا ذهبت إلى تشرماشنيا هذه اللعينة.

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبرة المعادية في كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الضحكة على الفور فقال:

- إذاً وافقت، وافقت على أن تذهب إلى تشرماشنيا، سأكتب الرسالة الصغيرة حالاً.

- لا أدري بعد أأذهب أم لا أذهب. سأقرر ذلك أثناء الطريق.

- لماذا أثناء الطريق؟ قرر حالاً! بادرة طيبة يا عزيزي! فإذا سوّي الأمر وتمّت الصفقة، كتبت إليّ سطرين تودعهما القس، فيبادر إلى إرسالهما إليّ بغير إبطاء. ولك بعد ذلك أن تسافر إلى البندقية، فلن أمنعك. وسيعيدك القس إلى محطة فولوفيا بعربته...

تهلل العجوز فرحاً. وأسرع يكتب إلى التاجر رسالة قصيرة. ثم

أمر بإعداد العربة. وجيء للرجلين بوجبة خفيفة باردة، وجيء لهما بكونياك. إن عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح في لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو في هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه. وقد تحاشى أيضاً أن يجيء على ذكر دمتري فيدوروفتش. ولم يكن يلوح عليه من جهة أخرى أنه متأثراً لفراق ابنه، وكان صامتاً كأنه أصبح لا يجد ما يقوله. فوجيء إيفان بذلك، ومع ذلك فإن العجوز حين شيّع ابنه إلى درجات المدخل بدا متأثراً بعض التأثر وتظاهر بأنه يريد أن يقبّله. ولكن إيفان أسرع يمد إليه يده، راغباً في تحاشي القبلات رغبة لا تخفى على الناظر. أدرك أبوه ذلك، فلجم اندفاعته، وأخذ يقول مردداً من على درجات المدخل:

- كان الله في رعايتك، كان الله في رعايتك! سوف تأتي لرؤيتي في يوم من الأيام، أليس كذلك؟ أهلاً وسهلاً بك في منزلي دائماً. اذهب، وليكن المسيح معك!

ركب إيفان فيدوروفتش العربة. وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة:

- في أمان الله يا إيفان. لا تؤاخذ أباك!

وكان الخدم قد خرجوا للوداع. كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجوري. أعطى إيفان فيدوروفتش كلاً منهم عشرة روبلات. وحين استقر إيفان في العربة أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية. فقال له إيفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة:

- أرأيت؟ ها أنذا ذاهب إلى تشرماشنيا أخيراً...

وكما حدث بالأمس، تساءل إيفان لماذا شعر بالحاجة إلى أن يبلغ سمردياكوف ذلك، ولقد ظل يتذكر هذا الأمر كثيراً في المستقبل.

- صحيح إذاً أنه يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي، كما يقول الناس.

هكذا أجاب سمردياكوف بصوت جازم وهو يغرس في إيفان فيدوروفتش نظرة نافذة.

تحركت العربة، وانطلقت تعدو. كان المسافر في البداية في حالة نفسية مضطربة، وكان ينظر إلى ما حوله بشراهة، متأملاً الحقول والروابي والأشجار. ومرّ سرب من الأوز البري فوقه، محلقاً في السماء الصافية. إذا به يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة. فخاطب الحوذي، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذي، ومع ذلك رأى بعد بضعة لحظات أنه لم يسمع ما قيل له، وأنه، والحق يقال، لم يدرك ما أراد هذا الفلاح أن يقول له، ولكنه صمت راضياً: فالهواء نقي طري، منعش والسماء صافية لا غيوم فيها. وفي لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترينا إيفانوفنا. ولكنه ابتسم ابتسامة رقيقة، وزفر زفرة خفيفة على الطيفين العزيزين فغابا، وحدّث نفسه قائلاً: «سوف أعود إليهما في حينه». وقطع المسافة إلى المحطة الأولى من محطات العربات سريعاً. فأبدلت خيله، واستأنف طريقه إلى فولوفيا. سأل إيفان نفسه فجأة «لماذا قال لي إنه يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي؟ ماذا كان يعني بذلك؟» وراح يفكّر في هذا السؤال «ثم ما كانت حاجتي إلى إبلاغه أنني ذاهب إلى تشرماشنيا؟». . . ووصلت العربة أخيراً إلى فولوفيا، فنزل إيفان. أحاط به أصحاب العربات، فناقشهم وساوَمَهم، وانتهى إلى تحديد أجر إيصاله بخيول خاصة إلى تشرماشنيا التي تبعد مسافة اثني عشر فرسخاً في طريق زراعي. أمر بأن تُقرن الخيل، ثم دخل إلى المحطة، فألقى نظرة على قاعة المحطة، ثم إذا به يخرج فيقف على درجات الباب ويقول:

– لن أذهب إلى تشرماشنيا. قولوا لي يا شباب: هل يمكنني أن أدرك قطار الساعة السابعة؟

- ستدركه. هل نقرن الخيل؟
- اقرنوها فوراً. هل منكم أحد يذهب إلى المدينة غداً؟
- طبعاً. متري ذاهب إليها.
- هل لي منك بجميل تصنعه لي يا متري؟ اذهب إلى أبي فيدور بافلوفتش كارامازوف، وقل له إنني لم أذهب إلى تشرماشنيا. هل تستطيع أن تفعل ذلك؟
- لم لا؟ إنني أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل.
- خذ هذه مكافأة، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً...
قال إيفان ذلك وهو يضحك فرحاً. فأجابه متري وهو يضحك أيضاً:
- طبعاً. أنا أعرف أنه لن يعطيني شيئاً. شكراً يا سيدي. سأذهب إليه حتماً...
في الساعة السابعة من المساء، استقر إيفان في حافلة القطار الذي أقله سريعاً إلى موسكو. «ألا فليبتعد عني الماضي! لقد قطعت صلتي إلى الأبد بالعالم الذي عشت فيه، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره! ألا فليختف هذا الماضي من نفسي! ألا فلينقطع عن الوصول إلى مسمعي أي نداء من الحياة التي أبارحها! إنني أسافر لا ألوي على شيء ولا التفت إلى وراء! هيّا إلى عالم جديد، إلى أمكنة مجهولة!» بهذا كان يحدّث نفسه. ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح، أحسّ بمضض شديد يقبض صدره، وامتلأ قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل. ظل طوال الليل يفكّر ويتأمل، وسط قرقعة القطار الذي كان يجري بسرعة كبيرة. وعند الفجر، بينما كان القطار يقترب من موسكو، خرج إيفان من خدره فجأة، ودمدم يقول:
- أنا وغد!

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه، وظل خلال ساعتين في حالة قريبة من الهناءة والغبطة، يفرغ في جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة. غير أن حادثاً مؤسفاً ومزعجاً قد حدث في المنزل بعد ذلك، فإذا هو يبدِّل الحالة النفسية التي كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً، وإذا هو يغرقه في اضطراب شديد. إن سمردياكوف الذي ذهب إلى القبو لغرض ما قد سقط من على أول درجة، وتدحرج إلى أسفل الدرج. ومن حسن الحظ أن مارفا أجناتفنا كانت في فناء المنزل عندئذ، فعرفت حالاً هذه النازلة التي وقعت. إنها لم تدرك ضجة السقوط، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التي تعرفها منذ عهد بعيد، أعني الصرخة التي تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول نوبة. لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج إلى آخر الدرجات لأنه أغمي عليه، أم أن السقوط والارتجاج اللذين نشآ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع. المهم على كل حال أن سمردياكوف وُجد في قاع القبو تهزّه تشنّجات قوية ويخرج من فمه زبد. وقد ظُن في أول الأمر أنه قد جُرح حين سقط، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت، ولكن تبيّن أن «الله قد سلّمه» على حد تعبير مارفا اجناتفنا، فلم يُصب بأي أذى. ومع ذلك كان نقله من القبو عملاً شاقاً. وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذين هرعوا يساعدون. وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد في حمل المريض، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم. ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه. وكانت التشنجات تنقطع أحياناً ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل. وأجمع الرأي على أن الأمور ستجري في هذه المرة كما جرت في السنة الماضية حين

سقط سمردياكوف من طابق الشونة. وتذكروا أن الدكتور مرتسنشويه قد وصف له حينذاك ثلج يوضع على جبينه، وكان ما يزال في القبو بعض الثلج، فتولّت مارفا أجناتفنا أمر العناية بالمريض، حتى إذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشوبه، فلم يلبث الدكتور أن جاء، وبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية، كما أنه من أحق الناس بالاحترام، وقد طعن في السن كثيراً)، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن «تعرّض الحياة للخطر»، وأضاف إلى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيراً بعد، ولكنه سيرجع من الغد، فيصف دواء جديداً إذا اتضح أن الإجراءات السابقة لم تنفع المريض. وأُرقد سمردياكوف في ملحقات المنزل، في غرفة تتاخم غرفة جريجوري ومارفا أجناتفنا. وفي أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة من المكدِّرات والمنغِّصات، أولها وجبة الطعام التي أعدتها مارفا أجنافتا والتي كان حساؤها، إذا قيس بحساء سمردياكوف، ليس أفضل كثيراً من «ماء الغسيل»، أما لحم دجاجتها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه، وحين لام رب المنزل مارفا أجناتفنا على ذلك لوماً مراً وإن يكن مسوّغاً، أجابت بأن الدجاجة عجوز جداً، كما أنها هي مارفا لم تُدرّب لتكون طباخة! وفي المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدّر جديد: أُبلغ أن جريجوري، وهو مريض منذ يومين، قد لزم سريره وأن وجع الظهر الذي يعاني منه قد جمّده تماماً. وأسرع فيدور بافلوفتش يحتسي شايه، وسجن نفسه في المنزل وحيداً. إنه في حالة ترقّب مهموم مغموم، وإنه لمضطرب اضطراباً شديداً. فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتي في هذا المساء نفسه، وهو يكاد يكون من ذلك على يقين، لأن سمردياكوف قد أكّد له في ساعة مبكرة من الصباح

«أنها وعدت بالمجيء هذه المرة». كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره، وهو يمشي بلا توقف خلال غرفة المقفرة، مصيخا بسمعه إلى كل ركن من الأركان، ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة، لأن من الجائز أن يرقب دمتري فيدوروفتش مرور المرأة الشابة، فمتى قُرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكّد لفيدور بافلوفتش، منذ يومين، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يهرع إلى الباب لا يضيّع لحظة واحدة، ولا يجعلها تنتظر في غير داع إلى انتظار، لأنها قد تخاف في الظلام فتهرب لا سمح الله! كان فيدور بافلوفتش قلقاً إذن، ولكن نفسه لم يهدهدها في يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل: ألم يكن في وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتي أخيراً في ذلك اليوم؟!

الباب السادس

الراهب الروسي

– 1 –

الشيخ زوسيما وضيوفه

دخل أليوشا صومعة الشيخ قلقاً قد هدَّ قلبه الألم، ولكنه توقف على العتبة وقد استبدَّت به دهشة قوية: فإنه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذي لعله غاب عن وعيه، رأى الشيخ جالساً في مقعده. صحيح أن وجه الشيخ مرهق من الضعف، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح. وقد تحلّق حوله زوار كان يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً. والحق أنه لم ينهض إلا قبل وصول أليوشا بربع ساعة. أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا في الصومعة منذ زمن طويل، منتظرين صحوة الشيخ، لأن الأب بائيسي كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث مرة أخرى إلى أحبة قلبه، كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به في هذا الصباح». إن الأب بائيسي يؤمن بهذا الوعد، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر، وقد بلغ من قوة إيمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس، لما صدّق أن الشيخ مات، ما دام قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودّعه، أو لتوقع أن يرتد الشيخ إلى الحياة برّاً بوعده. وقد صرّح له الشيخ زوسيما بوضوح كبير في الصباح، قبل أن ينام: «إنني لن أموت إلا بعد أن أسعد مرة أخرى بالتحدث إلى أعزتي، وبعد أن أرى من جديد تلك الوجوه التي أحببتها، وبعد أن

أفتح قلبي لهؤلاء جميعاً مرة أخرى». والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذي يغلب على الظن أنه آخر حديث، إنما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم إخلاصاً له. إنهم أربعة: الراهبان الكاهنان يوسف وبائيسي، والأب ميخائل، رئيس رهبان المنسك، وهو راهب كاهن أيضاً، ما يزال شاباً بعض الشباب، متواضع الأصل، ليس على جانب كبير من العلم، ولكنه صلب النفس، قوي الإيمان بسيط ساذج، ولئن كان قاسي المظهر، فإن في قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياء وخجلاً. أما الزائر الرابع فهو الأخ آنفيم، وهو راهب قصير، طاعن في السن شديد التواضع، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة، رقيق دائماً، صموت يندر أن يكلّم أحداً. وهو خاضع مذعن أكثر من أي إنسان آخر، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التي لا يستطيع فكره أن يرقى إليها قد روّعته إلى الأبد. لقد كان الأب زوسيما يحب هذا الراهب الذي يبدو مرتجفاً حباً كثيراً، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً، رغم أنه ليس في هذا العالم إلا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع. ولقد عاش في صحبته مع ذلك سنين كثيرة، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة. حدث ذلك منذ زمن بعيد، منذ ما يقرب من أربعين عاماً، أيام كان زوسيما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مغمور فقير في مقاطعة كوستروما. فبعد أن دخل زوسيما ذلك الدير بزمن كثير، كُلّف بأن يرافق الأخ آنفيم في جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير. كان هؤلاء الزوار جالسين في حجرة الشيخ الثانية، أعني الحجرة التي كان يتخذها مهجعاً له، والتي كانت كما ذكرنا ضيقة جداً، تبلغ من الضيق حدّ أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدئ بورفير الذي ظل واقفا) لم يكادوا يجدون فيها

متسعاً لهم. لقد جاؤوا بكراسيّهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ. كان الغسق يهبط، وكانت تضيء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات. فلما لمح الشيخ أليوشا الذي لبث واقفاً على عتبة الباب من شدة اضطرابه، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ إليه يده قائلاً له:

- طاب يومك يا بني الطيب، يا عزيزي أليوشا الوديع. أجئت إذاً؟ لقد كنت أعلم أنك ستجيء.

فاقترب أليوشا منه، وانحنى له حتى الأرض، وأجهش باكياً. كأن شيء ما يتمزق في قلبه، وكانت نفسه منقبضة انقباضاً شديداً، فهو يتمنى أن ينفجر ناشجاً.

قال الشيخ مبتسماً وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا:

- ما بك؟ لم يحن وقت البكاء عليّ بعد. ها أنت ذا تراني أتحدث جالساً في هدوء. ومن يدري؟ فقد أعيش عشرين عاماً أخرى كما تمنّت لي ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التي جاءت من فيشيجوريي وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها ليزافيتا. أسأل الله أن يحرس الأم والبنية! (رسم الشيخ إشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات). هل حملت عطاءها يا بوفيري إلى حيث قلت لك أن تحمله؟

كان الشيخ يشير إلى مبلغ الستين كوبك التي تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها «لمن هو أفقر منها». إن الصدقات التي من هذا النوع إنما يتصدق بها أصحابها في العادة على أثر نذر ينذرونه أحراراً فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم. وقد أمر الشيخ في ذلك المساء نفسه بأن يحمل يورفيري هذا المبلغ الزهيد إلى امرأة فقيرة من ساكنات المدينة، هي أرملة لها

ولدان قد احترق منزلها في الآونة الأخيرة فأصبحت منذ ذلك الحين تستعطي لتعيش. أسرع بورفيري يقول إنه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً إنه من «محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها».

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا:

- انهض يا صديقي العزيز لأراك قليلاً. هل ذهبت إلى ذويك، وهل رأيت أخاك؟

دُهش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الإلحاح. ولكن أي الأخوين يقصد؟ هل يُستنتج من ذلك أن الشيخ إنما أرسله إلى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ؟

أجاب أليوشا قائلاً:

- رأيت أحد أخوي.

- أقصد أخاك الأكبر، أخاك ذاك الرهيب الذي سجدت له أمس.

- ذاك لم أره إلا أمس، ولم أستطع أن ألقاه اليوم.

- حاول أن تهتدي إليه بسرعة. عد إلى المدينة من الغد لرؤيته. دع كل شيء، ولكن رتب أمورك لإدراكه. ربما كان لا يزال في الوقت متسع لتجنب مصيبة. لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التي تنتظره.

وصمت الشيخ فجأة، وشرد فكره كأنه يحلم. لقد كانت أقواله غريبة. وهذا هو الأب يوسف الذي شهد بالأمس تحية الشيخ لدمتري يبادل الأب بائيسي نظرة. ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه، فصاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد:

- أبي ومعلمي! إن ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً في الغموض... ما هي الآلام التي تنتظره؟

- لا تحاول أن تعرف ذلك. لقد تراءى لي بالأمس أنني أدرك

شيئاً رهيباً... لقد قرأت مصيره في نظرته. رأيت في لحظة معينة تعبيراً خاصاً في عينيه... تعبيراً أرعشني بسبب المصير الذي يهيئ هذا الإنسان له نفسه. سبق لي مرة أو مرتين في الماضي أن لاحظت ذلك التعبير في نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل، فتحقق ذاك المصير واأسفاه! ولقد أرسلتك إليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمتك الأخوية أن تساعده بعض المساعدة. ولكن مصيرنا جميعاً هو بين يدي الرب. «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير»[54] احفظ هذه الحقيقة. أما أنت يا أليوشا فاعلم أنني كثيراً ما باركتك في فكري بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة وديعة). إليك رأيي فيك: سوف تترك الدير، وسوف تعيش في العالم كراهب. سيكون لك أعداء كثيرون، ولكنهم سيحبونك هم أيضاً. إن الحياة تخبئ لك آلاماً كثيرة، ولكنك بهذه الآلام انما ستسعد وستبارك الوجود. وستحمل الآخرين أيضاً على أن يباركوه، وذلك هو الشيء الأساسي. ذلك هو رأيي فيك وحكمي عليك.

التفت الشيخ إلى زواره فقال يخاطبهم وهو يبتسم ابتسامة ودوداً:

- يا آبائي ومعلميّ، إنني لم أقل إلى الآن حتى لهذا الفتى لماذا يستعذب قلبي وجهه. فسأسِرّ اليكم الآن بهذا. كنت أرى في قسماته ذكرى الماضي ونذير المستقبل. ففي فجر حياتي، حين كنت لا أزال في سن الطفولة، كان لي أخ أكبر مات أمام عينيّ في ريعان شبابه ولمّا يكمل السنة السابعة عشرة من عمره. ولقد رسخ في اعتقادي أثناء حياتي، شيئاً بعد شيء، أن هذا الأخ كان له في تحديد مصيري دور حاسم. وقد كان لي نذيراً وإشارة من الملأ الأعلى، ويقيني أنني لولاه لما سرت في طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب الذي قادني

إلى السعادة هذا. إن هذا التجلي الأول للعناية الإلهية قد حدث في فجر أيامي، وها أنذا أرى تكرره في خاتمة المطاف من طريقي. إنه لشيء بارز، يا آبائي ومعلميّ، أن ألكسي الذي لا يشبه أخي ذاك كثيراً بوجهه - فإنه ليس له منه إلا بعض السمات الخارجية - قد بدا لي شبيهاً به كل الشبه من الناحية الروحيةلله ولطالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذي كان لي في الماضي وقد آب إليّ الآن أوبة سرية في أواخر أيامي ذكرى من الماضي ونداء إلى التأمل، حتى لقد دهشت أنا نفسي في بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذي كان يغرقني فيه. هل تسمعني يا بورفير؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدئ المكلف بخدمته). كم من مرة لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأنني أحبّ ألكسي أكثر مما أحبك. فها أنت ذا تعرف سبب ذلك الآن. ولكن اعلم أنني أحبك كثيراً أنت أيضاً. ولطالما أحزنني حزنك. يا ضيوفي الأعزاء، اسمحوا لي أن أحدثكم عن أخي الفتي ذاك، لأنني لم أعرف في حياتي طيفاً أحبّ من طيفه إلى قلبي، ولا أشد تأثيراً في نفسي، ولا أصدق نبوءة في كل شأن من شؤوني. إن قلبي ممتلئ به في هذه اللحظة، لأنني أرى فيه حياتي مرة أخرى رؤية كاملة كأنني أعيشها من جديد...

يجب أن أنبّه القارئ هنا إلى أن هذا الحديث الأخير الذي أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلّقوا حوله في آخر يوم من أيام حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً. ذلك أن ألكسي فيدوروفتس كارامازوف قد سجّله بعد موت الشيخ بقليل. لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه ألكسي هو نص ذلك الحديث تماماً، وأن ألكسي لم يضف إلى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقة لمعلّمه. ويجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ما سجّله الكسي يوهم بأن الشيخ قد

ألقى خطاباً متصلاً حتى يروي قصة حياته لزواره، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت في الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف في ذلك المساء. فالحديث قد كان عاماً، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيراً، فقد تدخلوا في الحديث يضيفون كلمة شخصية، وملاحظات شخصية، وربما مسارّات عن حياتهم هم. ثم إنه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف، لأن أنفاسه كانت تتقطع أحياناً، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة، ولقد اضطر مراراً أن يمضي إلى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه في أماكنهم لم يبارحوها. ولقد تخللت الحديث، مرة أو مرتين، قراءة آيات في الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً. ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت في تلك الليلة نفسها، لا سيما وأنه قد بدا عليه في ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار، وهذه القوة التي استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذي أجراه مع أصدقائه. كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه إذكاء قوياً، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً، لأن روحه فاضت دفعة واحدة على حين فجأة... وعن هذا سأتكلم في ما بعد على كل حال. أما الآن فحسبي أن أقول إنني آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث، وأن أقتصر على ما رواه الشيخ، معتمداً على المخطوطة التي خلفها ألكسي فيدوروفتش كارامازوف. فذلك أقرب إلى الإيجاز وأبعد عن الإملال، رغم أن أليوشا، كما سبق أن قلت ذلك، قد ضمّن ما دوّنه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ.

– 2 –

مقتطفات من حياة المرحوم الكاهن الراهب الشيخ زوسيما

جمعها ودوّنها نقلاً عنه الكسي فيدوروفتش كارامازوف

وقائع من سيرة حياة

أ) الفتى أخو الشيخ زوسيما:

آبائي ومعلميّ الأحبة! ولدت بمدينة ف... في مقاطعة نائية بشمال روسيا. كان أبي من طبقة النبلاء، ولكنه من صغار النبلاء، ولم يكن يحتل رتبة عالية في سلّم رتب الدولة. وقد مات ولمّا أتجاوز السنة الثانية من عمري، فليس في ذهني أي ذكرى عنه. وقد ترك لأمي منزلاً من خشب، ليس بالكبير، وترك لها رأس مال متواضعاً، ولكنه كاف لأن تعيش مع أولادها في منجى من العوز. كنا ولدين. أخي الأكبر، مارسيل، وأنا، زينوفي. كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام. وكان جامح الطبع شديد النزق، ولكنه كان طيب القلب، لا يسخر من الآخرين قط، وكان كثير الصمت إلى حد غريب، ولا سيما مع ذويه، أي معي ومع أمي ومع الخدم. وكان في المدرسة مجداً مجتهداً ويبرهن عن ذكاء قوي ومع ذلك كان لا

يألف رفاقه في المدرسة كثيراً، ولكنه لا يشاجرهم أيضاً. تلك هي على الأقل الذكرى التي حفظتها أمي عنه. وقبل نهايته بستة أشهر، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشر من عمره، توثقت الصلة بينه وبين رجل كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال، رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً، لأنه أجبر على أن يغادر موسكو بأمر سامٍ، وأن يحدد إقامته في مدينتنا بسبب آرائه الليبرالية ودعوته إلى الحريّة. كان هذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفاً تقدره الأوساط الجامعية تقديراً كبيراً. وقد أحبّ أخي مارسيل، لا أدري لماذا، فكان يستقبله كثيراً في منزله. فقضى أخي عند هذا الرجل سهرات طويلة، على مدى فصل الشتاء كله إلى أن استدعي الرجل إلى سان بطرسبرج ليُعهد إليه بمنصب رسمي، لأنه كان ذا صلات مع جهات عليا. كان هذا في وقت الصيام الكبير، وقد رفض أخي أن يصوم، مستهزئاً بالعبادات متهكماً عليها، حتى لقد قال: «هذه سخافات وأباطيل، لأن الله لا وجود له»، فما كان أشد رعبنا جميعاً من هذا الكلام، أنا وأمي والخدم! لقد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري في ذلك الحين. وكان جميع خدمنا، وهم أربعة فحسب، أقناناً اشتريناهم باسم رجل من مالكي الأطيان كنا على صلة به. وما زلت أتذكر اليوم الذي باعت أمي فيه إحدى خادماتنا، وهي الطباخة العجوز العرجاء آفيميا، بستين روبلاً ورقاً، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأقنان. وها هوذا أخي يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير. لقد كان أخي ضعيف البنية كثير المرض، عنده قابليّة للإصابة بالسل. إنه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه. تُرى هل أصابه برد؟ المهم أن الطبيب الذي كان يعالجه قد

أسرّ إلى أمي خفية أن مارسيل مصاب بسلٍ يتفاقم تفاقماً سريعاً وأنه لن يعيش إلى آخر الربيع. فأخذت أمي تبكي وتضرعت إلى مارسيل محاذرة (حتى لا تروّعه خاصة) أن يصوم ويتناول القربان المقدس في عيد الفصح. ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ إلى ملازمة الفراش. فأجابها أخي غاضباً وحقّر الكنيسة وأهانها وشتمها ولكنه أطرق مستغرقاً في التفكير. لقد أدرك على الفور خطورة حالته حين رأى إلحاح أمي عليه أن يذهب إلى كنيسة ليصوم ويتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك. ثم إنه كان يعرف أنه مريض منذ زمن طويل، حتى لقد قال لنا منذ ما يقرب من عام، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمي: «إنني لن أعيش زمناً طويلاً، وقد لا أكون معكم بعد سنة». وها قد تحقق ما كان يوجسه. انقضت ثلاثة أيام ودخلنا أسبوع الآلام. فإذا بأخي يذهب إلى الكنيسة منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي: «إنني أذهب إلى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه، وذلك حتى تطمئني بالاً وتهدئي نفساً». فبكت أمي، فرحاً في أول الأمر، وحزناً وألماً بعد ذلك. وحدثت نفسها قائلة: «لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذا التبدل فيه». ولم يتح له أن يكثر من الذهاب إلى الكنيسة، لأنه اضطر إلى ملازمة الفراش، فصار يعترف ويتناول في المنزل. لقد جاء الفصح متأخراً في ذلك العام. الأيام صافية مضيئة، والهواء عبق معطّر. أذكر أن أخي كان يسعل في جميع الليالي، ولا يكاد ينام. حتى إذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة. وفي هذه الصورة إنما أراه الآن: جالساً، وديعاً، رقيقاً، مبتسماً، مريضاً جداً ولكنه مرح جداً، سعيد جداً في الظاهر. لقد تبدّلت نفسه تبدلاً كبيراً، فبدا لي هذا التبدل خارقاً. قالت له الخادم العجوز يوماً:

«اسمح لي يا بني العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة في غرفتك». ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها. ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز: «اشعلي يا عزيزتي، اشعلي! ألا ما كان أشد شذوذي حين كنت أمنعك من ذلك! أنت تصلين لله حين تشعلين شمعة أمام الأيقونة، وأنا أيضاً أصلّي لله حين أنظر إليك، لأن مرآك يبهج قلبي، ونحن كلانا يصلي إذاً لإله واحد». بدت لنا تلك الأقوال غريبة حينذاك. وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة. فكان يقول لها في بعض الأحيان: «لا تبكي يا أماه، يا ملاكي الصغير، فلسوف أعيش زمناً طويلاً، ولسوف أبتهج معكم، فجميلة هي الحياة، وزاخرة بالسعادة والفرح!»

وكانت أمي تقول له محتجّة: «أين البهجة، وأنت مصاب بالحمى في كل ليلة، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك؟»، فيعود يقول لها: «لا تبكي يا أماه، فالحياة جنة نحن فيها جميعاً، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك، فلو ارتضينا أن نسلّم بذلك لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم». كانت هذه الأقوال تدهشنا، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً راسخاً. وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً، فتترقرق في أعيننا الدموع. وكان يزورنا بعض الأصحاب فإذا هو يقول لهم: «يا أعزائي، يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها؟» وكان يكرر للخدم دائماً قوله: «لماذا تخدمونني؟ يا أصدقائي الأعزاء الطيبين؟ ما الذي يجعلني أستحق أن تخدموني؟ إذا منّ عليّ الله فأبقاني حياً، فلأخدمنّكم أنا، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضاً في هذه الحياة الدنيا». فكانت أمي تهز رأسها

حين تسمعه يتكلم على هذا النحو، فتقول له: «إن المرض هو الذي يوحي إليك بهذه الأفكار يا بني»، فيجيبها قائلاً: «أماه، يا فرحة حياتي! أنا أعلم أنه لا بد أن يكون هناك سادة وخدم، ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي، وأن أخدمهم كما يخدمونني، وأحب أن تعلمي أيضاً، أن كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسؤول عن جميع آلامهم. وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس». لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا الكلام. وكانت تبكي وتضحك في آن واحد. سألته: «هلاّ قلت لي كيف تكون أكبر ذنباً من سائر الناس؟ إن العالم مليء باللصوص والقتلة، أما أنت فإن وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة إثم! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام؟» قال أخي: «يا أماه! يا حملي الوديع! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال)، يا فرحتي الكبيرة، يا حمامتي اللطيفة! أؤكد لك أن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب، في حق جميع الناس. لا أدري كيف أشرح لك هذا الأمر، ولكنني أحسّه، أحسّه إحساساً قوياً عنيفاً إلى حدّ العذاب. كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع، لا نفهم من الحياة شيئاً؟» وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحناناً، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة. وكان الطبيب العجوز الألماني آيزنشمدت، يعوده أحياناً. فسأله أخي ذات يوم ضاحكاً: «هيه يا دكتور! أأعيش إلى الغد؟» فأجابه الطبيب: «ستعيش لا إلى الغد فحسب، وإنما ستعيش أياماً وأشهراً بل سنين». فهتف عندئذ يقول: «ما خير أن يعيش المرء أشهراً وسنين؟ إن يوماً واحداً لكاف من أجل أن يعرف الإنسان كل سعادة هذا العالم. يا أصدقائي الأعزاء! ما بالنا نتشاجر ونتباهى ويحقد بعضنا على بعض لإساءة نالته. ألا

فلنخرج إلى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً! ألا فليتغن كل منا بفضائل أخيه! ألا فلنتعانق ونبارك الحياة!» قال الطبيب لأمي حين شيّعته إلى درج الباب: «لن يعيش ابنك طويلاً. لقد اختلّ من المرض عقله». وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالأشجار الكبيرة التي نبتت على فروعها البراعم، وكانت أوائل عصافير الربيع التي وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه، فكان يتأملها طويلاً ويعجب بها كثيراً، حتى لقد أخذ في ذات يوم يستغفرها هي أيضاً قائلاً لها: «أيتها العصافير التي خلقها الله، أيتها الطيور الصغيرة، اغفري لي أنت أيضاً، لأنني أذنبت في حقك». وبدا لنا هذا أمراً لا سبيل إلى فهمه قط، وكان هو يبكي عطفاً وحناناً. وقال فرحاً: «نعم، لقد كانت عظمة الله مبسوطة أمامي: الطيور والأشجار والمراعي والسماوات. إلا أنا، فقد كنت أعيش في الخزي والعار، مسيئاً إلى شرف الخليقة، ولم أكن أرى جمال الحياة وسناءها». فكانت أمي تقول له باكية: «إنك تتهم نفسك بخطايا كثيرة»، فيقول لها: «أماه يا فرحة نفسي، إنني من سعادة لا من حزن أبكي. وددت لو أكون مذنباً في حق العصافير الصغيرة! لا أستطيع أن أشرح لك هذا، لأنني لا أعرف كيف أحبها. ألا فلأكن مذنباً في حق الجميع، وإذن فسيغفر لي الجميع أيضاً. تلك هي الجنة. ألست الآن في الجنة؟»

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها. دخلت ذات يوم إلى غرفته وكان وحده. كان ذلك في المساء، والجو صاح مضيء، والشمس الغاربة تغرق الغرفة بأشعتها المائلة. فلما رآني أشار إليّ أن أقترب، ثم وضع يديه على كتفي وتأملني طويلاً متفرساً في عيني، وقد بدا في وجهه حب وحنان. وانقضت على ذلك دقيقة دون أن

ينطق بكلمة ثم أسبل يديه وقال لي: «هيّا العب الآن وابتهج! إنني أريد أن تحيا عني!»، خرجت ومضيت ألعب، ولكنني كثيراً ما فكرت أثناء حياتي، والدموع في عينَيّ، في هذا الأمر الذي أصدره إليّ، وهو أن أحلَّ محلّه في هذا العالم. وفي مرات كثيرة بعد ذلك عبّر عن عواطف رائعة سامية رفيعة، لم نكن نفهمها كثيراً في ذلك الحين. وانطفأ في الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح، واعياً كل الوعي، صاحياً كل الصحو، ورغم أنه أصبح لا يتكلم في أواخر أيامه، فقد ظل على ما كان عليه حتى ساعته الأخيرة، ينظر إلينا سعيداً فرحاً مبتسماً، ويبحث عنا وينادينا بعينيه. وقد تكلم الناس عن موته كثيراً في مدينتنا. وأثّر هذا الحادث في نفسي ولكن بدون إفراط، وإن أكن قد ذرفت دموعاً سخية يوم الجنازة. لقد كنت صغيراً جداً، كنت طفلاً، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة في أعماق قلبي، لتنتصب أمامي متى آن الأوان، نداء من الملأ الأعلى. هكذا جرت الأمور فعلاً.

ب) أثر الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما:

بقيت وحيداً مع أمي. ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها إنها تحسن صنعاً، بعد أن لم يبقَ لها إلا ابن واحد، وما هي محرومة من الموارد، أن ترسل هذا الابن إلى بطرسبرج للدراسة، على غرار ما تفعل أسر نبيلة أخرى، وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها، إذا هي احتفظت بابنها إلى جانبها في مدينة صغيرة، تعرّضه للحرمان من مستقبل لامع. وأقنعوا أمي أخيراً بأن تسجلني في «المدرسة الحربية» ببطرسبرج، لأكون في المستقبل ضابطاً من ضباط الحرس الإمبراطوري. وقد ترددت أمي كثيراً في العزم على فراق ابنها الأخير، ولكنها اتخذت قرارها أخيراً وهي تبكي، فألحقتني بالمدرسة

الحربية معتقدة أنها بذلك تؤمّن سعادتي. ثم لم أرها منذ ذلك الحين، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين، وهي في أثناء تلك الفترة لم تنقطع عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير ابنها الباقي. وقد احتفظ خيالي بذكريات مضيئة عن المنزل الذي عشت فيه مع أمي، لأن أصفى مشاعر القلب الإنساني هي المشاعر التي يكون قد أحسّها المرء في سني طفولته في بيت أبويه. الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق مسيطرين على حياة الأسرة. ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى في الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجني من عناصر الوجود ما هو طيب نبيل. ولقد ارتبطت سيرة القديسين بذكريات طفولتي، لأنني كنت أهتم بها أثناء طفولتي اهتماماً كبيراً. كنت أملك كتاباً فيه صورة جميلة عنوانه: «مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والإنجيل»[55]، وفي هذا الكتاب إنما تعلمت القراءة. وما يزال هذا الكتاب عندي حتى الآن. هو هناك، على الرف، وأنا أحافظ عليه محافظتي على أثر ثمين جداً من آثار الماضي. على أنني أتذكر أن التجلي الروحي الأول الذي شعرت به إنما كان قبل تعلمي القراءة، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري حينذاك. لقد قادتني أمي إلى الكنيسة للصلاة في يوم الاثنين من «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدري الآن أين كان أخي حينذاك). النهار صحو، والشمس ساطعة، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة، كأن الأمر قد وقع أمس، ما زلت أرى أدخنة البخور تتصاعد بطيئة نحو القبة، وفي أعلى الكنيسة كانت أشعة الشمس تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة، ثم تنضهر في الضياء الذهبي أخيراً. كنت أتأمل هذا

المشهد معجباً، وأحسست أن بذرة «كلمة الرب» تُغرس في نفسي. وتقدم مراهق إلى وسط المعبد. كان يحمل كتاباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله. وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل، ثم فتحه وأخذ يقرأ. فهمت في ذلك اليوم، لأول مرة في حياتي، ما يُقرأ في الكنيسة: كان يعيش في أرض عوص(56) رجل تقي صالح يملك من الثروات كذا وكذا ومن النوق كذا، ومن الخراف والحمير كذا وكذا. وكان أولاده سعداء فرحين، وكان يحبهم كثيراً، ويصلي من أجلهم للرب. هل ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما في سعادتهم؟ ذلك أن إبليس مَثُلَ يوماً أمام الرب مع أبناء الله وقال له إنه طاف الأرض كلها وما تحت الأرض فسأله الرب: «هل رأيت عبدي أيوب؟» وتباهى الرب أمام إبليس بقداسة عبده العظيم أيوب. ولكن إبليس ضحك وأجاب: «مكنّي منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك». فمكّن الرب إبليس من عبده الأمين الذي كان يحبه الرب كثيراً، فضرب الشيطان قطعانه، وضرب أولاده، ودمر ثرواته، وأرسل إليه جميع المصائب دفعة واحدة، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره. مزّق أيوب ثيابه، وارتمى على الأرض صائحاً: «لقد خرجت من بطن أمي عارياً، وعارياً سأعود إلى الارض. وهب الرب لي كل شيء، والرب استردّ ما وهب. تبارك اسم الرب، الآن وفي كل حين!» يا آبائي ومعلميّ، سامحوني إذا رأيتموني أسكب العبرات في هذه اللحظة. إن طفولتي تنبثق الآن أمامي، حتى ليخيل إليّ أنني أتنفس كما كنت أتنفس في طفولتي بذلك الصدر الصغير، صدر الطفل الذي لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره. إن ذلك الانفعال هو نفسه الذي أحسست به يومذاك يغزوني في هذه اللحظة، فإذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشاً مفتوناً في

ذلك اليوم البعيد بالكنيسة. لقد أحدثت تلك النوق تأثيراً قوياً في خيالي، وأذهلتني قصّة الشيطان الذي كلّم الرب، وشدهني قرار الرب أن يمكّن الشيطان من عبده الأمين، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه: «تبارك اسمك، رغم أنك تعاقبني». ثم تصاعدت في الكنيسة أغنية رقيقة جداً: «سمع الله لصلاتي». وارتفعت أدخنة البخور، وركع المصلون! ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة - قد حدث لي هذا أمس أيضاً - إلا وتنسكب الدموع من عيني. ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص! لقد اتفق لي أن سمعت نقداً لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويثلبونه، أناس أعماهم غرورهم وصَلَفهم فهم يسخرون مما لا يفهمون، قالو: «كيف يمكّن الربّ الشيطان من قديسه الأثير، فيستهزئ الشيطان بالقديس، ويخطف أولاده، ويرسل إليه الأمراض، ويغطي جسمه بالقروح، حتى صار يزيح القيح عن قروحه بشقفة من فخار؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً: «انظر ماذا يستطيع أن يتحمله واحد من أوليائي الصالحين في سبيل محبتي!»؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة إنما هي في هذا السر الذي يتأكد فيها! إن الظاهرة العَرَضية للحياة الأرضية تلامس في هذه القصة الحقيقة الأبدية التي لا ندركها. فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض، يتجلى فعل حقيقة أبدية تفوق هذا الواقع. إن الخالق في هذه القصة يتصرف كما تصرف في الأيام الأولى من الخلق حين قال إنه أبدع فيما صنع. إنه ينظر إلى أيوب فيبهجه أنه خلقه. وأيوب الذي يمجّد الرب لا يخدم الرب وحده بل يخدم الخليقة أيضاً، من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل، فذلك هو ما يسّر له. رباه ما أروعه

سفراً، وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتاب المقدس، وما أكبر تلك القوة المعجزة التي توقظها في الإنسان! لكأنه صورة الكون والإنسان نفسه. كل شيء قد قيل فيه وأعلن لقرون. ما أعظم الأسرار التي يكشف عنها ويحلها! إن الرب يردّ السعادة إلى أيوب، ويهب له ثروات جديدة، وتنقضي أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضاً. رباه! قد يتسائل متسائل: «فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول إلى غير رجعة؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد، مهما يكونوا أحبةً في قلبه، إذا هو تذكر أولئك الذي غابوا إلى الأبد؟» الحق أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة، لأن الآلام القديمة تهدأ بمرور لزمن، ويطامنها سرّ الطبيعة الإنسانية الكبير، وتستحيل شيئاً فشيئاً إلى أفراح ساجية. إن الدم الذي يغلي في سن الشباب يفسح المجال في الشيخوخة لهدوء ساكن. إنني أبارك في جميع الأيام طلوع الشمس، وإن قلبي ليبتهج بشروقها كما كان يبتهج به في الماضي، ولكنني أؤثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التي توقظ في نفسي ذكريات بعيدة عذبة، وتحيي أطياف الماضي الحبيبة من حياة طويلة مباركة. ففوق هذه الذكريات تحلّق الحقيقة الإلهية التي تهدّئ وتصالح وتبرئ! سوف أموت، أنا أعرف ذلك وأفهمه، ولكنني أحسّ في كل يوم يوهب لي بأن الحياة ماتزال توهب لي وأن حياتي الأرضية تندفع نحو حياة جديدة، أبدية، لا نهاية لها، ولكنها منذ الآن قريبة يملأ الإحساس بها نفسي إعجابا، ويبكي قلبي فرحاً ويشع عقلي... يا أصدقائي ومعلميّ! لقد سمعت من يقول، سمعت ذلك مراراً وأسمعه الآن أكثر من أي وقت مضى، إن الكهنة، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرّ الشكوى من أن راتبهم غير كاف، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيعة، قائلين بل كاتبين -

وقد قرأت ذلك بعينيّ - أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الإنجيل للشعب، بسبب قلة رزقهم. «إذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا، فليفعلوا ذلك، لأننا لا نجني من الرزق ما يكفينا». هكذا يقولون. يا عدالة السماء! إلا أنني لأسأل الرب أن يربى راتبهم هذا الذي يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكنني أقول مخلصاً: من المسؤول عن هذا الوضع إن لم نكن نحن المسؤولين عنه إلى حد ما؟ إنني أسلم بأن القس في الريف مثقل بأعباء العمل، وليس في وقته من الفراغ ما يمكّنه من الاهتمام بالشعب. ولكنني أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه إلى الحد الذي يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعة من وقته في الأسبوع. ثم إنه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع. ألا فليجمع في داره، مرةً في الأسبوع، ساعة المساء، ألا فليجمع الأطفال في أول الأمر، إذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا، لا حاجة إلى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع. ما على القس إلا أن يجمع الناس في منزله الفقير نفسه. وليس له أن يخاف، فإنهم لن يفسدوا مسكنه! ما ساعة في الأسبوع؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة! فليقرأ قراءة بسيطة طبيعية، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه، ممتلئاً بحب النص المقدس. وفي وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين إلى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب. وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة. لأن الروح الارثوذكسية تحسّ الحقيقة إحساساً سريعاً. إن القصص التي تروي حياة إبراهيم وسارة، وإسحق وربيكا، ويعقوب الذي ذهب إلى عند لابان[57]، وقال بعد أن اصطرع مع الرب في الحلم: «هذا مكان رهيب»، إنَ هذه القصص ستمضي قدماً إلى العقل النقي،

عقل البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد. يجب أن نقص عليهم، وعلى الأطفال خاصةً، قصة الفتى الجميل الفتان يوسف[58]، النبي الكبير، مفسّر الأحلام، كيف باعه إخوته ثم زعموا لأبيهم أن ذئباً أكله، وأظهروا أباهم على ثيابه الملطخة بالدم تدليلاً على صدق قولهم، وكيف سافر إخوته بعد ذلك إلى مصر التماساً للخبز، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون، ولكنهم لم يعرفوه، فاضطهدهم، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما يكنه لهم من حب: «إنني أحبكم، وإنني لأعذبكم وأنا أحبكم». ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذي باعه فيه إخوته لأناسٍ من تجار العبيد، في سهل مقفر، قرب بئر، بينما كان يضرع إليهم باكياً عاقفاً ذراعيه ان لا يتركوه للعبودية في أرض غريبة. فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحسّ بحبه لهم ينبعث في قلبه، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة، وتركهم أخيراً وانصرف، لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل الشعكاة التي تصدرعن قلبه هو نفسه. وارتمى على سريره وأجهش باكياً، ثم جفف وجهه وعاد إليهم هادئ النفس مشرق المحيا وقال لهم: «يا إخوتي، أنا يوسف أخوكم». وليقرأ القس للناس تتمة القصة: كيف سرّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت، وكيف سافر هو أيضاً إلى مصر، هاجراً الأرض التي وُلد فيها، ومات على تراب غير تراب وطنه، تاركاً في وصيته أكبر وعد سيتحقق للإنسانية على مدى العصور، كاشفاً عن السر الذي كتمه طول حياته في قلبه المتواضع الوجل، ألا وهو الوعد الذي يبشر الإنسانية بأنه سيولد من نسله في يوم من الأيام إنسان هو أمل العالم، وهو للإنسانية مخلّصها وفاديها[59]! يا آبائي ومعلميّ! اغفروا لي إنني أذكركم، كتلميذ صغير، بأشياء تعرفونها منذ زمن طويل،

ويمكنكم أن تعلّمونيها بأحسن مما أفعل فناً وعلماً! لقد اندفعت مع الحماسة. واغفروا لي دموعي، لأنني أحبّ هذا السفر. وإذا استطاع القس أن يبكي هو أيضاً أثناء القراءة، فلسوف يرى مدى أثر ذلك في نفوس سامعيه قوة انفعال وعمق عاطفة. ألا إن بذرة لتكفي مهما تكن صغيرة. فإذا بُذرت في قلب البسطاء، لم تفن بعد ذلك يوماً، وإنما هي تعيش في نفوسهم وتظل تثمر طوال حياتهم، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم، نبعاً من ضياء، وذكرى عظيمة. لا حاجة إلى شروح طويلة واستطرادات متعالمة يتيه في شعابها الفكر. إن أبناء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة. أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك؟ قوموا إذاً بهذه التجربة، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة، قصة أستير الرائعة وفاستي المتكبرة[60]، أو اقرأوا لهم تلك القصة الرائعة عن مغامرة يونس في جوف الحوت[61]. ولا تنسوا كذلك رموز الرب، ولا سيما رموز الإنجيل كما وردت في كتاب القديس لوقا[62] (وذلك ما كنت أفعله دائماً)، اقرأوا لهم من أعمال الرسل دعوة شاؤول[63] (هذا لا بد منه، لا بد منه) واقرأوا لهم في كتاب الشهداء حياة ألكسي ولي الله، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية[64]. فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة في قلوبهم! تكفي ساعة في الأسبوع، ساعة واحدة، رغم قلة الراتب. فإذا ارتضى القس بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لشعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل. لسوف يرد إليه الفلاح معروفه مضاعفاً مائة مرة. لسوف يتذكر نشاط القس وقراءاته المؤثرة، فإذا هو يهبّ من تلقاء نفسه إلى مساعدته في أعماله في الحقل أو المنزل. ولسوف يمحضه احتراماً متزايداً، وهذه المزايا، مجتمعة، تساوي زيادة في الدخل، ذلك حل يبلغ من السهولة في الواقع أن المرء يستحي أحيانا

أن يقترحه، مخافة أن يُضحَك عليه. ومع ذلك فهذه هي الحقيقة! إن من لا يؤمن بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً. ولكن الذي لا يشك في شعبه، لن يلبث أن تتجلى له قداسة روح الشعب، ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك. إن مثقفينا الملحدين، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التي أنبتتهم، لن ينقذهم ولن يردهم إلى طريق الرشاد إلا شعبنا الذي ستتأكد قوته الروحية في يوم من الأيام. ما قيمة أقوال المسيح إذا لم تسندها قوة القدوة؟ ألا إن الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الإلهية، لأن الشعب ظامىء إلى هذه الكلمة، وإلى مثل أعلى أخلاقي رفيع.

في أثناء شبابي، منذ أكثر من أربعين عاماً، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنفيم نجمع المعونات لديرنا الفقير. ففي ذات يوم، توقفنا ليلاً عند شاطىء نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة، بين الصيادين. فجلس إلى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح في نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق بعمله في الغد، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية. كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصافيتين الحلوتين. الليلة ساجية حارة، هي ليلة مشرقة مضيئة من ليالي شهر تموز/يوليو. ومن النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل إلينا طراوة منعشة. وتنبجس سمكة إلى سطح الماء من حين إلى حين، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفاً. سكتت العصافير، فكأن الطبيعة كلها تصلي لله صامتةً في هذه الهدأة التي ترين من حولنا على الأرض والسماء. ونحن وحدنا لم ننم، أنا وهذا الفتى. تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف طريقها جميعاً في هذا العالم، دون أن يكون لها ذكاء، فإذا هي بهذه المعرفة المعجزة متشهد بعَظَمَة

صنع الله وتساهم في كل لحظة بعملها المتواضع، في تحقيق الغايات العليا للخالق. فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهبت حماسة وحميًا. وأسرَّ إليّ بأنه يحب الغابات وطيورها، لأنه كان هو نفسه صائد طيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها. قال لي: «لا شيء أروع من الغابة، وكل شيء في الطبيعة جميل على كل حال» فأجبته قائلاً: «هذا صحيح. كل شيء في خليقة الله رائع ومؤثر، لأن كل شيء فيها حق. انظر إلى الحصان مثلاً، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالإنسان ذلك التعلق كله، أو انظر إلى الثور الخاضع المطرق الذي يطعم الإنسان ويعمل من أجله. ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيراً ما يضربونها بغير شفقة، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان في نظراتها! أليس هذا جميلاً؟ إنه لأمر مؤثر في النفس أن نتذكر أن هذه الحيوانات هي بلا خطيئة، لأن كل ما في الكون بريء كامل إلا الإنسان. لقد كان المسيح مع الحيوانات، قبل أن يجيء ليخلصنا». فسألني هذا الفتى:

«هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضا؟» فأجبته قائلاً:

«وكيف لا يكون الأمر كذلك، ما دامت الكلمة للجميع. إن كل مخلوق، إن كل من تنفس، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار، يشهد بعَظَمة الخالق ويسبِّح بحمده. إن كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح، ويناديه على غير شعور، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية، وهي أنه بغير خطيئة. انظر في الغابة إلى الدب، المخيف الضاري دون أن يكون مسؤولاً عن ذلك!» قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم[65] كان يعيش معتزلاً

في صومعة صغيرة وسط الغابة. فأشفق الناسك على الوحش الجائع، فهبَّ إلى لقائه بغير وجل، ومدَّ إليه قطعة من خبز كأنما يقول له: «كُلْ في سلام، وليكن المسيح معك»، فابتعد الوحش الضاري طائعاً دون أن يلحق بالقديس أي أذى. تأثر الفتى تأثراً شديداً من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه. وصاح يقول: «ما أروع هذا! ما أروع كل شيء إذاً في خلق الله!» وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة. رأيت أنه فهمني. ثم استلقى قريباً منا ونام بريئاً هادئاً. بارك الرب في الشباب! صلّيت من أجله قبل أن أنام أنا أيضاً. ربِّ ابعث السلام والأمن والضياء إلى جميع مخلوقاتك!

ج) ذكريات سني الشباب التي عاشها الشيخ زوسيما في العالم. المبارزة:

لبثت في المدرسة الحربية ببطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثماني سنين. إن التربية التي تلقيتها في تلك المدرسة قد كبتت في نفسي كثيراً من مشاعر الطفولة، ولكنني لم أنس تلك المشاعر حقاً. وفي مقابل ذلك أكسبتني هذه التربية أفكاراً وعادات جديدة جعلت مني إنسانا يكاد يكون متوحشاً، إنساناً قاسياً أحمق. وبتعلم اللغة الفرنسية تزينت بآداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة، أما الجنود الذين كانوا يخدموننا فقد كنا جميعاً، وأنا أيضا، نعدُّهم بهائم؛ ولعلني كنت أسبق من غيري في ذلك، لأنني كنت في كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقي. ولما أصبحنا ضباطاً كنا مستعدين لأن نبذل دمنا في سبيل شرف كتيبتنا، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً. ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافاً واحتقاراً ولكنت أنا أوّل

من تصرف هذا التصرف. وكنا نكاد نعتز بما ننهمك فيه من سكر ومجون، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار. ونكاد نعدّه مجداً. ليس معنى هذا أننا كنا في قرارة أنفسنا أشراراً. فلقد كان في هؤلاء الشباب خير طبيعي فطري، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً، وكنت أنا في ذلك شراً من سائر رفاقي. وفي تلك الفترة استلمت ثروتي، فأخذت أعيش على ما يريد لي هواي وخيالي وعلى ما يشدّ من رغبات ونزوات، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أي تحفظ أو قصد. لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتي. ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت أقرأ في كثير من الأحيان، حتى لقد كنت أجد في القراءة لذة ومتعة. ومع ذلك لم أفتح التوراة يوماً غير أنني لم أفارقها، وإنما كنت أحتفظ بها قريبةً مني في تنقلاتي، كأنما أنا أنوي أن أقرأها «في يوم من الأيام وساعة من الساعات، في شهر من الأشهر وسنة من السنين». وبعد أربع سنين من الخدمة، وجدت نفسي في مدينة ك... التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها. إن المجتمع في هذه المدينة كبير العدد متنوع الملأ. وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة. وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يعدونني ثرياً، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً. وهنا إنما حدث لي حادث كان له أثر حاسم في مصيري. فقد تولهت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير، فهم ينعمون بالثراء، ولهم صلات عالية. وقد أحسن أهلها وفادتي. وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة بوجودي، فالتهب خيالي من ذلك التهاباً شديداً. ولقد أدركت فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً، وإنما كنت مفتتناً بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها، وتلك أمور ما كان لها إلا أن تؤثر في نفسي. وقد منعتني أنانيتي من

خطبتها آنذاك، إذ صعب عليّ أن أتنازل في مثل تلك السن من ريعان الشباب ومع توفر المال عمّا في حياة العازب الحرة المتحللة من الإغراءات. لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفية، وأرجأت الخطوة الحاسمة إلى ما بعد. وفي أثناء ذلك تلقيت أمراً عسكرياً بالسفر مدة شهرين إلى مقاطعة أخرى. فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت في غيابي. لقد تزوجت رجلاً غنياً من أصحاب الأملاك في ضواحي المدينة، وهو أكبر مني سناً ولكنه ما يزال شاباً، كما أن له صلات في العاصمة وفي المجتمع الراقي، وذلك ما لم يكن لي مثله. ثم إنه عدا هذا رجل لطيف محبب جداً مثقف جداً، على حين أن ثقافتي أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً. وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلني أتصور أنني فاقد بسببه صوابي. وكان أنكى ما آلمني أنني علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل. ولقد حدث أن قابلته فعلاً في منزل أهلها مراراً كثيرة دون أن يخطر ببالي شيء، من شدة ما أعماني غروري. وقد أحنقني هذا الأمر وأغاظني أكثر من أي شيء عداه. تساءلت: كيف؟ أيعلم ذلك جميع الناس إلا أنا؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد. لقد شعرت بالدم يصعد إلى جبهتي حين تذكرت تصريحات الحب التي أوشكت أن أقولها لها مراراً. إن الفتاة لم توقفني بل تركتني أتكلم دون أن تنبئني بأنها مخطوبة. فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر مني وتضحك عليّ. وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها، على خلاف ما توهمت، كانت تقاطعني في كل مرة مازحةً، وتغير موضوع الحديث، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً، فكنت أحترق توقاً إلى الانتقام. وإني لأتذكر الآن، بغير قليل من الدهشة، أن ذلك الغضب

وذلك التوق إلى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسي، لأن خفة طبعي كانت لا تتيح لي أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة. فصرت أحرّض استيائي وحنقي تحريضاً مصطنعاً حتى أصل أخيراً إلى اندفاع أخرق سخيف. ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسي، واستطعت في ذات مساء، بينما كنا في مجتمع غفير، أن أهين «غريمى» في أمر لا علاقة له في الظاهر بشخصي. سخرت من رأيه في موضوع حدثٍ كان قد وقع وهزَّ أفكار الناس كثيراً في ذلك العهد[66] - كنا في عام 1826 - وكانت سخرياتي - في رأي الحضور - مُحكمة حاذقة فكهة - ثم طلبت منه أن يصفي حسابه معي بمبارزتي، وبلغت من الفظاظة والغلظة أثناء ذلك أنه لم يملك إلا أن يقبل التحدي رغم كل ما بيني وبينه من مسافة، فأنا أولاً أصغر منه سناً، وأنا ثانياً ضابط صغير لا قيمة له في حين أنه يحتل هو مركزاً اجتماعياً عالياً جداً. وقد علمت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه إلى قبول التحدي. فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين، أثناء خطوبته، قد ساءته ملازمتي لخطيبته؛ وهو من جهة ثانية يخشى الآن، إذا علمت زوجته بأنه تحمل إهاناتي دون أن يبارزني، أن تحتقره على غير إرادة منها، وأن يتزعزع من ذلك حبها له، ولم ألبث أن عثرت على شاهدٍ لي بغير عناء، وهو رفيق من رفاقي كان ملازماً في كتيبتي نفسها. ولقد كانت المبارزات رائجة جداً بين الضباط في ذلك الزمان، رغم أنها محظورة محرَّمة، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس الإنسانية. كنا في أواخر شهر يونيو/حزيران، وحُدِّد الغد موعداً للقاء، في الساعة السابعة من الصباح، على أرض مهجورة خارج المدينة. ووقع لي في ذلك المساء حادث لا أستطيع إلا أن أعده

تدخلاً من القدر. فحين عدت إلى مسكني في ساعة متأخرة من الليل مهتاجاً اهتياجاً شديداً، ثرت على الجندي الذي يخدمني، واسمه آفاناسي، ثورة شديدة، وصفعته بكل قوتي مرتين، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه. إن آفاناسي يخدمني منذ زمن غير طويل، ولقد سبق أن ضربته من قبل، ولكنني لم أضربه بقسوة وحشية كهذه المرة. صدِّقوني يا أصدقائي الأعزاء إذا قلت لكم: إنني ما زلت إلى اليوم، بعد أكثر من أربعين عاماً، لا أستطيع أن أتذكر سلوكي حينذاك إلا وأشعر بخزي وألم عميقين. وقد رقدت فنمت زهاء ثلاث ساعات. فلما استيقظت كان الصبح قد تنفس. فأسرعت أرتدي ملابسي لأن النوم قد طار من عيني، واقتربت من النافذة ففتحتها. إن النافذة تطل على الحديقة. وقد أخذت الشمس تطلع في الأفق. والجو جميل دافىء، والعصافير تغرد. سألت نفسي: «لماذا هذا الإحساس الغريب في نفسي بالخزي والعار والاشمئزاز؟ ألأنني سأسفح دم إنسان؟ لا . . . يبدو أن هذا ليس هو السبب. أأكون إذاً خائفاً من الموت أخشى أن أُقتل؟ لا، لا، ليس هذا هو السبب، ليس هذا هو السبب أبداً. . .» وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذي كنت أشعر به: لقد كنت أحسّ بعذاب في ضميري لأنني ضربت آفاناسي في الليلة البارحة! تراءى لي المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة: كان آفاناسي واقفاً أمامي، منتصب القامة، مرفوع الرأس، جاعلاً يديه على درزة سرواله، وأنا أهوي على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة. وكان هو يحدِّق أمامه كأنه في استعراض عسكري، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمي وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة. انظروا إلى أي حالة يمكن أن يُردَّ الكائن الإنساني! كيف يستطيع إنسان أن يرضى ضرب أخيه الإنسان؟ يا لها

من جريمة! شعرت كأن ابرة تنفذ في جسمي. إنني أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً. كانت الشمس في الخارج تتلألأ، وكانت عصافير صغيرة تغرّد ببراءة، مسبحةً بحمد الرب. . . وها أنذا أخفي وجهي بيديَّ على حين فجأة، وأرتمي على سريري ناشجاً منتحباً. لقد عاودتني في تلك اللحظة ذكرى أخي مارسيل، وخطرت ببالي الكلمات التي قالها للخدم قبل موته بقليل: «يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدموني؟ ما الذي يجعلني جديراً بعاطفتكم؟» وقلت لنفسي: «ما الذي يجعلني أنا أيضاً جديراً بأن يخدمني قريني الإنسان؟» وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة. فأخذت أتساءل: «لماذا يجب على إنسان شبيه بي، إنسان خُلق مثلي على صورة الله، أن يكون خادمي؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك؟» لقد طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرةٍ في حياتي. «أماه، يا حَمَلي الوديع، إن كل إنسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس. . . البشر لا يعرفون هذا. . . ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنة منذ الآن!» تساءلت من خلال دموعي: «أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب، وأن أكون أكبر الناس إثماً؟ إني إذاً لأسوأ الناس طراً!» وتراءت لي الحقيقة فجأة في ضياء باهر! ما الذي كنت أريد أن أفعله؟ أن أقتل انساناً طيباً ذكياً نبيل الخلق لم يمسسني بسوء ولم يلحق بي أذى، وأن أحرم زوجته من السعادة إلى الأبد في الوقت نفسه، فأسلمها للعذاب وأدمّر روحها! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات راقداً على سريري، دافناً وجهي في الوسائد، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضي. وها هوذا رفيقي الملازم يظهر في غرفتي فجأة حاملاً إليّ المسدسات. قال لي: «أنهضت من نومك؟ أحسنت. . . ما يزال في الوقت

متسع. هيّا بنا!» اضطربت، وزاغ لبي، لكنني تبعته؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التي كانت تنتظر أمام المنزل، عدلت عن الركوب فجأة، وقلت لرفيقي شارحاً: «انتظرني لحظة، أنا عائد إلى البيت لأجيء بمحفظة نقودي التي تركتها فيه». وأسرعت قدماً إلى الغرفة الصغيرة التي يسكنها خادمي الجندي. قلت له: «آفاناسي! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس. سامحني!» ارتعش حين سمع كلامي كأنه قد خاف. وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافياً، وأن بادرتي لا تتناسب والأذى الذي ألحقته به، فإذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمي على قدميه بملابسي الفخمة حتى لامست جبهتي الأرض، وأقول له صائحاً. «سامحني يا آفاناسي!» بدا آفاناسي مصعوقاً، وأخذ يقول: «يا صاحب النبالة... يا أبتاه... يا مولاي... كيف يمكنك أن... أنا لست جديراً بهذا...» وأخذ يبكي هو نفسه، كما بكيت أنا منذ قليل، دافناً وجهه في يديه. واستدار نحو النافذة، مرتعشا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، غارقاً بدموعه. وهرعت ألحق برفيقي الملازم الذي كان ينتظرني في العربة. صحت أقول للحوذي: «سِرْ»، وأضفت مخاطباً رفيقي: «هل تريد أن ترى الغالب؟ إنه أمامك!» كنت أشعر بحماسة شديدة، وظللت أضحك بغير انقطاع أثناء الطريق، وأتكلم بلا توقف، أخبط في الكلام خبط عشواء... لا أتذكر ماذا قلت. وكان رفيقي ينظر إليّ راضياً مرتاحاً. قال لي: «أرى أنك شجاع! لسوف تشرِّف بزّتنا العسكرية». ووصلنا إلى أرض المعركة، حيث كنا نُنتظر. وضعنا أنا وخصمي على بعد اثنتي عشرة قدماً. وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً. وقابلته جذلاً فرحاً، وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة فأشعر أن قلبي يفيض حباً له. لم تطرف عيني. كنت واثقاً مما سأفعله. أطلق النار.

خدشت الرصاصة خدي خدشاً خفيفاً، ولامست أذني ملامسة. صحت أقول: «الحمد لله! إنك لم تقتل أخاك!» ثم تناولت مسدسي فرميته ورائي في اتجاه الغابة. ثم التفت نحو خصمي وقلت له: «سيدي! اغفر لي إنني أسأت إليك بغير سبب لطيشي وخفتي، ثم أجبرتك على أن تطلق عليَّ النار. أنني لا أساويك ولا أعدلك، فأنت خيرٌ مني عشر مرات، وربما أكثر من ذلك. قل هذا عن لساني للإنسان الذي تقدره أكثر من أي إنسان آخر في هذا العالم». فما إن نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون. قال خصمي وقد بدا عليه حتى شيء من الغضب: «ما معنى هذا؟ ما كان ينبغي أن تزعجني إذا لم تكن تنوي أن تقاتل؟» فأجبته قائلاً بمرحٍ: «لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمقاً، ولكنني صرت ذكياً عاقلاً بعد ذاك».

فقال: «أما أنك كنت بالأمس غبياً أحمقاً، فهذا أمر أسلّم به؛ وأما أنك أصبحت ذكياً عاقلاً، فهذا ما لا يبدو صحيحاً إذا نحن نظرنا إلى سلوكك».

قلت وأنا أصفق بيديَّ: «مرحى! إنني أوافقك على ما تقول. لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام!»

قال ملحاً: «أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدي أم لا؟» فأجبته: «لن أفعل. ولك أن تطلق مرةً ثانية إذا كنت تحرص على ذلك، ولكنك تحسن صنعاً إذا أنت لم تطلق».

اضطرب الشاهدان، ولا سيما صاحبي: «كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار؟ أتطلب الصفح وأنت على أرض المعركة؟ آه... ليتني تنبأت بهذا!».

كففت في هذه المرة عن الضحك، وقلت لهم جميعاً وأنا أنظر في أعينهم: «سادتي! أعجيبٌ إلى هذا الحد حقاً أن يوجد في أيامنا

هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها، وأن يعترف بها أمام الناس؟» فصاح صاحبي يقول من جديد: «لا... ولكن هذا لا يكون على أرض القتال».

فاستأنفت كلامي قائلاً: «أهذا ما يدهشكم إذاً؟ لقد كان يجب عليَّ في الواقع أن أعتذر إليه منذ وصلت، قبل أن يطلق عليَّ النار، وذلك لأجنّبه ارتكاب خطيئة قاتلة. ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل عليَّ أن أفعل ذلك، إن صحّ التعبير فإنني ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أُفهم حق فهمي إلا بعد أن أطلق عليَّ النار من على بعد اثنتي عشرة قدماً؛ وإلا لكان يمكن أن تعدوني جباناً غير جدير بأن يُسمع كلامي إذاً أنا اعتذرت له منذ وصولي قبل أن يطلق».

ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسي: «أيها السادة! تأملوا خلق الله من حولكم: السماء الصافية، والهواء النقي، والعشب الطري، والطيور المغردة! إن الطبيعة تنبسط أمامكم رائعة بغير خطيئة. ونحن وحدنا، معشر الكافرين والأغبياء، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة. يكفي أن نعقد النية على أن نعرف هذه الحقيقة حتى تحلّ هذه الجنة فوراً بكل سنائها وبهائها وجمالها. ألا فلنتعانق ولنبك...» كنت أريد أن أتابع كلامي، ولكنني أمسكت وقد انقطعت أنفاسي. وأنا أوشك أن أبكي شعرت بانفعال شديد لذيذ يتدفق صباً، وكان قلبي يفيض سعادةً لا عهد لي بمثلها من قبل. قال خصمي: «كلامك فيه عقل وتقى... لا شك في أنك إنسان طريف جداً». فأجبته ضاحكاً: «اسخر مني الآن، ولكنك ستطريني في المستقبل». قال: «بل أنا مستعد لأن أثني عليك منذ الآن. اسمح لي أن أمد إليك يدي، لأنك فيما يبدو لي إنسان صادق جداً». قلت: «لا... لا

تمدد لي يدك الآن. . . وإنما تمدها في المستقبل، بعد أن أصلح نفسي وأستحق تقديرك. . . يومئذ تصافحني وتكون على حق إذا صافحتني».

وعدنا إلى المنزل. كان شاهدي حانقاً فهو لا ينفك يقرّعني في العربة. أما أنا فكنت أقبّله. وما أن علم رفاقي بما حدث حتى اجتمعوا ليحكموا عليَّ. قال بعضهم: «لقد لطّخ شرف بزتنا العسكرية بالعار. فعليه أن يستقيل». ودافع بعضهم الآخر عني قائلاً: «ولكنه صمد أمام إطلاق النار عليه دون أن يختلج». فقال الآخرون: «غير أنه جبن بعد ذلك، وخاف استئناف تبادل الرصاص، فاعتذر على أرض المعركة». فأجاب المدافعون عني قائلين: «لو أنه خاف لأطلق النار عليه من مسدسه أولاً قبل أن يعتذر، أما وأنه قد رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك، وإنما هو شيء آخر جديد طريف». وكنت أصغي إليهم، فتملؤني أقوالهم فرحاً، ثم قلت لهم آخر الأمر: «يا أصدقائي ورفاقي الأعزة! لا يقلقنكم أمر استقالتي، فقد أرسلتها إلى المكتب منذ هذا الصباح، وسأدخل الدير متى قُبلت الاستقالة». فما إن سمعوا هذه الكلمات حتى انفجروا يضحكون ضحكاً صاخباً: «كان ينبغي أن تقول هذا من قبل. الآن اتضح كل شيء. ليس يحاكم راهب». كان رفاقي يضحكون ولكن بغير خبث؛ إنهم يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف والحنان. ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعاً يظهرون لي المحبة والمودة، حتى أعتاهم اتهاماً لي وأقساهم حكماً عليَّ. واحتفلوا بي في الكتيبة طوال الشهر الذي انقضى بين تقديمي الاستقالة وإحالتي على التقاعد. كانوا يقولون: «هذا راهبنا». وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال فيها محبة وعطف، محاولاً أن

يصرفني عما عزمت عليه، بل ومشفقاً عليَّ: «لماذا تفسد حياتك هذا الإفساد؟» «لا بل إنه شجاع. لقد جابه إطلاق النار عليه وكان في وسعه أن يردّ، ولكن لا شك أنه رأى في منامه حلماً أثناء الليلة التي سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير».

وكان الأمر كذلك في المدينة أيضاً. لقد كان الناس في الماضي يحسنون استقبالي وكفى. أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بي جميعاً. انهمرت عليَّ دعواتهم إلى ولائم يقيمونها لي. صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قراري، ولكنهم يحبونني. ويجب أن أذكر أن السلطات قد غضّت الطرف عن حادثة مبارزتنا، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعاً، وذلك لأن خصمي يمت إلى جنرالنا بقربى قريبة. ثم إنه ما من دم قد سفح، بل كان الأمر أشبه بمزحة! وقد استقلت... لذلك عُدَّت المغامرة أشبه بمزحة فعلاً. وقد تجرأت فقررت أن أعبِّر عن آرائي بغير تحرج، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال، بل كانت سخريات بريئة طيبة. وكانت تجري تلك الأحاديث عادةً في المساء، بحضور السيدات، لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال، فكان يحلو لهن أن يصغين إلى كلامي، وكنَّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا إليّ كما يصغين هنَّ.

كنت أُسأل بلهجة ساخرة: «كيف تزعم أنني مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس؟ أأنا الذي اقترف أخطاءك مثلاً؟»

وكنت أجيبهم بقولي: «لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم، لأن المجتمع قد سار منذ زمن بعيد في طريق خطأ، فرفع إلى مصاف الحقائق ضلالات بيِّنة، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه

الأحكام. هذا أنا مثلاً: لقد أردت مرةً في حياتي أن أتصرف تصرفاً صادقاً، فإذا أنا أصبح في نظركم أشبه برجل بسيط العقل أو أبله. ومهما تحبوني، فإنكم تظلون تسخرون مني».

قالت سيدة المنزل ضاحكة: «كيف يمكن أن لا يُحَبَّ فتى مثلك؟»

كان الجمع غفيراً جداً في ذلك المساء، ولمحت فجأةً، بين السيدات الحاضرات، تلك المرأة التي أردت بسببها أن أبارز، والتي كنت أحلم أن تكون خطيبتي قبل ذلك بقليل. لم أكن قد لاحظت وصولها. وها هي ذي تنهض وتدنو مني وتمد إليّ يدها وتقول لي:

«اسمح لي أن أقول لك إنني أوّل من لا يخطر بباله لحظةً أن يسخر منك. بالعكس: إنني لأحرص على أن أعرب لك عن شكري متأثرة أصدق التأثر، وأن أعبِّر لك عن تقديري واحترامي للسلوك الذي سلكته في ذلك الظرف».

وجاء إليّ زوجها أيضاً، وتبعه سائر المدعوين. كادوا يقبلونني جميعاً. اجتاح الفرح نفسي. ولاحظت خاصةً، بين الأشخاص الذين أظهروا لي مودتهم وعاطفتهم، سيداً متقدماً في السن بعض الشيء، كنت أعرف اسمه منذ زمن، ولكنني لم أُقدَّم اليه، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمة واحدة.

د) - الزائر الغامض:

كان يشغل منصباً هاماً في مدينتنا منذ سنين كثيرة. إنه شخص مرموق، غني، يتمتع باحترام عام، اشتهر ببره وإحسانه، فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوى الأيتام مبالغ ضخمة. وكان عدا ذلك يقوم بأعمال البر، متخفياً متكتماً، حتى إن ذلك لم يُعرف إلا بعد موته. إنه في نحو الخمسين من عمره، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن

يكون صارماً. وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب، وامرأته ما تزال شابة، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغاراً في ذلك الحين. في غد ذلك المساء الذي جرى فيه الحديث، كنت في منزلي، فإذا بالباب يفتح فجأة، وإذ بي أرى هذا السيد يدخل عليَّ.

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيَّرت مسكني. فإنني بعد إحالتي على التقاعد قد استأجرت غرفة في دار امرأة عجوز هي أرملة موظف من الموظفين، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتي. والحق أنني ما تركت منزلي القديم إلا لأنني في يوم المبارزة نفسه، ما إن رجعت إلى منزلي في ذلك الصباح حتى صرفت آفاناسي وأرسلته إلى الثكنة، لأنني أصبحت لا أجرؤ أن أنظر إليه بعد الذي حدث بيننا. انظروا إلى مدى هيمنة الأفكار السائدة على إنسان من أبناء المجتمع لم يتهيأ للحياة الروحية الأخلاقية! إن هذا الإنسان يمكن أن يحمرَّ خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام.

قال لي هذا السيد: «لقد أتيح لي أن أسمعك عدة مرات في منازل عدد من الأصدقاء، فكنت أصغي إلى كلامك باهتمام عظيم في كل مرة. وإنني لأحب أن أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل. فهل تمنُّ عليَّ بهذا الفضل؟» أجبته قائلاً: «ذلك يسرني أعظم السرور، وهو لي شرف كبير». ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف. فمن النظرة الأولى أذهلني هذا الرجل وجعلني أحسن بالخوف. صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لي مستمعون كثيرون، وأن هؤلاء المستمعين كانوا في كثير من الأحيان يصغون إلى كلامي باستطلاع واهتمام، ولكن ما من أحد منهم قد واجهني حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجد كله وهذا النفاذ كله. أضف إلى ذلك أن الرجل قد جاء إلى بيتي بنفسه. قال لي بعد أن جلس: «لقد

تبينت فيك قوة خلقية كبيرة، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة في ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع». فأجبته: «لعلك تقدِّرني فوق قدري في هذه القضية». فقال: «لا. . . فإن القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن. وتابع يقول: - «لقد أثّر سلوكك في نفسي تأثيراً قوياً، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعني إلى زيارتك. أحبّ لو أسألك أن تصف لي - ما لم تر ذلك فضولاً مني في غير محله - ما شعرتَ به لحظةَ قررت أن تعتذر إليه على أرض القتال، إذا كنت تتذكر مشاعرك. أرجو أن لا تعزو سؤالي هذا إلى طيش مني، فهناك غايات خفية تدفعني إلى إلقاء هذا السؤال عليك، وسأشرحها لك إذا شاء الله أن يقرب بيننا».

كنت أثناء استرساله في هذا الكلام أنظر إليه بانتباه، فشعرت فجأة باطمئنان إليه وبثقة عميقة به؛ حتى لقد أحسست أنا أيضاً بحب استطلاع قوي، لأنني قدرت أن في نفسه سراً خاصاً. قلت له:

«قبل أن أذكر لك ما شعرت به لحظة اعتذاري إلى خصمي على أرض المعركة، أحسب أن من المفيد أن أروي لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسلسلاً لا يعرفه أحد إلى الآن». وأطلعته على ما وقع لي مع آفاناسي، ورويت له كيف أنني سجدت أمامه، وقلت أختم كلامي: «تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفي في لحظة المبارزة كان سهلاً، لأنني كنت قد رجعت إلى الإحساس بالحقيقة وأنا في منزلي، فلما سرت في هذا الطريق لم يكن عليّ إلا أن أتابع المضيّ فيه؛ وسلوكي بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفني أي عناء فحسب، بل كان إلى ذلك مصحوباً بإحساس بالسعادة والفرح».

أصغى الرجل إلى كلامي بانتباه، وقال وفي نظرته إليّ مودة كبيرة وحب عظيم: «هذا كله شائق جداً، وسأعود إليك لأتحدث معك

مراراً». وأصبح يجيء إليّ كل مساء تقريباً. وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة، لو أنه حدثني عن نفسه أيضا. ولكنه لم يكن يفضي إليّ بشيء عن حياته، وكان لا يزيد على أن يسألني عن حياتي أنا. ومع ذلك فقد أحببته كثيراً، وفتحت له قلبي كله، قائلاً لنفسي إنني في غير حاجة البتة إلى معرفة سرّه، وحسبي أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم. وأرضاني أن أرى رجلاً أكبر مني سناً، رجلا يبلغ هذا المبلغ من الجد، ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلي، بل يجيء إليه في منزله... وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء. قال لي فجأة ذات يوم: «أما أن الحياة جنة، فذلك ما أفكّر فيه منذ زمن طويل». ثم أضاف فجأة: «بل إنني لا أفكر إلا في هذا». ونظر إليّ مبتسماً. «حتى إنني أشد اقتناعاً بذلك منك، لأسباب ستعرفها فيما بعد». كذلك أضاف يقول بعد قليل. وقدّرت وأنا أصغي إليه أنه ربما كان يريد أن يفضي إليّ ببعض أسراره. واستأنف كلامه قائلاً: «إن كلاً منا يحمل في نفسه جنةً مدفونةً. إن هذه الجنة قائمة في نفسي وإن تكن مختبئة. وحسبي أن أريد، حتى أجعلها تنبجس منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتي». كان يتكلم بشيء من الحماسة والتأثّر؛ وفي نظرته الغامضة رأيت ما يشبه أن يكون سؤالاً مستتراً. وتابع كلامه يقول: «إنه لصحيح كل الصحة أن كل إنسان مرتكب كل الذنوب في حق كل الناس، هذا عدا خطاياه الخاصة. تلك حقيقة كبرى عبّرت عنها، ولا يسعني إلا أن يدهشني أنك استطعت أن تكتشفها كاملةً، دفعةً واحدة. ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعاً لا حلماً فحسب، في اليوم الذي تفهم الإنسانية فيه هذه الحقيقة». فهتفت أقول بمرارة: «متى يحدث هذا؟ هل يجيء ذلك اليوم حقاً؟ أليس ذلك أملاً لا

أكثر؟» - «أأنت لا تؤمن بهذا إذاً؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك؟ ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة. كن من ذلك على ثقة! على أن هذا لن يتحقق اليوم، لأن لكل فعل ميقاته وظروف تحققه. لا بد أن تتغير الإنسانية تغيراً نفسياً وأخلاقياً. لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة، وما لم يتجهوا في طريق جديد. لن يكون على الأرض أخوة ما لم يشعر المرء بأنه أخ لكل إنسان حقاً. لن يستطيع البشر في يوم من الأيام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل لا عن طريق العلم ولا عن طريق المنفعة. إن كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب؛ وإن الحسد والحقد سيسودان فيدفعان البشر إلى أن يفني بعضهم بعضاً. تسألني متى يتحقق ملكوت السموات على الأرض. فاعلم أنه سيتحقق في يوم من الايام، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء عهد عزلة الإنسانية». «أية عزلة تعني؟» كذلك سألته. «العزلة التي تسود في جميع الميادين، ولا سيما في عصرنا هذا. إن عهد العزلة هذا لم ينته بعد، لم يحن حينه. إن كل إنسان في هذا العصر يجهد في سبيل أن يتذوق الحياة كاملةً ساعياً في سبيل ذاته، مبتعداً عن أقرانه. ولكن هيهات أن تؤدي هذه الجهود إلى تذوق الحياة كاملةً، فهي لا تقود إلا إلى فناء النفس فناء كاملاً، لأن الإنسان بدلاً من أن يتفهم ذاته تفهماً كاملاً يستغرق في عزلة تامة. لقد انحل المجتمع في عصرنا إلى أفراد يعيش كل منهم في جحره كوحش، ويهرب بعضهم من بعض، ولا يفكرون إلا في أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض. وهم يصلون من ذلك إلى أن يكره بعضهم بعضاً، وإلى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضاً. إن الإنسان يكدِّس الخيرات في العزلة، وتسره القوة التي يحسب أنه يملكها بذلك، قائلاً لنفسه إن أيامه قد

أصبحت بذلك مؤمّنة مضمونة؛ إنه لا يرى، لحماقته، أنه كلما أوغل في التكديس كان يغوص في عجز قاتل. ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد إلا على نفسه، ويفقد إيمانه بالتعاون، وينسى في عزلته القوانين التي تحكم الإنسانية حقاً، وينتهي من ذلك إلى أن يرتعد في كل يوم خوفاً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء. لقد غاب عن ذهن البشر تماماً في أيامنا هذه أن الأمن الحقيقي للإنسان في الحياة لا يتحقق بجهده الفردي المنعزل، وإنما باتحاد الجهود البشرية العامة وتناسق الأعمال الفردية. إن عهد العزلة الرهيب هذا سينتهي حتماً في يوم من الأيام، وسيفهم البشر دفعة واحدة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية، وستهب على الإنسانية يومئذ نفحة جديدة، وستتساءل مدهوشة يومئذ: كيف أمكنها أن تعيش طوال هذه المدة في ظلمات الضلالة لا ترى النور؟ وعندئذ سوف تظهر علامة ابن الإنسان في السموات... وإنما المهم أن نحافظ على عَلَمه إلى أن يجيء ذلك الحين، وأن نحاول، ولو بالقدوة الفردية، أن نخلّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية حتى لو كنا في منزلة البسطاء. ما ينبغي أن ندع لهذه الفكرة العظيمة أن تموت... حتى لو اتُّهمنا بالغباء»

هكذا كانت تنقضي ليالينا في أحاديث مشبوبة متحمسة. وأصبحت أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شيء، وأصبحت لا ألبّي دعوات الناس إلا لماماً. ثم إن الحماسة لشخصي كانت قد بدأت تزول. لقد خفّ بريق «موضتي». ولست أقول ذلك لائماً ولا عاتباً، لأن الناس ظلوا يحبونني ويحسنون وفادتي. ولكن يجب أن نعترف بأن «الموضة» تلعب في المجتمع دوراً كبيراً. أما زائري الغامض فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن إعجاباً شديداً. كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم، وكنت أحسّ أنه ينضج مشروعاً سرياً

أو يتهيأ لعمل كبير. ولعله قدَّر فيَّ أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولاً، فإنني لم أحاول، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر، أن أستدرجه إلى حيث يُسرُّ إليّ بشيء من أمره. ولكنني لاحظت أخيراً أن سره يُثقِلُ على صدره، وأنه يحترق شوقاً إلى أن يفتح لي قلبه، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحاً كل الوضوح بعد شهر. قال لي يوماً: «هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيراً عنا، وأنهم يدهشون لزياراتي المتكررة لك؟ لا ضير على كل حال، فإن كل شيء سيتضح قريباً». وكان يتفق له في بعض الأحيان أن ينتابه اضطراب شديد، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض في الغالب لينصرف. وكان في مناسبات أخرى يطيل التحديق إليّ، ويلقي عليّ نظرات نافذة، فأقول لنفسي عندئذ: «ها. . . سيتكلم»، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث، ويتطرق إلى موضوعات لا قيمة لها، أو يقول أشياء معادة مكرورة. وكان يشكو من صداع في كثير من الأحيان. وفي يوم من الأيام، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة، رأيته يصفرُّ على حين فجأة، ورأيت وجهه يتقلص، ورأيته يتفرس فيَّ تفرساً غريباً. قلت له قلقاً:

- ماذا بك؟ أأنت مريض؟

ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل.

فقال:

- أنا. . . هل تعلم؟ أنا. . . أنا قاتل.

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد أصبح شاحباً إلى درجة البياض. «ما هذه الابتسامة؟» برق هذا السؤال في ذهني ونفذ إلى قلبي، قبل أن يتسع وقتي لأن أردّ بشيء. ولكنني شحبت أنا أيضاً.

صحت أسأله:

- ماذا تعني؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

- ها أنت ذا ترى كم كلّفني هذا الاعتراف الأول من عناء. ولقد تم الاعتراف الآن، وستكون متابعته أسهل وأيسر... فهيّا أتابع...

لبثت زمناً طويلاً لا أصدّق ما كان يقوله لي؛ ولم أستطع أن أصل إلى التصديق إلا شيئاً فشيئاً، بعد أن رجع إليّ ثلاث أمسيات متتاليات، فروى لي القصة بجميع تفاصيلها. ظننته في أول الأمر مجنوناً، ثم أدركت الحقيقة أخيراً بمرارة قوية ودهشة عميقة. لقد ارتكب هذا الرجل فعلاً جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاماً: قتل امرأة شابة غنية، جميلة جداً، كانت أرملة رجل من مالكي الأطيان، وكان لها في مدينتنا دار تقيم فيها من حين إلى حين. لقد افتتن هذا الرجل بها افتتاناً شديداً، وتوله بها تولهاً مشبوباً، وصارحها ذات يوم بحبه، وحاول أن يقنعها بزواجه. ولكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط في الجيش عالي الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ في حملة حربية وكان عليه أن يعود إليها قريباً. لذلك رفضت عرض صاحبي، ورجته أن لا يجيء إليها بعد ذلك اليوم أبداً. فلما صرفته بهذه الخشونة وأصبح لا يستطيع أن يزورها، تسلل ذات ليلة إلى منزلها الذي كان يعرف ترتيبه، ماراً بالحديقة والسطح، متهوراً أشد التهور، معرضاً نفسه لأن يُكتشف. ولكن الحظ واتاه، كما يحدث هذا كثيراً في الجرائم الجريئة، فنفذ إلى دارها من كوة في السطح، ثم هبط السلم المؤدي من طابق السقف إلى شقة السيدة. كان يعلم أن الباب الذي يوجد في أسفل هذا السلم يظل مفتوحاً في كثير من الأحيان بسبب إهمال الخدم. وعلى هذا إنما كان يعوّل صاحبنا، فصدق

حسابه. فلما صار في الشقة اتجه في الظلام إلى غرفة نوم السيدة، التي كان يشتعل فيها سراج. وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء، دون أن تستأذناها، وذلك لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما تحتفل بعيد شفيعتها وتسكن غير بعيد. أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون في الملقات أو في المطبخ بالطابق الأدنى. فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هواه واستعر، فإذا بغيرة حانقة ظامئة إلى الانتقام تشب في قلبه، وإذا هو يقترب من السيدة كالسكران، ويغمد في قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل.

لم يتسع وقت السيدة لإطلاق صرخة. ورتب الرجل أموره بمكر شيطاني وحِيَل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على الخدم. لم يرض أن يستولي على محفظة القتيلة، وإنما فتح أدراج خزانتها مستعينا بمفاتيح وجدها تحت وسادتها، فاختار من محتويات هذه الأدراج أشياء هي ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل. لم يمد يده إلى السندات والصكوك والأوراق التي لها قيمة كبيرة، وإنما سرق الأموال النقدية، وسرق الحلى الذهبية مسترشداً بحجمها ووزنها، محتقراً التحف الصغيرة الحجم التي يفوق ثمنها ثمن الحلي الذهبية أضعافاً مضاعفة. وسرق كذلك كتذكار عنها بعض الأشياء وسوف نتحدث عنها فيما بعد. حتى إذا أتم جريمته على هذا النحو، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذي اتبعه في الدخول. ولم يخطر ببال أحد على الإطلاق، لا في الغد حين اكتشفت الجريمة، ولا في أية لحظة من لحظات حياته، أن يشك فيه باعتباره الجاني الحقيقي. وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يُسرّ إليهم

بشؤونه. كان الناس يعدونه أحد معارف القتيل لا أكثر، حتى إنهم كانوا لا يعدونه من معارفها المقرَّبين، لأنهم لم يروه في منزلها خلال الأسبوعين الأخيرين قبل وقوع المأساة. وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بيتر، وكانت جميع الظروف تشير إليه وتتهمه. كان هذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة - التي لم تكن تخفي ما عقدت نيتها عليه - تريد أن تدخله في قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية، أولاً لأنه عازب، وثانياً لأنه سيئ السلوك. وقد سمعه الناس في إحدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو في حالة سكر شديد وحنق قوي.

وقبل وقوع الجريمة بيومين كان قد هرب من الدار واختفى في المدينة في أماكن مجهولة. وفي غداة الجريمة، وُجد على الطريق، غير بعيد عن المدينة فاقدَ الوعي من شدة السكر، في جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم. وقد فسَّر هو ذلك بأن أنفه نَزَف، ولكن لم يُصدَّق. واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً، وأقرَّتا بأن باب الدار ظل مفتوحاً عن لهوٍ وغفلةٍ حتى عودتهما. وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه، فاعتقل الخادم البريء، وأودع السجن، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع، ثم مات في المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته. وأغلق التحقيق، ولم يبق إلا تسليم الأمر لله... وظل جميع الناس، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع في المدينة، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى. وعندئذ إنما بدأ العقاب.

وقد أسرَّ إليّ الزائر الغامض، الذي أصبح في ذلك الحين صديقاً، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الآونة الأولى إطلاقاً. صحيح أنه

تألم زمناً طويلاً، ولكن ألمه كان حسرةً على أنه قتل المرأة التي يحبها وعلى أنه فقد إلى الأبد كل أمل في أن يسعد بقربها، وكانت نار الحب ما تزال تكوي عروقه. أما إنه سفح دماً وقتل إنساناً بريئاً فذلك أمر لم يزعجه كثيراً آنذاك، ولم يكن يفكر هو فيه إلا نادراً. كان إذا تصوّر أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف إلا كما تصرف. وقد هزَّه اعتقال الخادم في أول الأمر، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن ردَّاً إليه هدوءه وطمأنينته، إذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب خوفه، وإنما مات بسبب البرد الذي أصابه أثناء هروبه، حين بات ليلة بكاملها على الأرض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أما المال والأشياء المسروقة فإنه لم يأبه لها قط، لأنه (هذا ماكان يقوله لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً. ثم إن قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذي أنشئ في المدينة في الآونة الأخيرة مبلغاً يساوي قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً. وقد فعل ذلك ليهدئ ضميره في موضوع السرقة، ومما يستحق الذكر أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسرّ هو إليّ بذلك. واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً فغرق في هذا النشاط، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد إليه بمهمة صعبة متعبة شغلته خلال سنتين، وإذ كان رجلاً جمّ النشاط فائض القوى فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التي ارتكبها نسياناً يشبه أن يكون كاملاً. وكان إذا راودته ذكراها يبادر إلى طرد هذه الذكرى. وقد انصرف أيضاً إلى البر والإحسان فدعم وأنشأ أعمالاً خيرية كثيرة في مدينتنا، وذاع صيته في العاصمتين، فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية بموسكو

وبطرسبرج. غير أن قلقاً أليماً قد استيقظ في نفسه بمرور الزمن، وأخذت ذكرى الماضي تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد إلحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه في العمل. وتعرّف في تلك الفترة إلى امرأة شابة جميلة ذكية، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه كان يقول لنفسه إنه إذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض، في همة ونشاط، بواجباته نحو امرأته وأولاده، فإنه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضي الذي يحاصره تخلصاً تاماً. ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، وإنما تحقق نقيضه.

فإنه منذ الشهر الأول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقضّ مضجعه: «صحيح أن زوجتي تحبني. ولكن كيف عساها تتصرف إذا هي عرفت الحقيقة؟» وحين أسرّت إليه أول مرة أنها ستصبح أمّاً اضطرب وقال لنفسه: «أأهب الحياة أنا الذي انتزعت الحياة؟» ثم لما ظهر الأولاد، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى: «كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأنني أستاذ يعلم الفضيلة، في حين أنني سفحت دماً؟» وكان أولاده على غاية من الظرف والجمال، ولكنه كان إذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه: «لست جديراً بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التي تتلألأ فيها براءة نفوسهم». وأخيراً انبجس أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها، انبجس وعيداً مرعباً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب إلى الانتقام! وأصبحت توافيه في الليل كوابيس مرهقة. ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه إنه سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته. ولكن أمله هذا قد خاب أيضاً. فإن القلق الداخلي ما انفك يزداد ويتفاقم. والناس في المجتمع يحترمونه تقديراً لبره وإحسانه، مع تهيبهم قوة

طبعه وانغلاق نفسه. ولكنه كان يزداد شعوراً بالإرهاق كلما ازداد شعوراً باحترام الناس له وقد اعترف لي بأنه فكر في الانتحار غير مرة. غير أن قراراً آخر قد أخذ ينضج في نفسه، قراراً بدا في أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولي على وجدانه ويترسخ في ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره. كان يقول لنفسه: «يجب أن أنهض وأعلن أمام جميع الناس أنني قاتل وأسلّم نفسي للقضاء». وظل ثلاث سنين يحمل في خياله هذا الحلم الذي يعاوده في صور جديدة وجديدة بغير انقطاع. وانتهى إلى الاقتناع بأنه سيشفي روحه وسيسترد أمنه الداخلي إلى الأبد، إذا هو اعترف بجريمته. ولكن ما إن تأصّل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه، فأصبح يقول لنفسه: «كيف أفعل مثل هذا؟» وفي ذلك الحين إنما وقعت المبارزة بيني وبين ذلك الرجل.

قال لي الزائر:

- حين نظرت إليك وجدت في نفسي القوة على أن أعزم أمري وأتخذ قراري.

نظرت إليه فهتفت أسأله وأنا أضمّ يديّ إحداهما إلى الأخرى:

- هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولّد في نفسك عزيمة كهذه العزيمة؟

فأجابني قائلاً:

- إن هذه العزيمة كانت تنضج في نفسي خلال ثلاث سنين، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجتها إلى النور. إنني إزاء المثل الذي ضربته أنت قد استحييت من ضعفي وحسدتك:

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية. قلت:

- لن يصدّقوك، فبعد أربعة عشر عاماً. . .

- عندي براهين، براهين رهيبة، لا يمكن دحضها. . . سأقدم هذه البراهين.

بكيت وعانقته.

وقال لي بعد ذلك كأنه يخاطب إنساناً يتعلق به مصيره:

- أجبني مع ذلك عن سؤال. سؤال واحد: ما الذي سيحدث في هذه الحالة لزوجتي وأولادي؟ قد تموت زوجتي حزناً. أما أولادي فإنهم لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم، ولكنهم سيظلون إلى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة. وأية ذكرى سيحفظونها عني؟

صمتّ فلم أقل شيئاً.

وأردف يقول:

- سيكون عليّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم إلى الأبد! إلى الأبد حقاً!

لم أجب بشيء، وكنت أتلو صلاةً بصوت خافت. ونهضت أخيراً وقد امتلأت نفسي رعباً وفزعاً. سألني وهو ينظر إليّ:

- هيه ماذا؟

قلت:

- اذهب واعترف بجريمتك أمام جميع الناس وسلّم نفسك للقضاء. كل شيء سينقضي وتبقى الحقيقة وحدها. وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت إليه من نبل وسموِ روحي في سبيل اتخاذ هذا القرار.

تركني في ذلك المساء وقد بدا عليه واضحاً أنه قد قرّر أن يعترف بجريمته.

ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك، يجيء إليّ كلّ

مساء تقريباً، ويستعدّ كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه، حتى إذا جاء الغد جبن في آخر لحظة عن تحقيق عزمه. وكان تردده يقلقني ويعذبني. إنه يبدو في بعض الأحيان ثابت الجنان صلب العزيمة، فها هوذا يقول في رقة وحنان:

- أنا أدري أنني سأعرف الجنّة متى اعترفت بجريمتي. لقد عشت أربعة عشر عاماً في الجحيم. أريد أن أتألم. سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة. الكذب لا يؤدي إلا إلى الظلمات، وهو يسد الطريق نحو الضياء إلى الأبد! أنا الآن لا أجرؤ أن أحبّ حتى أولادي فكيف بالناس! سيفهم أولادي... آه يا رب! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينوني! لا يظهر الرب في القوة، بل في العدل.

- سيفهمون القرار الذي اتخذته، وسيستحسنونه جميعاً، إن لم يكن فوراً ففي المستقبل حتماً. إنك بهذا العمل تخدم الحقيقة، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضي...

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد إزره، ولكنني رأيته في الغد عائداً إليّ وقد شحب وجهه وتشعّنت هيئته، فقال لي بلهجة فيها سخرية:

- كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس فيّ كمن يقول لنفسه: «لم يقرر بعد!» صبرك ولا تتسرع في احتقاري: إن إنفاذ هذا الأمر أصعب مما تظن. ومن يدري؟ فقد أعدل عنه أخيراً! أحسب أنك لن تمضي تشي بي!

والحق أنني لم أكن أتفرس فيه مستطلعاً، فلقد كنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر إليه. كانت هذه المسألة الداخلية تُمرضني، وكنت أهمّ أن أبكي في كل حين، حتى لأوشك أن أُحرم النوم. قال يوماً حين وصل إليّ:

- تركت امرأتي منذ هنيهة. هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة: «امرأتي؟... لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل: «عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في مجلة الأطفال»[67] لا... إنك لا تستطيع أن تفهم هذا! إن شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفاً.

وسطعت عيناه واختلجت شفتاه. وضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربةً بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها أخذت تهتز. إن هذه البادرة تبدو أمراً خارقاً من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة في العادة.

هتف يقول:

- أهذا ضروري فعلاً؟ أهو مفيد حقاً أن أشي بنفسي؟ ما الداعي إلى هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحد بسبب جريمتي، ولم يرسل بريء إلى السجن بدلاً عني، وقد مات ذلك الخادم من مرض؟ أما الدم المسفوح فإنني أكفر عنه بآلامي وعذابي. ثم إنهم لن يصدّقوني، وسيبعدون الأدلة التي يمكن أن أقدمها. ففيم أشي بنفسي؟ هلاّ قلت لي فيم أشي بنفسي! إنني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من تلك الجريمة في نفسي، شريطة أن لا أجرّ زوجتي وأولادي معي إلى الشقاء. هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتي في العقاب؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد؟ أين الحقيقة؟ وهل هؤلاء الناس جميعاً قادرون حقاً على أن يدركوا الحقيقة، وعلى أن يقدرونها ويحترمونها كما يجب أن تُقدّر وتُحترم؟

قلت أخاطب نفسي: «رباه! إنه يهتم بتقدير الناس في مثل هذه اللحظة!» واجتاحت نفسي عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لي أنني مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه. لقد انقلبت سحنته انقلاباً رهيباً. وما كان أشد انصعاقي حين أدركت لا بعقلي

في هذه المرة، بل بروحي وقلبي، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ!

هتف يقول:

- قرّر مصيري!

فأجبته هامساً:

- اذهب وأعلن عن جريمتك وسلّم نفسك للقضاء!

كان صوتي واهناً ضعيفاً، غير أن فيه حزماً وصلابة. ثم تناولت الكتاب المقدس من على المائدة - في ترجمته الروسية - ودللته على هذه الفقرة من إنجيل يوحنا، الإصحاح 12، الآية 24: «الحقّ الحقّ أقول لكم: إن لم تقع حبة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت فهي تأتي بثمر كثير». وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات.

قرأ الآية وقال:

- هذه هي الحقيقة.

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة، وصمت لحظة ثم قال:

- ما أكثر ما يجد المرء في هذه الكتب! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام! فمن ذا الذي كتب هذا كله؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً؟

قلت:

- نعم ولكنهم كتبوه بوحي من الروح القدس.

عاد يقول مبتسماً مرةً أخرى، ولكن ابتسامته في هذه المرة يكاد يكون فيها كره:

- ما أسهل عليك أن تثرثر!

فتحت الإنجيل على موضع آخر، وأريته الآية 31 من الإصحاح

10، «الرسالة إلى العبرانيين». فقرأ: «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحيّ»[68].

قرأ ثم رمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد. قال:

- هذه الآية رهيبة. يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها للمناسبة.

ونهض قائلاً:

- الوداع. أغلب الظن أنني لن أجيء إليك بعد اليوم... سنلتقي في الجنة. لقد «وقعت إذاً في يدي الرب الحي» مدة أربعة عشر عاماً. يظهر أن عليّ أن أسمي هذه الفترة من حياتي هكذا. غدا سأضرع إلى تينك اليدين أن تتركاني...

وددت لو أعانقه وأقبله، ولكنني لم أجرؤ. كانت قسمات وجهه منقبضة وكانت نظرته ثقيلة. خرج. تساءلت: «إلى أين يمضي هذا الإنسان الآن يا رب!»، وارتميت جاثياً على ركبتي أمام أيقونة العذراء. صليت باكياً لأم الرب التي تخف إلى الشفاعة والحماية. انقضت نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء والبكاء. أوشك الليل أن ينتصف. هذا باب الغرفة يُفتح فجأة، وهذا صاحبي يظهر من جديد. أذهلتني رؤيته.

سألته:

- من أين جئت؟

- نسيت... أظن أنني نسيت عندك شيئاً... هو منديل في أغلب الظن. وهبني لم أنس شيئاً، دعني أجلس...

- اجلس أنت أيضاً.

أطعته. ولبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم. كان يحدّق إليّ. وفجأة، ضحك ضحكة صغيرة... أتذكر ذلك... ثم نهض،

واقترب مني، وعانقني وقبّلني. . . وقال يخاطبي في هذه المرة بصيغة المفرد:

- تذكّر مجيئي الثاني إليك هذه الليلة. لا تنس ذلك. فهمت؟

تلك أول مرة يخاطبي فيا بصيغة المفرد. ثم خرج. قلت لنفسي: «إنه فاعل غداً».

لم يخطئ ظني. كنت أجهل في ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده. إنني لم أخرج منذ حينٍ إلا لماماً، فلم يذكر لي أحد ذلك. كان يقيم في كل سنة حفلة كبيرة في منزله يدعو إليها كل أبناء المجتمع الراقي من أهل المدينة. وكذلك فعل في هذه السنة. حتى إذا انتهى العشاء تقدم إلى وسط الصالة، ممسكاً بيده ورقةً كتب عليها اعترافاته موجهة إلى رؤسائه. كان رؤساؤه حاضرين الحفلة. قرأ تصريحه بصوت عال، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التي ارتكبها منذ أربعة عشر عاماً. وختم قراءته قائلاً: «أنا شيطان رجيم. وقد قررت أن أبعد نفسي عن المجتمع. لقد مستني النعمة الإلهية. أريد أن أتألم». ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التي احتفظ بها خلال تلك السنين، والتي يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته: حلي المرأة الثقيل، التي سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات، والصليب والنيشان (الذي يضم صورة خطيب المرأة القتيل) ودفتراً ورسالتين، فأما الرسالة الأولى فهي من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ قريباً، وأما الثانية فهي جواب لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله إلى خطيبها في الغد. ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين؟ وماذا كان الدافع الذي دفعه بعد ذلك إلى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التي تتهمه وتعرّضه للخطر بدلاً من أن يتلفها؟ مهما يكن من أمر، فإليكم ما حدث: ذُهل الحضور من اعترافاته، وانتابهم

جزع، ولكنهم رفضوا أن يصدّقوا هذه الاعترافات. صحيح أنهم أصغوا إليه بكثير من الانتباه والاستطلاع، ولكنهم إنما أصغوا إليه إصغاءهم إلى إنسان مريض. بعد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله. ولئن لم يكن في وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر، فلقد أرتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء. ذلك أن الرسالتين والأشياء التي قدّمها إن كانت تبعث على التفكير، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام، حتى ولو ثبت أنها للقتيلة، فمن الممكن أن تكون القتيلة قد عهدت إليه بها كصديق. وقد علمتُ فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا إلى هذه الأشياء، فلم يبق حول ذلك شك. ولكن القضية لم تُحرّك رغم هذا، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض وأن حياته في خطر. لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه. وقد تحدث الناس عن اضطرابات قلبية. ومهما يكن من أمر، فإن الأطباء قد فحصوا حالته العقلية أيضاً، وذلك بإلحاح من امرأته، فانتهوا إلى أنه مصاب ببداية جنون. ولم أكشف عن اعترافاته لي طبعاً، رغم أن جميع الناس قد حاصروني بالأسئلة. وحين أردت أن أزوره مع ذلك أُغلق دوني بابه، وكانت امرأته خاصة هي التي حالت بيني وبينه. قالت لي: «أنت الذي أدخلت الاضطراب والاختلال إلى عقله! لقد كان دائماً قاتم المزاج، وأصبح اضطرابه النفسي وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام، فجئت أنت فأجهزت على عقله! أنت الذي حشوت رأسه بهذه الأفكار! إنه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك!» ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها هل تصدّقون هذا. لقد هاجمتني المدينة كلها عندئذ وأغرقتني لوماً وتقريعاً. «هذه خطيئتك!» هذا ما كان يقول لي الناس في كل مكان. وكنت أصمت فلا أجيب، وكنت في قرارة

نفسي سعيداً. ذلك أني أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي أدان نفسه وأراد أن يلقى جزاءه. أما جنونه المزعوم، فما كان لي أن أصدقه. وسُمح لي أخيراً بأن أراه، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودّعني. فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه، معدودات. كان واهناً ضعيفاً أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء. ولكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء. قال لي:

- انتصرت الحقيقة! إنني انتظرك منذ مدة طويلة، لماذا تأخرت في المجيء؟

أخفيت عنه أنني مُنعت من الاقتراب منه.

- لقد أشفق عليّ الرب فناداني إليه. أنا أعلم أنني سأموت، ولكن روحي قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة أخيراً، لأول مرة بعد تلك السنين الطويلة كلها. لقد وجدت الجنة في نفسي منذ تكلمت مستوحياً ضميري. أصبحت لا أخشى أن أحبّ أولادي وأن أقبلهم. إن الناس ترفض أن تصدقني! ما من أحد يريد أن يسلّم بأنني قاتل، لا زوجتي ولا قضاتي. وأولادي لن يصدقوا هذا، هم أيضاً. وفي هذا أرى رأفة الله بأولادي. سوف أموت، ولكن اسمي سيظل في نظرهم طاهراً لم يدنّس ولم يُلطّخ. إنني أشعر بالله الآن، وإن قلبي لمبتهج كأنني في الجنة... لقد قمت بواجبي...

لم يستطع أن يكمل كلامه، فقد انتابه اختناق، غير أنه شدّ على يدي بحرارة، ونظر إليّ صامتاً، وقد سطعت عيناه بلهيب. لم نتمكن من إطالة حديثنا، لأن امرأته تشق الباب بغير انقطاع. واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلاً:

- هل تتذكر أنني جئت إليك للمرة الثانية، عند منتصف الليل؟

لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك. . . فهل تعلم ماذا كان هدفي حين جئت إليك في تلك الساعة؟ كان هدفي أن أقتلك!

ارتعشت.

- فبعد أن تركتك، لبثت أطوف في الشوارع على غير هدى زمناً طويلاً أصارع نفسي، فإذا أنا أشعر فجأة بكرهٍ لك بلغ من القوة أنني أحسست أن قلبي يوشك أن ينفجر. قلت لنفسي: «بسببه وحده إنما أنا مضطر إلى الاعتراف الآن. لقد أصبح قاضيّ، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غداً لأنه يعلم كل شيء». ليس معنى هذا أنني كنت أخشى أن تشي بي (إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي في لحظة من اللحظات) ولكنني كنت أقول لنفسي: «لن أستطيع أن أنظر إليه بعد ذلك إذا أنا لم أسلّم نفسي للسلطات». وسيان أن تكون في هذه المدينة أو أن تكون في أقصى الأرض، أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش في مكان ما عالماً بأمري حاكماً عليّ مديناً إياي. فأخذت أكرهك، كما لو كنت علة شقائي، كما لو كنت مسؤولاً عما أنا فيه. ورجعت إليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجراً. وجلست، ودعوتك أن تجلس أنت أيضاً، ولبثت دقيقة طويلة أفكر وأنا أحدّق إليك. بديهي أن حياتي كانت ستتحطم على أي حال لو قتلتك، وأنني كنت سأنتهي نهاية شقية، سواء اعترفت بالجريمة السابقة أم لم أعترف. ولكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة، إنني لم أكن أهتم بالعواقب. كنت أكرهك، وكانت تحرقني رغبة قوية في أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب. أما ماعدا ذلك فكان لا يعنيني. ثم انتصر الرب في تلك الدقيقة على الشيطان في قلبي. ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منك في يوم من الأيام كما اقترب منك في تلك الليلة.

مات الرجل بعد أسبوع. وشيّعت المدينة كلها جثمانه إلى المقبرة. وألقى الكاهن كلمات مؤثرة. وانتحب المنتحبون حزناً عليه، واشتكوا مرّ الشكوى من المرض الذي أماته. وبعد الجنازة قاموا عليّ. وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعونني إلى منازلهم. غير أن عدداً من الأشخاص، كانوا قلة في أول الأمر ثم تكاثروا، بعد ذلك، قد انتهوا إلى الاقتناع بصدق اعترافاته، فكانوا يجيئون إليّ في كثير من الأحيان يزعجونني بأسئلتهم عنه، وقد امتلأت نفوسهم فضولاً شديداً وفرحاً خفيفاً. إن الإنسان يحلو له أن يرى رجلاً صالحاً يسقط ويتلطخ شرفه. أبَيْتُ أن أتكلم مع ذلك، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة مبارحة تامة. وبعد خمسة أشهر منّ عليّ الرب فوجهني في طريق اليقين والنور، وباركت اليد الخفية التي قادت خطاي نحو الهدف. أما صاحبي ذاك ميخائيل، خادم الرب، الذي كان عاثر الخط وتألم كثيراً، فقد ذكرته في صلواتي كل يوم منذ ذلك الحين، وما زلت أذكره فيها حتى هذه الساعة.

- 3 -

بعض التعاليم التي عبّر عنها الأب زوسيما في أحاديثه

هـ) حديث عن الراهب الروسي والدور الذي يمكن أن يقوم به:

ما الراهب يا إخوتي ومعلميّ؟ إن بعض الناس في الأوساط المثقفة ينطقون بهذه الكلمة في أيامنا هذه ساخرين، وإن بعضهم الآخر يعدها مسبة وإهانة. وسوء الفهم هذا ما ينفكّ يتفاقم بمرور الزمن. صحيح أن بين الرهبان - يجب عليّ أن أعترف بهذه الحقيقة وأسفاه! - كسالى وفجرة وفاسقين. فأولئك أناس أشقياء ارتموا في الأديرة. والمتنوّرون من أبناء المجتمع يدلّون علينا قائلين: «رجال واهنون، لا خير فيكم ولا نفع منكم، طفيليون ومتسولون لا شرف لكم». ولكن ما أكثر المتواضعين الوادعين بيننا مع ذلك! ما أكثر الذين لا يطمحون إلا إلى أن يصلّوا للرب صلاة حارة في عزلتهم الهادئة! إن الناس لا يلقون بالاً إلى هؤلاء كما يلقون بالاً إلى أولئك، حتى إنهم لا يأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة. ألا ما أشد الدهشة التي سيشعر بها أولئك الثالبون المشنّعون إذا هم علموا أن روسيا المقدسة إنما سينقذها مرة أخرى في يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظامئون إلى العزلة والصلاة! إن هؤلاء

الرجال يستعدون صامتين «لليوم والساعة، للشهر والسنة» التي سيحين حينها. هم الآن يسهرون على صورة المسيح، محاولين بكثير من التقى والخشوع في حياتهم المغمورة، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء، فهم يعيشون في الحقيقة الإلهية وفقاً لتعاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء. حتى إذا دقت الساعة أظهروا هذه الحقيقة مقابل حقيقة العالم المترنحة. إن هناك فكرة عظيمة. إنها النجمة التي ستطلع يوماً من المشرق.

ذلكم هو رأيي في الرهبان. أأكون على ضلال، أيكون حكمي قائماً على زهو غرور؟ انظروا إلى العلمانيين، هؤلاء الذين يعيشون في المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين: ألم يدنِّسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الإلهية، هم الذين خلقوا على صورة الرب؟ إنهم يملكون العلم، ولكن العلم لا يعرف إلا ما تدركه الحواس. أما الكون الروحي، أما العنصر الأسمى في الطبيعة الإنسانية، فقد رفضوه ونبذوه وطرحوه ودانوه، شاعرين بنوع من فرح الانتصار، بل وبنوع من الكره. إن العالم يعتزّ بالحرية، ولا سيما في أيامنا هذه، ولكن ما الذي تؤدي إليه هذه الحرية، وما الذي نراه يتأكد باسمها؟ عبودية النفوس والانتحار الأخلاقي! . . يقول الناس: «إن لك حاجات، فعليك أن تسعى إلى إشباعها، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار. لا تخش رغباتك، بل أكثر عددها». تلك هي عقيدة هذه الأيام. هكذا يتصور الناس الحرية. فما الذي يؤدي إليه هذا الحق المزعوم في اتّباع المرء لرغباته؟ إنه يؤدي لدى الأغنياء إلى العزلة والانتحار النفسي، ويؤدي لدى الفقراء إلى الحسد والقتل. ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقاً، ولكنهم لم يُعلَّموا بعد وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل إشباع حاجاتهم. يُزْعَمُ

بعضهم أن التطور الطبيعي يقود الإنسانية نحو مزيد من الاتحاد، فإزالة المسافات بالمكتشفات الحديثة، ونقل الأفكار عبر الأثير ينمّيان الإحساس بالأخوة والتضامن. واحسرتاه! لا تدعوا لهذه الأوهام حول اتحاد الناس أن تخدعكم! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع. إننا إذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على إكثار حاجاته وإشباعها بسرعة، كنا نشوّه طبيعة الإنسان، ونثير فيه رغبات باطلة حمقاء، ونخلق له عادات وأحلاماً سخيفة لا سبيل إلى تحقيقها. إن الناس لا يعيشون اليوم إلا في الحسد إشباعاً لشهواتهم أو إرضاء لغرورهم. إن إقامة الحفلات، والخروج في النزهات، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفاخرة، واكتساب الألقاب وامتلاك الخدم الأقنان، إن ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها، وحاجة لا يبالون أن يضحوا بحياتهم وشرفهم، وأن يتخلوا عن حب الإنسان أخاه الإنسان، حتى ليؤثروا أن ينتحروا إذا لم يتمكنوا من إشباعها. وهذا يصدق أيضاً على من لا يملكون ثراءً طائلاً. أما الفقراء فإنهم يخنقون عن طريق الخمرة والسّكر، إلى حين، ما يشعرون به من حسد، وما يدركونه من استحالة إرضاء رغباتهم. ولكن سيأتي يومٌ يسكرون فيه بدم لا بخمر. فإلى هذا إنما يُدفعون. إني لألقي عليكم هذا السؤال: هل هؤلاء رجال أحرار؟ لقد عرفت في الماضي واحداً من «المناضلين في سبيل الفكرة». وقد أسرّ إليّ هذا الرجل في ذات يوم أنه حين حُرم من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون «فكرته» في سبيل التدخين. ومثل هذا الرجل يُزْعَمُ أنه يريد أن «يناضل في سبيل الإنسانية». هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضي بعيداً في بذل الجهد؟ إنه عاجز إلا عن اندفاعات مؤقتة وعمل مباشر، أما

الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما. فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبودية، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الإنسانية وأن يوحّدوها قد سقطوا إلى «العزلة»، كما قال لي في شبابي «زائري الغامض» ومعلمي ذاك؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الإخلاص للإنسانية، حس الوحدة الإنسانية والأخوة الإنسانية، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير إلا ابتسامات.. وأنّ للإنسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة، وماذا يمكن أن يصير إليه الإنسان الذي استعبدته حاجاته، إذا كان قد تعلّم أن يرضي الشهوات الكثيرة التي يخلقها هو نفسه؟ إن إنساناً هذا شأنه إنما يعيش في عزلة روحية. وهل تعنيه الجماعة في هذه الحالة؟ ذلك ما وصل إليه البشر: جمعوا ثروات فوق ثروات، أما الفرح فقد تناقص في قلوبهم.

وليست كذلك الطريق التي يسير فيها الراهب. كثيراً ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هي في الواقع السبيل الوحيد إلى بلوغ الحرية الحقيقية: إنني حين أضحي بحاجاتي الزائدة، وحين أسيطر بالطاعة على إرادتي المزهوة الأنانية، إنما أرتفع بعون الله إلى الحرية الروحية التي تهب لي الفرح النفسي والروحي! أيُهما أكثر تأهباً للنضال في سبيل فكرة عظيمة، الغني الذي يعيش في عزلته الروحية أم ذلك الراهب الذي تحرّر من استبداد العادات والأشياء والحاجات المادية؟ إن بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون، فهم يقولون لهم: «لقد اعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير، ونسيتم تضامنكم مع البشر إخوتكم، ونسيتم واجب خدمة الإنسانية». لسوف نرى من الذي سيخدم قضية الأخوّة الإنسانية خيراً من غيره. إلا أنهم هم الذين

يعيشون في العزلة، لا نحن، ولكنهم لا يدركون ذلك. ومن بيئتنا إنما خرج، منذ أقدم العصور، أولئك الرجال الذين ناضلوا في سبيل سعادة الشعب. فلماذا لا يكون الأمر على هذا النحو اليوم؟ لسوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت، لسوف يُرون في يوم من الأيام يهبون للقيام بعظائم الأعمال. إن الشعب هو الذي سينقذ روسيا، وإن الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبهم اتحاداً قوياً في جميع الأزمان. إذا كان الشعب في العزلة فنحن في العزلة أيضاً. إن ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن. أما مثقفونا الملحدون، فإنهم لن يصلوا إلى شيء في روسيا، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينهمون بذكاء عبقري تذكّروا هذا: إن الشعب سيقوم أخيراً على الملحدين وسيغلبهم. سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية في الأرثوذكسية. اسهروا على الشعب، وصونوا طهارة روحه. ربوه في صمت. تلك هي رسالتنا أيها الرهبان، لأن هذا الشعب يحمل في نفسه الله.

و) حديث عن السادة والخدم:

هل يمكن أن يصبحوا إخوة في الروح؟

إنه لصحيح، واأسفاه، إن الشعب يعيش في الخطيئة هو أيضاً. إن عوامل الانحلال والتفسّخ تتابع عملها وإنّ الشرّ ينتشر ساعة بعد ساعة، لأن العدوى تأتي من الطبقات العليا، فإذا بالصغار والفقراء يقعون في العزلة هم أيضاً. إننا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين. والتجار يزدادون ظمأ إلى مظاهر المجد التبجيل. إنهم يريدون أن يعدّوا مثقفين، مع أنهم لا يملكون أي ثقافة في الواقع. وهم يحسبون أنهم يصلون إلى ذلك باظهار احتقارهم للعادات القديمة. ويبلغون في هذا حد الشعور بالخجل والعار من إيمان آبائهم. إنهم

يختلفون إلى مجمتمع الأمراء، مع أنهم ليسوا إلا فلاحين متدهورين. إن الإدمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذي لا يستطيع الفكاك منه. ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الأطفال في الأسر! إن الإسراف في شرب الخمرة هو سبب ذلك. لقد رأيت أطفالاً يعملون في المصانع وهم لمّا يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم: إنهم ضعاف هزيلون مقوّسو الظهور قد فسدت أخلاقهم منذ الآن. القاعات الخانقة الموبوء الهواء، ضجة الآلات، العمل الذي لا تتخلّله راحة كافية، الأحاديث البذيئة التي يسمعها الطفل في هذه البيئة، المشروبات الكحولية، ذلك كله لا يخلق مناخاً صالحاً لنفس الطفل. إن الأطفال في حاجة إلى الشمس، والألعاب، والقدوة الحسنة، وحد أدنى من العاطفة والحنان! يجب أن تنتهي هذه الحالة أيها الرهبان، وأن يتخلص الأطفال من العذاب! امضوا إلى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة. ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شيء. ذلك أن ابن الشعب إن تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة، فإنه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا يلعنه الرب، وأنه يخطئ إذ ينقاد للشر. إن شعبنا لم يفقد إيمانه بالخير. إنه مؤمن بالله، وهو يبكي ندماً على خطاياه بدموع صادقة. وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقي واأسفاه! فهؤلاء يدعون إقامة العدالة بمعونه عقلهم وحده، مستغنين عن المسيح بعد اليوم. حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا توجد خطيئة، ولا جريمة. ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق: فإذا لم يكن هنالك إله، لم يكن هنالك خطيئة! في أوروبا تثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاتلهم بالقوة، وقادتها تقودها في كل مكان إلى إراقة الدماء قائلة لها إن غضبها حق وعدل. ألا إن «الغضب ملعون

لأنه قاس»[69]. إن روسيا سيخلّصها الرب، كما سبق أن خلّصها مراراً في الماضي. وسيأتي الخلاص، مما يملكه الشعب من روح الإذعان لمشيئة الله، ومن إيمان بوجود الله. فيا آبائي ومعلميَّ، صونوا إيمان شعبنا، لأن ما أبشركم به الآن ليس حلماً من الأحلام. لطالما شهدت أثناء حياتي كلها مما يتمتع به شعبنا الروسي العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير. لقد رأيت هذا بنفسي، وكنت شاهداً عليه، وفي وسعي أن أؤكده لكم، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التي يعيش فيها. إن شعبنا لا تلازمه روح الذل والفقراء لم يصبحوا عبيداً حتى بعد قرنين من الرق، حافظ الشعب على مسلك الحرية، دون أي غطرسة مع ذلك، ولم تعصف بنفسه روح الحسد والانتقام. لسان حال الشعب يقول: «أنت غني، وأنت في مرتبة عالية، وأنت ذكي، وأنت صاحب موهبة. إنني أعلم ذلك، وأسأل الله أن يباركك! إنني أحترمك، ولكنني لا أنسى أنني أنا أيضاً إنسان. وإذا احترمتك دون أن أحسدك، فإنني أؤكد أمامك كرامتي الإنسانية». لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم)، فإن هذا الموقف النفسي يتجلى في سلوكهم. رأيت ذلك، وكنت شاهداً عليه. صدقوني إذا قلت لكم: إن الروس تزخر نفوسهم بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكونون فقراء. ذلك أن الذين اغتنوا منهم قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم، وهذا أمر نُسأل عنه نحن أنفسنا بعض الشيء بسبب إهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا! ولكن الرب سينقذ ذويه، لأن روسيا عظيمة بإذعانها لمشيئة الله. إنني أحلم بمستقبلنا، فيبدو لي أحياناً أنني أراه: سيأتي يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا أخيراً بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير، وسيبرهن الفقير يومذاك، بعد أن يرى ندم الغني ومذلته،

على حسن الفهم هو أيضاً، فيتنازل أمامه، مستجيباً بالتعاطف لتوبته النبيلة. صدقوني أن هذا ما سيكون، لأن هذا هو ما يقودنا إليه التطور. لن يكون هناك مساواة إلا في الشعور بكرامة الإنسان الروحية، وهذه حقيقة ستكون مفهومة في بلادنا. لسوف تسود الأخوّة متى أصبح البشر أخوة بالقلب، وبدون هذه الأخوة لا يمكن أن يكون هناك قسمة عادلة. ألا فلنحتفظ في أنفسنا بصورة المسيح، حتى تشرق على العالم في يوم من الأيام درةً تشع ضياء... آمين، آمين!

يا آبائي ومعلميّ، لقد اتفق لي في الماضي أن عانيت تجربة تهزّ النفس هزّاً. حينما كنت أجوب روسيا، التقيت في مدينة ك...، وهي مركز مقاطعة، بخادمي الجندي آفانسي الذي لم أكن قد رأيته منذ ثماني سنين، أي منذ اليوم الذي صرفته فيه. لقد لمحني مصادفةً في السوق فعرفني فهرع إليّ وقد استخفه الفرح: «أهذا أنت يا مولاي، أنت، أنت؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت؟» وقادني إلى منزله. كان قد سُرِّح من الجندية وتزوج وأنجب طفلين، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة. إن مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضيء. فلما أجلسني، سخّن السماور واستدعى امرأته، كأن زيارتي عيد له. وقدّم إليّ ولديه قائلاً: «باركهما يا أبانا». فأجبته: «أأنا من يباركهما؟ ما أنا إلا راهب متواضع. سأدعو الله لهما. أما أنت يا آفاناسي بافلوفتش، فإنني ما كففت عن الدعاء لك كل يوم، منذ ذلك الحادث الذي وقع بيننا، لأن كل شيء قد بدأ يومذاك وكنت أنت سبباً له». شرحت له ما وسعني أن أشرح. فكان ينظر إليّ مدهوشاً، لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم، الضابط، موجود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط. حتى لقد أخذ يبكي. سألته: «لماذا تبكي يا

من لم أنسه قط؟ ألا إن الأفضل أن تُسر وتفرح يا عزيزي لأن الطريق الذي اخترته لنفسي طريق جميل مضيء». كان لا يتكلم وإنما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوي وتأثر شديد. وسألني: «ماذا صنعت بثروتك؟» فأجبته: «وهبتها للدير الذي نعيش فيه حياة مشتركة». ودعتهم بعد أن شربنا الشاي، فإذا هو يعطيني خمسين كوبيكاً للدير؛ وإذا هو يدسُّ في يدي خمسين كوبيكاً أخرى، خلسةً، وهو يقول: «هذه لك أنت. فما دمت راهباً تضرب في الأرض فقد تنفعك في الطريق». قبلت صدقته، وحييته وحييت امرأته، وانصرفت مبتهج القلب، أحدّث نفسي قائلاً: «لا شك أنه مثلي في هذه اللحظة، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى، هازاً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد». ولم أره منذ ذلك الحين. لقد كنت سيده وكان خادمي، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان روحي قد أعدنا إقامة الوحدة الإنسانية الكبرى بيننا. لطالما فكرت في هذا الأمر بعد ذلك، وإني لأتساءل اليوم: «لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها في يوم من الأيام متى آن الآوان؟» إنني أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقتربت.

إني لأضيف ما يلي في موضوع الخدم: كان يتفق لي في السنين الأولى من شبابي أن أغضب على الخدم: «سكبت الطباخة الحساء ساخناً مفرطاً في السخونة؛ الخادم لم ينظف ثيابي بالفرشاة». ولكن فكرة أخي العزيز الذي سمعته في طفولتي يقولها، قد بعثت في نفسي نوراً: «أأنا جدير بأن يخدمني الإنسان؟ هل يحق لي أن أعده أدنى مني لأنه فقير جاهل؟» وقد أدهشني بعد ذلك أن أفكاراً بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا إلا متأخرة. إن

الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم. فلا أقلَّ من أن نجعل سلوكنا يُشعرهم بأنهم أحرار روحياً أكثر مما لو كانوا لا يخدموننا. لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا؟ إنهم إذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أي تكبر، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا. لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم في أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا؟ إن هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن، ويمكن أن يكون قاعدة للاتحاد الرائع الذي سيتحقق للإنسانية في المستقبل، يومَ يشعر الإنسان أنه ليس في حاجة إلى أن يكون له خدم، ويوم لا يحاول أن لا يرد أقرانه البشر خدماً له كما يفعل الآن، وإنما يتطلع بكل نفسه إلى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الإنجيل. أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل في أن نرى البشر أخيراً ينشدون السعادة في مآثر التنوير والرحمة في السموّ النفسي وممارسة المحبّة، بدلاً من السعي إلى الملذات المتوحشة في النهم والفجور وحب الظهور وفي ذلك الظمأ الحاسد إلى الارتفاع فوق الآخرين؟ أما أنا فإنني أؤمن إيماناً راسخاً بأن هذا ليس أملاً باطلاً، وأن الزمان الذي سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب. إن الناس يرفعون أكتافهم ويسألونكم ساخرين: «متى يأتي هذا الزمان، وهل ما نراه الآن في العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات؟» إنني أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح. ما أكثر الأفكار التي بدت في الماضي مستحيلة التحقيق، والتي عُدت قبل عشر سنين أفكاراً طائشة لا تُعقل، ثم إذا هي تنتصر فجأة على الأرض وتنتشر في كل مكان، لأن ساعة تحققها الساحرة قد دقت وكانت خافية مستمرة! ذلكم ما سيكون في بلادنا، وسيشرق نور شعبنا على الإنسانية، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين: «إن الحجر الذي رماه البناؤون ورفضوه قد أصبح

حجر الزاوية في البناء». أما الساخرون المستهزئون فإننا نستطيع أن نلقي عليهم بدورنا هذا السؤال: «إذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام، فهلاً قلتم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح؟» قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الإنسانية، ولكن السذّج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام، حتى ليمكن أن يدهش المرء من هذه السذاجة. الحق أن في أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس في أفكارنا نحن. إنهم يأملون أن يقيموا العدل في هذا العالم، ولكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهي بهم الأمر إلى سفك الدم في كل مكان، لأن العنف يستدعي العنف، ومن يشهر السيف يهلك بالسيف. ما لم نؤمن بوعد المسيح، فإن البشر سيبيد بعضهم بعضاً، إلى أن لا يبقى منهم على قيد الحياة إلا اثنان. وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم، فإذا بأحدهم يقتل الثاني آخر الأمر ثم يقتل نفسه. ذلكم ما سيحدث إذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالمسالمين الوديعين. حين كنت ما أزال أرتدي البزة العسكرية بعد المبارزة، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم، فكان السامعون يُدهشون من كلامي ويسألون: «هل علينا أن ندعو خدمنا إلى الجلوس على أريكة، وأن نقدم إليهم الشاي؟» وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولي: إنني أتذكر هذا «لم لا؟ ولو من حين إلى حين» فسخر الحضور مني آنذاك. ألا إن سؤالهم يدل على خفّة عقولهم. إن إجابتي لم تكن واضحة جداً... أنا أسلّم بهذا... ولكن يخيل إليّ اليوم أنه قد كان فيها شيء من حقيقة.

ز) حديث عن الصلاة والمحبة، ومعرفة الحياة الآخرة:

لا تنس أن تصلّي أيها الشاب. فإذا كانت صلاتك صادقة صاحَبها

في كل مرة شعور جديد، وولَّد هذا الشعور الجديد فكرة جديدة كنت تجهلها إلى ذلك الحين، فكرة ستشد أزرك وتقوي عزيمتك بعد ذلك. وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس. تذكر أيضاً أن تُردِّد كلَّ مساء وكلما استطعت إلى ذلك سبيلاً: «هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن». ذلك أن ألوفاً من البشر يبارحون الأرض في كل ساعة، في كل دقيقة، وتمضي أرواحهم تمثل أمام الخالق. ما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم في العزلة، بعيدين عن نظر أي صديق، ممتلئي القلب مرارة وحزناً، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم، حتى إن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد. لن يعلم أحد غداً أنهم عاشوا. فإذا بصلاتك تصعد فجأة إلى الرب من الطرف الأقصى من الأرض تدعو لروح من الأرواح، رغم أنك لم تعرف هذه الروح، ولا هي تعرف من أنت. لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثُل جَزِعَةً أمام الإله العلي القدير. سوف تعلم أن أحداً يصلي لله من أجلها هي أيضاً، سوف تعلم أن على الأرض إنساناً واحداً على الأقل يحبها. وسينظر الرب عندئذ إليكما بمزيد من التسامح، لأنك قد أشفقت على ذلك الميت، وسيكون الرب أكثر رحمة به، لأن حبه أوسع من حبك، وإحسانه أعظم من إحسانك. وسيعفو الله عنه بسببك.

يا إخوتي، لا تحتقروا البشر لخطاياهم، أحبوهم رغم خطاياهم، فبذلك تعرفون المحبّة العُظمى التي هي على صورة محبة الرب. أحبوا خلق الله جملة، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة، وكل ورقة شجرة، وكل شعاع ضوء! أحبوا الحيوانات، أحبوا النباتات، أحبوا كل موجود. إنكم حين تحبون الخليقة تنفذون إلى السر الالهي الذي تضمه، والمعرفة التي تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك، ثم

ما تنفكّ تكبر في كل يوم، فإذا حبكم يعم الكون بأسره، ويصبح شاملاً. أحبوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع في قلبها فرحاً بريئاً. لا تعكروا هناءها، لا تعذبوها، لا تحرموها من الفرح، لا تخالفوا إرادة الخالق. أيها الإنسان، لا يَحْملنَّك كبرياؤك على التعالي على الحيوانات، فهي بلا خطيئة، أما أنت فإنك مع عظمتك تدنّس الأرض بوجودك وتخلف أثراً نجساً حيث تمر. ذلك شأننا جميعاً واأسفاه! ذلك شأننا جميعاً، بغير استثناء تقريباً! أحبوا الأطفال خاصة، لأنهم بلا خطيئة أيضاً، لأنهم أشبه بالملائكة؛ إنهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا، كقدوة مضيئة إلى جانبنا. ويل للذين يسيئون إلى الأطفال! لقد علمني الأب آنفيم أن أحبهم: كان هذا الراهب المتواضع، وبالكوبيكات التي توهب لنا أثناء طوافنا، يشتري حلوى يوزعها على الأطفال. كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازاً عميقاً. كذلك كان هذا الإنسان.

إن شَكّاً يراودنا في بعض الأحيان، ولا سيما حين نرى الخطيئة فنتساءل عندئذ: «أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع؟» عليك دائماً بالرفق واللين. فمتى اخترت الرفق واللين إلى الأبد، استطعت أن تستولي على العالم بأسره. إن الحب المتواضع قوة هائلة، أقوى من سائر القوى، ليس لها مثيل في العالم. راقب سلوكك في كل ساعة وفي كل دقيقة من اليوم، حتى تشعّ الطهارة منك. قد تمرّ قرب طفل وقد عصف بك الغضب، ونفسك مستاءة فتفلت من لسانك كلمة سيئة لعلك لم تلاحظ وجود الطفل، ولكن الطفل رآك، والصورة النجسة الخبيثة التي تركتها له ستبقى في قرارة قلبه البريء. أنت لم يخطر ببالك ذلك، ولكنك قد بذرت بذور الشر في هذا الكائن الصغير، وقد تطلع هذه البذرة السيئة يوماً فتجلب له الشقاء. كل

ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل، ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال في نفسك. الحب يا إخوتي معلم كبير، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه. إنه لا يُكْتَسَبُ بسهولة؛ وإنما يحصل عليه الإنسان بثمن باهظ، بجهد متصل وفي زمن طويل. ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب مؤقتاً ومصادفةً، بل أن تحب حباً مستمراً مطّرداً. إن أي إنسان، حتى المجرم، يمكن أن يشعر بحب طارئ عابر. لقد كان أخي يستغفر العصافير، وقد يبدو هذا سخيفاً من أول نظرة، ومع ذلك كان أخي على حق، لأن الحياة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج. إن ضربة تقع على مكان من الأمكنة تترجع آثارها في أقصى الطرف الآخر من الأرض. هل استغفار العصافير أحمق إلى هذا الحد؟ لو كنتَ خيراً مما أنت الآن، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة في قربك. إن الطفل وكل حيوان آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك إذا توافرت في قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة. أعود فأقول: إن الكون أشبه ببحر جميع أجزائه متّصلة. فمتى أدركتَ هذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضاً. إذا أدركت هذه الحقيقة تملكك حب شامل يملأ قلبك سعادة ووجداً فإذا أنت تسألها، تسأل العصافير، أن تغفر لك خطاياك. فتعهّد بالتنمية والإذكاء هذا الوجد، مهما يبدو للناس دون أن تخشى أن تُعَدَّ مجنوناً.

يا أصدقائي اسألوا الرب أن يهب لكم الفرح. كونوا فرحين كالأطفال، كالعصافير الصغيرة في السماء. لا تدعوا للاضطراب أن يستولي عليكم، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتها عن جهودكم؛ لا تخشوا من خطاياهم أن تجعل عملكم عقيماً أو أن لا تسمح له بالظهور. لا تقولوا قط: «إن الخطيئة في هذا العالم قوية، وإن

الرجس قوي، وإن البيئة الخبيثة قوية، على حين أننا معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان، وإن البيئة الشريرة ستدمرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح». لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائي أن يستولي عليكم. وليس هنالك إلا سبيل واحد ينفع المرء في حماية نفسه من اليأس، ألا وهو أن يعد نفسه مسؤولاً عن جميع خطايا البشر. وتلك هي الحقيقة يا أصدقائي. فمتى اعترفتم اعترافاً مخلصاً بأنكم مسؤولون عن كل شيء وعن جميع الناس، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقاً، وأن ذنبكم ليس وهماً صوَّره لكم الخيال. وعندها ستبذلون الجهد للتكفير أما إذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو في الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم، انتهيتم إلى السقوط في هوة التكبر الشيطاني، وأخذتم تدمدمون متمردين على إرادة الله. سأقول لكم رأيي في التكبر الشيطاني: إنه لعسير علينا أن ننفذ إلى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا إلى الوقوع في الخطأ، فإذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانِّين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالإعجاب. إن المعنى الحقيقي لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلوبنا يفوق إدراكنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال. فلا تستسلموا للإغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوِّغاً. على أن القاضي الأعلى سيحاسبكم عما كان في وسعكم أن تعرفوه، لا عمّا يفوق عقولكم. ستدركون هذا في حينه، وستكفّون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التي ستعرفونها. لقد كتب علينا أن نضرب في الأرض، وما لم تكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك النوع الإنساني قبل الطوفان. هناك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا في هذا العالم، ولكننا في مقابل ذلك قد أوتينا الإحساس بالصلة الحية التي تربطنا بعالم آخر،

عالم أعلى وأفضل: والجذور العميقة لعواطفنا وأفكارنا إنما تمتد في العوالم الأخرى لا في الأرض على كل حال. لذلك يعلِّم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن إدراكها في هذه الحياة الدنيا. لقد أخذ الرب بذوراً من العوالم الأخرى فنثرها على الأرض عالم الغيب ليزرع حديقته، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت، ولكن الموجودات التي نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية إلا بوعي الصلة التي تربطها بالعالم الآخر السري. حتى إذا ضعف هذا الوعي في نفسك أو زال، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها، فلا تكترث بعد ذلك بالحياة، أو هي تكره الحياة. ذلكم هو رأيي على الأقل.

ح) هل يجوز للمرء أن يحكم على أقرانه؟

الإيمان الذي لا يتزعزع

تذكر خاصةً أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان. ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضياً على مجرم قبل أن يدرك أنه، وهو القاضي، لا يقل إجراما عن الجاني الماثل أمامه، وأنه ربما كان هو المسؤول الأول عن الخطأ الذي ارتكبه هذا الرجل. حتى إذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم. قد يبدو هذا الرأي باطلاً، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. فلو قد استطعت أن أكون عادلاً على الدوام، لكان من الجائز أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته. فإذا أمكنك أن تلقي على عاتقك جناية الجاني الماثل أمامك، وأن تجعل حكمك في قلبك، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه. أما الجاني فدعه ينصرف دون أن توجه إليه لوماً. استلهم هذه القاعدة في السلوك ما وسعك ذلك، ولو نصّبك القانون قاضياً له، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه إدانة أقسى من إدانتك

إياه. وإذا ظهر لك أنه لم يحسّ رفقك به، وإذا ردَّ على حبك بالسخرية، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك: فإنما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد، وأنها ستحين في المستقبل. وهبها لن تحين أبداً، فلا تهتم كثيراً بذلك، لأن شخصاً آخر سيعترف يوماً بذنبه وسيتألم منه، وسيدركه، وسيدين نفسه بنفسه، فإذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء. صدِّق ما أقوله لك، صدِّقه تصديقاً جازماً قاطعاً، لأن هذا هو الأساس الحق الذي يقوم عليه الأمل ويقوم عليه إيمان القديسين.

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر. فإذا تذكرت، بعد أن رقدت في سريرك لتنام «أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات» فانهض فوراً لتدارك هذا النسيان. وإذا رأيت نفسك محاطاً بأناس أشرار لا يحسّون، ويرفضون أن يسمعوا لك، فارتم على أقدامهم واستغفرهم، لأنك أنت أيضاً تحمل ذنب إعراضهم عن طاعتك وعنادهم في الحقيقة. وإذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى، فاخدمهم صامتاً متواضعاً دون أن تيأس قط. وإذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة، فاسجد على الأرض حين تصبح وحيداً واغمرها بقبلاتك. اسق الأرض بدموعك، فتحمل هذه الدموع ثماراً، ولو لم يرك أو يسمعك في عزلتك أحد. حافظ على إيمانك حتى النهاية، ولو كان عليك أن تبقى الإنسان الوحيد الذي يحافظ عليه. إذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم، فثابر أنت على المضي في طريق التضحية واستمرَّ في تمجيد الله يا آخر مؤمن فقد يلقاك مؤمن آخر، فتصبحا اثنين، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب: سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة، وسوف تسبّحان بحمد الله فإذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما إلا اثنين.

إذا اتفق أن أَثِمت، فأخذ الندم على ارتكابك الخطايا أو خطيئة عارضة يعذبك ويرهقك ارهاقاً شديداً، فليبهجك أن تتذكر أن هناك إنساناً صالحاً لم يرتكب اثماً، وقل لنفسك مغتبطاً سعيداً: لئن وقعت أنا في الشر، إن ثمة إنساناً غيري قد ظل طاهراً لم يتلوث.

وإذا ملأك خبث البشر استياء وألماً عنيفاً رغم ذلك، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين انتقاماً، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسؤول عن جرائم هؤلاء الناس. اقبل هذه الآلام وتحملها. فذلك يهدئ قلبك ويطمئن نفسك. سوف تدرك أنك آثم فعلاً، لأنك كنت تستطيع أن تهدئ هؤلاء الناس بالقدوة، ولو كان عليك أن تبقى الإنسان الوحيد الذي يعيش بلا خطيئة، ثم لم تفعل... فلو أنك اتّبعت طريق النور هذا في حياتك، لاستطاع آخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك، ولأمكن الإنسان الذي تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفاً طاهراً. قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذي يأتيهم من نورك، فلا يتزعزعنّ إيمانك حينذاك، ولا يراودنك شك في قوة نور السماء وفي أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر. اعلم أن البشر سيُنقَذون غداً إن لم يمكن إنقاذهم اليوم. وإذا لم يمكن إنقاذهم أثناء حياتهم، فسيُنقَذ أبناؤهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى حتى بعد مبارحتك هذا العالم. قد يزول الرجل الصالح، ولكن نوره باق لا يزول. ثم إن الناس يقبلون الخلاص كذلك بعد موت ذلك الذي أراد أن يخلصهم. إن البشر لا يعترفون بأنبيائهم بل يضربونهم ويقتلونهم، ولكن البشر في مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدسون أولئك الذين استشهدوا بأيديهم. ففي المستقبل وفي الإنسانية بمجموعها إنما يجب عليك أن تفكر

حين تبذل ما تبذل من جهود. لا تنتظر ثواباً على الخير الذي تعمل، لأن نصيبك في هذا العالم كبير حتى بدون هذا الثواب: لسوف تعرف نفسك الفرحَ الحق الذي لا يوهب إلا للصالحين. لا تخش العظماء ولا الأقوياء. كن عاقلاً حكيماً كريماً على نفسك في كل ظرف. التزم القصد والاعتدال. اعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها علينا، وتَقَيَّد بهذه الآجال. لُذْ بالصلاة في العزلة. تعلم كيف تحب الارتماء على الأرض وتقبيلها. قبِّل الأرض بغير كلال. وأحبّها بكل نفسك. انشر حبك على كل ما يوجد. اندفع في الحب واسعَ إلى حماسة القلب. اسق الأرض بدموع فرحك، وأحبَّ هذه الدموع. لا يخجلنّك وجدك. قدِّر هذا الوجد، لأن الله مصدره، فهو هبة كبرى لا توهب في هذه الحياة الدنيا للمصطفين.

ط) حديث عن الجحيم والنار الأبدية:

تأمّلٌ صوفيٌّ

يا آبائي ومعلميَّ، لقد تساءلت: «ماالجحيم؟» فأجبت: «هو عذاب الإنسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب». فذات مرة في الوجود اللانهائي الذي لا يقاس بزمان أو مكان أتيحت للكاهن الروحي بظهوره على الأرض، القدرة على أن يقول: «أنا موجود وأنا أحب». مرةً واحدة، مرةً واحدة فقط وهبت لهذا الكائن الحي لحظة الحب الفعّال الحي، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من أزمان وآجال. وهذا الكائن السعيد الذي أغدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التي لا توصف، ولم يقدرها حق قدرها، ولم يتمتع بها، بل استخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس. إن هذا الكائن يرى إبراهيم بعد أن يبارح الأرض، ويتحدث

مع إبراهيم، كما ورد في أمثولة الغني ولازار والفتى الشرير[70]. إنه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب؛ وإذا كان يعذبه شيء فإنما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب، وأنه سيسير إلى جانب مخلوقات مُحبة احتقر هو حبها. ذلك أنه الآن يرى ويدرك، فيقول لنفسه: «أنا الآن أعلم، ورغم أنني اليوم ظامئ إلى الحب فلن يكون لحبي قيمة ولن تكون فيه تضحية، لأن حياتي الأرضية قد انتهت، ولن يأتي إبراهيم فيهدئ بقطرة من ماء الحياة (أي باعطائي حياةً أرضية جديدة فعالة شبيهة بالسابقة) ظمئي إلى الحب الروحي الذي يحرق الآن نفسي بعد أن ازدريته على الأرض: لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم وقت! إنني أتمنى الآن أن أضحي بوجودي في سبيل غيري، ولكن فات الأوان، لأن الحياة التي كان يمكن أن أضحي بها قد انقضت إلى غير رجعة، فالهوة تفصل بين حياتي الماضية وبين وجودي الآن». كثيراً ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادي. إنني لا أريد أن أبحث هذا السرَّ الذي يملأ نفسي رعباً وهولاً، ولكنني أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية إذاً لابتهج بها المعذبون، لأن الألم الجسدي يتيح لهم عندئذ أن ينسوا، ولو للحظة قصيرة، العذاب الروحي الرهيب. ثم إن تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل، لأنه عذاب داخلي لا خارجي، فلا يمكن يناله تأثير الآخرين وهبنا استطعنا أن نجرِّدهم من هذا العذاب، فإن شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيل إليَّ. هب العادلين في الجنة غفروا لهم حين رأوا آلامهم، وهبهم نادوهم إليهم بحب لا نهاية له؛ إنهم سيضاعفون بذلك آلامهم، لأنهم سيوقظون فيهم مزيداً من الظمأ الحار إلى الحب المتبادل والعرفان، في وقت أصبحوا فيه عاجزين

عن ذلك إلى الأبد. على أنني أتصور، خاشع النفس ذليلاً، إن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف، وإليكم كيف يكون ذلك: إنهم حين يقبلون حب الصالحين من دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله، سيجدون في التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفي الوضع الذي سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون في ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذي ازدروه على الأرض، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعلٍ يذكّر بفعل الحب الفعال هذا... يؤسفني، يا آبائي وأصدقائي ومعلميّ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسي بمزيد من الوضوح. ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم، ويل للمنتحرين![71] أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاء! يقال إن الدعاء لمن قتل نفسه بإرادته إثم، ويبدو أن الكنيسة تطرد من حضنها في الظاهر ذلك الذي قتل نفسه بإرادته. ولكنني أشعر مع ذلك، في سريرة نفسي، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين أيضاً، لأن المسيح لن يسوءه إفراط في الحب. لقد دعوت طوال حياتي لهؤلاء، أعترف لكم بهذا الآن يا آبائي ومعلميَّ، وما زلت أدعو لهم كل يوم.

لا شك أن في الجحيم أيضاً معذَّبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع. إن بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا بالشيطان وانضموا كلياً إلى عصيانه المتكبر. إنهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه. أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا. فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم إذ لعنوا الله والحياة. إنهم يقتاتون بكرههم المتكبر الصلف اقتيات الجائعين في الصحراء

بدمائهم يمتصونها. إن غليلهم لن يشفى يوماً، وهم يرفضون المغفرة إلى الأبد، لاعنين الرب الذي يناديهم. إنهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بحنق مسعور حين يتأملون الإله الحي، ويتمنون أن لا يوجد، ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها. هؤلاء سيظلون يحترقون إلى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم في غير طائل. ولكن لن يوهب لهم أن يموتوا...

هنا تنتهي مخطوطة ألكسي فيدوروفتش كارامازوف. وأعود فأقول: هذا عمل غير مكتمل، هذه أجزاء متفرقة. فالإشارات التي تتصل بحياة الشيخ زوسيما مثلاً لا تتناول إلا الفترة الأولى من شباب الشيخ. وإن شذرات من تعاليمه ومن الآراء التي أطلقها في عهود مختلفة وبتأثير مناسبات شتى، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارىء ذلك واضحاً. والأقوال التي نطق بها الشيخ في الساعات الأخيرة من حياته لم تنقل نقلاً كاملاً وإنما عُرضت عرضاً موجزاً فيما يظهر، تعبّر عن روح ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيداً من الإبراز بمعونة أقوال أخرى استمدها ألكسي فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة. وقد وافت الشيخَ منيته على نحو لم يكن في الحسبان حقاً. فرغم أن جميع الأشخاص الذين اجتمعوا حوله في ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة، فإن أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المباغت. وكما سبق أن قلت فإن أصدقاءه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله إلى الكلام طوال تلك الليلة أن صحته تحسّنت تحسناً ملحوظاً وإن يكن عابراً مؤقتاً، ولا شيء كان يسمح لأحد، إلى ما قبل موته بخمس دقائق (كما رُوي هذا بدهشة فيما بعد)، أن يتنبأ بأن وفاته

وشيكة. ولكن بدا عليه فجأة أنه يحسّ بألم شديد في صدره، واصفّر وجهه، وشد يده شداً قوياً على قلبه. نهض جميع الحضور وهرعوا إليه. وظل هو رغم الألم ينظر إليهم مبتسماً. وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيه، فجثا على ركبتيه، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض، وبسط ذراعيه بنوع من الوجد والجذل. وقبّل الأرض بعدئذ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه في تعاليمه، مصلياً في اندفاعة عظمى من فرح هادىء مطمئن. انتشر نبأ وفاته في المنسك والدير. وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه بما توجبه الطقوس القديمة، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة في الكنيسة. وقد عُرف موت الشيخ في المدينة قبل أن يطلع الفجر، كما أكد الناس ذلك فيما بعد. ومهما يكن من أمر، فقد تحدث الملأ عن موته في كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح، وازدحم في الدير جمع غفير من المواطنين. سنعود إلى الكلام عن هذا في الكتاب التالي، وحسبنا أن نشير هنا، مستبقين تتمة هذه القصة، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار، فأحدث في نفوس سكان الدير وفي نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الإقلاق ومن الغموض أن ذكراه ما تزال حتى يومنا هذا، بعد انقضاء العدد الكبير كله من السنين، ما تزال حية في أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة. . .

حواش

(1) «إيكاتيرنبورج»: مدينة في منطقة المناجم من الأورال، على طريق سيبريا. وتسمى الآن سفردلوفسك.

(2) «ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في لاوديكيا...» انعقد في مدينة لاوديكيا بآسيا الصغرى، التي كانت ضمن الإمبراطورية الرومانية المجمع الكنسي الذي أصبحت القواعد التي وضعها جزءاً من قوانين الكنيسة . وقد انعقد ذلك المجمع في عام 360 أو 370 ميلادي.

(3) «ميتكا»: تصغير تحقيري لاسم ميتيا (دمتري).

(4) «جروشكا»: تصغير تحقيري لاسم جروشنكا (آجرافينا).

(5) «فانكا»: تصغير تحقيري لاسم فانيا (إيفان).

(6) «أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية»: روت أرملة دوستويفكي أن هذه الطريقة هي التي كان يستعملها زوجها في مخاطبة أطفال لا يعرفهم.

(7) هذه فاجعة (بالفرنسية في الأصل).

(8) بالشكر يا سيدتي لا أحفل (بالألمانية).

آخر بيت من قصيدة شيللر «القفاز» (1797). إن كاترينا قد عذبت إيفان كثيراً وسببت له آلاماً شديدة، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها دولورج.

(9) «الرائد سينجيريف - س»: يشير سنجيريف هنا، باستعمال حرف السين (س)، إلى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن. فهكذا يتكلم الحقراء أمام العظماء، مضيفين هذا الحرف إلى أواخر الكلمات.

(10) مقطع من قصيدة بوشكين «المارد» (1823).

(11) «تشرنومازوف»: لعب لفظي على اسم كارامازوف الذي يعني نصفه «كارا»: أسود (تشورني) فيكون معنى تشرنومازوف: «المسود» أو «الملطخ بالسواد».

(12) ما للأمر وما عليه (باللاتينية في الأصل).

(13) «sosna kak so sna»: ها هنا لعب بالألفاظ قائم على التشابه بين كلمة

Sosnaومعناها الصنوبر وبين so sna بمعنى: «في الحلم».

(14) «أنا الآن في موقف فاموسوف في آخر مشاهد المسرحية»: إشارة إلى المسرحية الهزلية التي كتبها جريبويدوف (1795 - 1829) الكاتب والديبلوماسي الروسي وعنوانها: «وذو العقل يشقى» (1824) ودوستويفسكي كثيراً ما يستشهد بهذه المسرحية. في المشهد الأخير من هذه المسرحية يفاجئ فاموسوف ابنته صوفيا متحدثة مع تشاتسكي على السلم الكبير في المنزل.

(15) «بقوة عظيمة... أنجذب»: أغنية يقول دوستويفسكي في رسالة كتبها سنة 1874 أنه سمعها في موسكو قبل أربعين عاماً، وكان يغنيها الخدم.

(16) «لأن أمي امرأة نتنة»: إشارة إلى معنى اسم أمه «سمردياشايا» الذي كما سبق وذكرنا، مشتق من فعل «سمرديت» ومعناه النتنة.

(17) «نابوليون الأول، وهو أبو الإمبراطور الحالي»: واضح خطأ سمردياكوف فإن نابوليون الأول (1869 - 1821) هو عم نابوليون الثالث (1808 - 1873) الذي حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة 1851 إلى سنة 1870.

(18) «... يستطيع أن يحافظ على «مظهر نبل»...»: استشهاد غير دقيق بمقطوعة صغيرة لبوشكين عنوانها: «ذات مرة قيل للملك...» (1825): «أيها المنافقون، اجتهدوا كي تحتفظوا في الخسة بقامة نبل».

(19) «إذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه»: هنا استشهاد بعبارة للكاتب والفيلسوف فولتير (1694 - 1778) في «رسالة إلى صانع الخدع الثلاث» (1769)، وقد تحورت عبارة فولتير قليلاً، لأنها في الأصل: «فإذا لم يكن إله...».

(20) يجب أن نتذكر أن الرياضي الروسي نيقولاي لوباتشفسكي (1792 - 1856) قد عرض سنة 1826 مذهباً جديداً في «هندسة غير إقليدسية»، فسبق بذلك أينشتاين ومهّد له.

(21) ... «يوحنا الرحيم»...: يوحنا الرحيم (القرنان 6- 7) أسقف الإسكندرية. والمشهد الذي يرويه إيفان مأخوذ من «أسطورة القديس يوليان الرحيم» (1876) للكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير (1821 - 1880).

(22) ينقل دوستويفسكي هنا نقلاً أميناً مضمون وأسلوب النشرة التي أصدرتها «لجنة توزيع الكتب الدينية في إقليم «فو» بسويسرا، وعنوان النشرة «جذوة جديدة تنتزع من النار، أو القصة الحقيقية التي تروى اهتداء وموت لويس

فردريك ريشار الذي أعدم بمدينة جنيف في 11 يونية 1850». تنفيذ عقوبة الإعدام هذه التي أنزلت في ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص، قد وصفت في نشرات أخرى، منها النشرة التي أصدرها أرنست كرامر في جنيف سنة 1850، وعنوانها: «قصة اللحظات الأخيرة التي عاشها لويس فردريك ريشار».

(23) ... لقد صوَّر نكراسوف شقاء حصان كان فلاح يضربه على «عينيه الوديعتين»... الإشارة هنا إلى قصيدة الشاعر الروسي ورئيس تحرير مجلة «سوفريمينك» («المعاصر») نيقولاي نكراسوف بعنوان «قبيل الغسق» من سلسلة «عن الجو. انطباعات طريق» (1859).

(24) هي قضية ابن صاحب البنك كرونبرج، الذي أحيل إلى المحكمة لسوء معاملته ابنته. وقد وقف دوستويفسكي على هذه القضية فصلاً كاملاً من «يوميات كاتب» (1876).

(25) ... في «الأرشيف» أو «الماضي القديم»...كانت مجلتا «الأرشيف الروسي» (1863 - 1917) و«الماضي القديم الروسي» (1870 - 1918) تنشران مواد عن تأريخ روسيا وبصفة خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان دوستويفسكي يقرؤهما في كثير من الأحيان. غير أن الواقعة التي يذكرها هنا مأخوذة عن «مذكرات قن» التي كتبها كاتكوف، وهو من أنصار السلافية، ونشرتها مجلة «البشير الروسي»، العدد 9، سنة 1877.

(26) «محرر الشعب»: هو اللقب الذي أصبح يلقب به إسكندر الثاني (1818 - 1881) بعد إلغاء نظام القنانة في 19 فبراير سنة 1861.

(27) «أحدب نوتردام» (بالفرنسية في الأصل).

(28) «... احتفالاً بميلاد ابنه البكر...»: في رواية «أحدب نوتردام» لا يدور الحديث عن عيد ميلاد ولي العهد بل عن وصول الرسل الفلمنكيين الذين أرادوا تزويج ولي العهد من مرجريتا فلاندرسكايا.

(29) «الرأى الصائب للعذراء مريم المقدسة المنعمة» (بالفرنسية في الأصل).

(30) «عندنا في موسكو»: نظم القسيس جريجوري عروضاً سنة 1672 لبلاط القيصر ألكسي. وقد بدأها بمسرحيتين اقتبستا عن اللغة الألمانية وهما: «أستير» و«توبي».

(31) «سأعود قريباً»; قول المسيح في رؤيا يوحنا الرسول، (الاصحاح الثاني والعشرون، 12).

(32) بيتان من قصيدة شيللر «الرغبة»، نظمها الشاعر سنة 1801. وترجمها إلى الروسية ف. جوكوفسكي.

(33) «ظهرت هرطقة»: إشارة إلى حركة «الإصلاح». المقصود حركة الإصلاح الواسعة المعادية للاقطاع التي اكتسبت مظهر الصراع ضد الكاثوليكية. وفي القرن السادس عشر عمت معظم بلدان غرب أوروبا.

(34) «أيتها الأرض التي ولد فيك ملك السماوات»، إلخ: آخر رباعية من قصيدة للشاعر فيدور تيوتشيف عنوانها: «هذه القرى الفقيرة، هذه الطبيعة الهزيلة»، وقد كتبها الشاعر سنة 1855، وقوله «في صورة عبد» تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول إلى أهل فيليبي (الاصحاح الثاني، 6).

(35) «في نيران رائعة» إلخ: بيتان مستمدان من قصيدة «كوريولان» للشاعر الكسندر يوليجايف (1804 - 1838).

(36) «كبرق يسطع من الشرق إلى الغرب»: هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها إنجيل متى (الإصحاح الرابع والعشرون، 27: «كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان»).

(37) تمجيداً لله (باللاتينية في الأصل).

«تمجيداً لله»: هو شعار جمعية اليسوعيين التي أسسها الإسباني اغناطيوس ليولا عام 1534.

(38) من معجزات المسيح فيما أورده إنجيل مرقص (الإصحاح الخامس، 41).

(39) ... «الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون...»: استشهاد مُحَرَّف من مأساة «الضيف الحجري» (1826 - 1830) للشاعر الروسي الكسندر بوشكين (المشهد الثاني): الهواء الدافىء ساكن، والليل يعبق بالليمون وبالغار..».

(40) «شيء بدل شيء آخر»، الالتباس، سوء الفهم (باللاتينية في الاصل).

(41) «... قد خاطبك في الصحراء...» المقصود بذلك تلك القصة الواردة في الإنجيل عن غواية الشيطان للمسيح (إنجيل متى، الإصحاح الرابع، 1-11، وإنجيل لوقا، الإصحاح الرابع، 1-13).

(42) «وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك...»: جاء في إنجيل متى (الإصحاح الرابع، 5-6: «ثم أخذ إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحمونك لكي لا تصدم بحجر رجلك». ومثل هذا

جاء في إنجيل لوقا (الإصحاح الرابع، 9-11).

(43) «إن رسولك الكبير يروي...»: هو يوحنا الرسول في رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول، الإصحاح السابع، 3-8) وهي أحد إصحاحات العهد الجديد. وقد صبغت مصارحات يوحنا في صورة رؤيا، وتضمنت نبوءات عن آخر أيام العالم ومصيره. يذكر فلاديمير سولوفيف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكي المفضل في السنين الأخيرة من حياته.

(44) «فمنذ ثمانية قرون..»: إشارة إلى إنشاء دولة البابا سنة 756.

(45) صورة من رؤيا بولس الرسول (الإصحاح السابع عشر) ولعلها رمز إلى روما الوثنية.

(46) قد قلت (باللاتينية في الأصل).

(47) «... إن الماسونيين لا بد أن يكون لهم سر من هذا النوع...» الماسونيون أو الماسونيون الأحرار هم أعضاء اتحاد سري تكون في القرن الثامن عشر في انجلترا، ثم انتشر بعد ذلك في جميع البلدان. وقد سعى الماسونيون إلى إنشاء دين جديد يمكنهم بواسطته أن يسيطروا على العالم. وقد أحيط نشاطهم بالسرية لا بالنسبة للجماعات الأخرى فحسب بل وداخل السلم الهرمي الماسوني ذاته.

(48) .. إلى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة»...: استشهاد غير دقيق بقصيدة بوشكين. «ذكريات» (1828).

(49) الأب سيرافيكوس (باللاتينية في الأصل).

... الأب سيرافيكوس...: إشارة إلى فرانسيسك الأسيزي (1181 أو 1182 - 1226) الواعظ الإيطالي ومؤسس وسام الفرانسيسكان. واسم «الأب سيرافيكوس» بالنسبة للقديس فرانسيسك قد تبنته الكنيسة الكاثوليكية، وهو يرتبط بالوقائع الأسطورية في سيرة حياته كرؤية المسيح في صورة الملاك سيرافيم، هذه الرؤية التي تجلت لفرانسيسك ذات مرة. (وعلى لسان إيفان تعبر هذه الكلمات قبل كل شيء عن الاحترام للشيخ زوسيما، غريمه. وفي الوقت نفسه تدل على أنه ليس لدى إيفان فرق بين الكاثوليكية والأرثوذكسية). أطلق كذلك هذا الاسم من أسماء القرون الوسطى على القديس بونافانتورا، وهو يظهر في المشهد الأخير من الجزء الثاني من «فاوست» جوته.

(50) «تشرماشنيا»: هو اسم قرية ملحقة بأملاك والد دوستويفسكي. وقد زار

دوستويفسكي هذه الأماكن منذ طفولته حتى سنة 1877.

(51) «على أن أكون خادمه ليتشاردا...» ليتشاردا هو خادم الملك جفيدون في الرواية المترجمة «قصة ولي العهد بوف» التي ظهرت في روسيا في القرن السادس عشر وما زالت تروى شفهياً وكتابة.

(52) «كولاك»: كان اسم «كولاك» يطلق على المحتكرين وعلى الفلاحين الأغنياء، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد.

(53) «لياجافي»: نعت معناه «كلب صيد».

(54) «إن لم تقع حبة الحنطة...»: قول المسيح بعد قيام عازر من الموت، كما ورد في إنجيل يوحنا (الإصحاح الثاني عشر، 24 - 25). وبهذا القول صدّر دوستويفسكي روايته هذه.

(55) «مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والإنجيل»: قالت أرملة دوستويفسكي: «في هذا الكتاب إنما تعلم فيدور ميخائيلوفتش القراءة». وهو موجود الآن في متحف دوستويفسكي بموسكو.

(56) «كان يعيش في أرض عوص...»: إشار ة إلى الفصل الأول من سفر أيوب.

(57) «إن القصص التي تروي حياة إبراهيم وسارة وإسحق وربيكا ويعقوب الذي ذهب إلى عند لابان...» بخصوص إبراهيم وسارة. انظر سفر موسى الأول. التكوين، الإصحاح 11، الآيات 29 - 31 والإصحاح 12 - 18، الآيات 20 - 32. وعن إسحق وربيكا انظر الإصحاح 24 - 27، وعن يعقوب انظر الإصحاح 28 - 32، وعن صراع يعقوب مع الرب انظر الإصحاح 32 الآيات 24 - 32.

(58) «قصة الفتى الجميل الفتان يوسف...» انظر سفر التكوين الإصحاح 37، 39 - 40.

(59) المقصود وصية يعقوب: «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب (سفر التكوين، الإصحاح 49، الآية 10) ويعتبر المسيحيون هذه الكلمات نبوءة بقدوم المسيح.

(60) قصة استير الرائعة وفاستي المتكبرة...: المقصود الرواية المذكورة في التوراة عن زوجتي الملك احشويروش. فقد رفضت فاستي (وشتي) المثول أمام الملك حسب أمره «ليري الشعوب والرؤساء جمالها» فعاقبها على تكبرها وعصيانها واختار بدلاً منها أستير العاقلة الوديعة (انظر سفر أستير).

(61) ... القصة عن يونس في جوف الحوت...؛ انظر قصة النبي يونس.

(62) ... ولا سيما رموز الإنجيل كما وردت في كتاب القديس لوقا...: تتضمن جميع الأناجيل (ما عدا إنجيل يوحنا) «قصصاً ربانية» وهي قصص قصيرة مجازية. ومثل هذه القصص هي في إنجيل لوقا أكثر مما في الأناجيل الأخرى. وبعض هذه القصص في إنجيل لوقا تقوم أساساً لأهم المواقف في «الأخوة كارامازوف» مثل قصة تقسيم الإرث.

(63) تقول الأسطورة الواردة في أعمال الرسل (العهد الجديد) إن شاول مضطهد المسيحيين رأى ذات مرة وهو في طريقه إلى دمشق نوراً من السماء وسمع صوت المسيح الذي سأله: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» (أعمال الرسل، الإصحاح التاسع 40). وصعق الشاب وعندما وصل دمشق كان قد أصبح مسيحياً، وبعد ذلك أصبح رسولاً وتسمى باسم مهين هو بولس (من اللاتينية paulus أي «الصغير»).

(64) حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية...: تقول الأساطير إن مريم المصرية (القبطية) التي تحتفل الكنيسة بذكراها في أول إبريل حسب التقويم القديم، كانت في صباها فتاة ضالة. وسمعت بالصدفة عن تعاليم المسيحية فانضمت إلى ركب الحجاج المتوجه إلى القدس واعتنقت المسيحية وعاشت سبعة وأربعين سنة معتكفة في الصحراء على الصلاة والتوبة.

(65) «... وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم...» الإشارة هنا إلى مشهد من سيرة سرجي رادونيجسكي (1314 - 1392). وهو شخصية دينية وسياسية كبيرة، ساعد على تعزيز سلطة كبار أمراء موسكو ورفع مكانة موسكو. وهو مؤسس دير الثالوث الأقدس في مدينة زاغورسك قرب موسكو.

(66) «... في موضوع حدث كان قد وقع...»: إشارة إلى ثورة الديسمبريين في شهر ديسمبر 1825.

(67) «عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في «مجلة الأطفال»: كانت هناك عدة مجلات تحمل هذا الاسم في روسيا آنذاك.

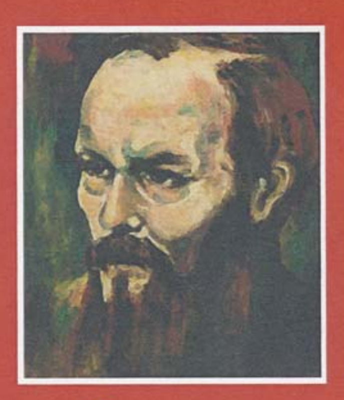
(68) «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي»: هذا الشطر الوارد في رسالة بولس الرسول موجه إلى أولئك الذين زغم «إدراك الحقيقة» لا يحترمون المسيح وتعاليمه (رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين، اصحاح 10 - 131).

(69) «ألا إن الغضب ملعون لأنه قاس»...: الشيخ يكرر كلمات وصية يعقوب الذي أدان ولدين من أولاده هما شمعون ولاوي اللذين انتقما بقسوة غير

مبررة من المدينة كلها دفاعاً عن شرف أختهما. «ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاس» (سفر التكوين، الإصحاح 49، 7).

(70) «يرى إبراهيم بعد أن يبارح الأرض ويتحدث مع إبراهيم كما ورد في رمز الغني ولازار...» انظر: إنجيل لوقا، الإصحاح 16، الآيات 19 - 26.

(71) «... ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم، ويل للمنتحرين» الانتحار في مفهوم الكنيسة المسيحية هو من أكبر الذنوب، وتضع الكنيسة المنتحر في مستوى الوثني أو الهرطيق وتمنع دفنه بنفس طقوس دفن الأشخاص الآخرين.



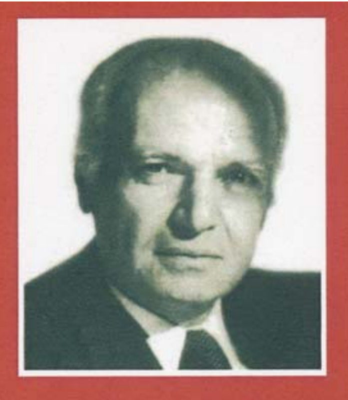
دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في ١١/١١/١٨٢١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.



سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرةعام ١٩٦١.
* عمل مدرساًللفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (١٩٧٨).

في عالم دوستويفسكي يتصارع الرحمن مع الشيطان، والخير مع الشرّ، والحقيقة مع الزيف... وكل ذلك في نفس الإنسان. هكذا هو الأمر على الأرض وفي السماء.. اليوم ومنذ ألف عام.

"ديمتري"، ضابط شاب، ليس مميزاً، بل على العكس، طائش، زير نساء، وسكّير. يقامر ويبذّر أموالاً هي أمانة عنده.. ولكن مع ذلك يعذّبه ضميره. يريد إعادة هذه الأموال وأمله معقود على مال والده.. والوالد، الذي يعيش على هواه، لن يعطيه ما يريد..

لكن يا لهذا الشقيّ! ففي هذا العربيد تحيا روح تعذّبه وتمزّقه. وهو يقول مخاطباً أخاه النّقيّ الورع "أليوشا": "رهيبٌ مصير الإنسان، شديدة آلامه.. ألا فلأكن ملعوناً، منحطاً، سافلاً.. ولكنني لئن اتّبعت الشيطان يا ربّ، فإنني أظلّ ابنك، وأحبك، وفي نفسي رغبة في إرضائك.."

وهذا حال الأخ الثالث "ألكسي"، الذي يعيش ذلك الصراع والقلق بين صورة براقة في الخارج ومظلمة في الداخل.

إن قراءة دوستويفسكي تتطلّب الإنصات والتأمّل.. وذلك من أجل الدخول إلى الروعة الكامنة في أعماق الوقائع، وفي أعماق نماذجه التي يقدّمها في هذه الرواية.. إنه يدفع الإنسان لأن يميّز بين الخير والشرّ مستلهماً حُكمَ قلبه، ويرى أنه من الأفضل أن نهب الله محبتنا أحراراً من أن ننصاع له عبيداً.

اللوحة وتصميم الغلاف: مروان قصاب باشي



ISBN 978-9953-68-467-7
9 789953 684673



المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com